


SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN





السفر الى المؤتمر

(وهى الرسائل التى كتبها)

أحمد زكى

﴿ مترجم مجلس النظار ﴾

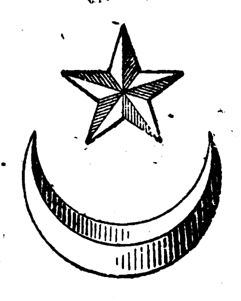
أثناء سياحته بأوروبا حينما توجه الى لوندرة للنيابة عن الحكومة المصرية

فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع

سافروا تصحوا وتغنموا
حديث كريم

الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق

سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وصلاة وسلاما على نبى الهجرة الذى اختصه مولاه بعوائد لاتستقصى وعلى آله وصحبه الذين انتشروا فى الامصار وطافوا الاقطار فرفعوا للعلم أعلى منار وضربوا للناس الامثال فاصبح التمدن كما تراه جليل المقدار سامى الاعتبار

(وبعد) فان لكل عامل غاية يتوخاها ولكل مرتاد ضالة ينشدها وضالتى التى نشدتها فى هذه المجموعة العناية بتخييل ماشاهده العيان من المناظر الشائقة والمرائى الرائقة تخييلا تنجلى به للقارئ موائل يتقراها بيده ويسبرها بساعده فاننى حاولت ان أمثل له تأثير الحس وانفعال النفس اذ الباصرة تنقل والخيال ينقل والمفكرة تخبر والضمير على مايسبر فتنفعل

الحواس فتنبئ بحسب مايقع عليها من التأثير وحكمها فى ذلك راجع
الى مزاج الانسان وطبيعته ومشربه وتربيته فقد كنت أعرف قبل
تطوافى ببعض البلدان أمورا كثيرة ولكننى لما طوحت بى الايام الى
تلك النواحى تناسيت الصور التى كانت مرتسمة فى مخيلتى فملها الى
الانفعال النفسانى بصورة توافق أو تخالف ما كنت أعرفه فهذا
هو التأثير النفسانى الذى ابتغيت المبادرة بتخطيطه بوقته فى رسائلى
هذه قبل ان يضيع شئ منه أو يعرض مؤثر آخر عليه حتى انى
كنت اكتب رسائلى هذه وأنا بين حل وترحال تطوح بى الاسفار
ولا يستقر لى قرار وليس لى من الوقت مايكفى للمراجعة والتنقيح واعادة
النظر والترجيح فقد كنت أخذت على نفسى قبل السفر ان أمضى
نهارى فى التنقل من مكان الى مكان أصعد الى أعالى كل مدينة
نزلت بها وأدخل فى جميع آثارها وأطوف كل شوارعها وأزور كافة
متاحفها وبالجملة أشاهد كل مايمكن مشاهدته فى اليوم وأقضى
شطرا من الليل ليس بقليل فى إتمام مايتسنى رؤيته بالليل وتعليق
المفكرات وكتابة البريد وكنت فى كل لحظة متخوفا من فوات
القطار حتى لقد صدق علىّ قول بديع الزمان الهمدانى

اسكندرية دارى * لو قر فيها قرارى
لكن بالشام ليلى * وبالعراق نهارى

أوما قاله السعد التفتازانى

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـ * ـعذيب يوما ويوما بالخليصاء

بل قد كان وقتى من أقصر مايكون مع مالا ينفك عن المسافر من قلق البال وتشتت الافكار ولقد كنت أسعى فى توفير الزمن وتكثيره باتعاب نفسى وحرمانها من الراحة حتى انى كنت أفضل السفر ليلا فى أغلب الاحيان الا اذا لم يكن ذلك فى الامكان ولقد صدق رسول الله الكريم فى قوله (عليكم بالدلجة فان الارض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار)

وقد أفرغت وسعى فى التحقيق والتدقيق كما يشهد به المنصف الذى ينظر فى هذه الرسائل التى يعلى من رايتها ويرفع من ذكرها انى حررتها وأنا أنظر الاشياء بعينى مصرى بحت ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين فلم أعبأ بقول مصنف غربى ولم ألتفت الى نبأ مؤلف عربى الاحينما تدعو الضرورة الى تحقيقات جغرافية أوعلمية وذكر بعض الاحصائيات وفيما عدا ذلك أشهد الله انى لم يكن لى من معتمد فى استكناه الحقائق واستجلاء الماهيات سوى شعورى المصرى الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ممن يوثق بعلمه وخبرته من أهل هاتيك الديار هذا وقد باشرت طبعها بغاية العناية مع اصلاح الكثير من غلطات المطبعة وايراد بعض الجمل التى كانت حذفت فى غيبتى لاسباب اقتضاها الزمان فرددتها

كما كانت يوم كتبتها باوروبا بالتمام غيرانى أضفت كثيرا من الحواشى والتعليقات لزيادة التحقيق والتدقيق فى بعض المواضع

وهنا انبه القارئ الى ان الرسالة الكبيرة على باريس لم يسبق طبعها قبل الآن هى وكمالة الرسالة الاندلسية فى بيان امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاعلام وكذلك الخاتمة وانى استلفت النظر بنوع مخصوص الى رسالة باريس الثانية فانها تصور هذه المدينة للقارئ تصويرا وافيا جامعا بحيث ان من تمعنها وصبر على قراءتها يمكنه ان يقول انه يعرف باريس ومافيها مما قد لايعرفه كثير من المقيمين فيها سواء كانوا من أهلها أو النازلين بها وأكثر مما يقف عليه السائح الذى قد يقيم فيها شهرا أو أكثر من شهر وأما كمالة الرسالة الاندلسية فهى تستحق من العناية مالا يقل عن ذلك وحسبى انى طرقت بها بابا جديدا توصلت منه الى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ماعانيته فيه من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لايخفى على فطانة أهل الانصاف ومحبى الحقائق العلمية

وأقول ان مادونته فى هذه الرسائل هو شئ قليل فى جانب ماعندى من البيانات والمعلومات التى عنيت بتعليقها وجمعها لتدوينها فى الرحلة الكبرى وغاية سؤالى للملك المتعالى ان يقدرنى

على اتمام تدوينها وييسر الطريق الى طبعها وتعميمها فانى عزمت على ادارة سياجها وانتهاج منهاجها وجعل موضوعها فلسفيا محضا أتحرى البحث فيها بصفة كونى مسلما شرقيا يعنينى من عملى التنقيب عن آداب الشرقيين والغربيين والمقارنة بين اخلاقهم وعلومهم ومذاهبهم ونحلهم ومبلغ ارتقائهم ومقدار تأثير الأولين على الآخرين أو الآخرين على الاولين فى القديم أو الحديث ومرجع ذلك فى الاغلب الى دواوين الفلاسفة ومصنفات الجهابذة من الفريقين والله الهادى الى سواء السبيل ٠

احمد زكى

﴿الرسالة الاولى﴾

من نابولى فى يوم السبت ٢٧ محرم سنة ١٣١٠ — ٢١ أغسطس سنة ١٨٩٢ *

فراق الوطن

حقا لقد صدق من قال انه اذا كان للعلم مجال فللعمل ألف مجال وان حقائق الاشياء وهى فى عالم القوة أقل منها بكثير حينما تبرز الى حيز الوجود وتتجلى فى مظاهر الشهود فطالما قرأت ما أتى به الكتاب من الآيات البينات وما ترنم به الشعراء من الابيات الابيات فى الحنين الى الاوطان والتشوق الى الاهل والخلان والتوجع من مفارقة المألوف والتفجع من مبارحة الديار والربوع ولم تكن نفسى تتأثر من ذلك الا بمقدار اعجابها ببراعة الكاتب واقتدار الناظم على صوغ المعانى فى أجمل القوالب وسبك الالفاظ على أبدع طراز وتمثيل التخييل بما ترتاح له النفس وينشرح منه الفؤاد وكنت اظن ان ذلك انما مصدره تنميق الكتاب وتزويق الشعراء حتى قضى علىّ طلب المعالى بمفارقة مصر السعيدة المحروسة وديارها المحبوبة المأنوسة فانجلت لى هذه العواطف الجليلة فى أجلى جلبابها وحلت هذه الشعائر الحميدة فى فؤادى باحلى معانيها فتمنيت حينئذ لو كنت من المنشئين المجيدين لاصور لك أيها القارئ العزيز والمواطن الفطين حب الوطن مجسما فى أجمل حال وعلى أكمل منوال ليكون ذلك

باعثا يدفعك الى تعزيز شأنه والسعى بما فى قدرتك على رفع مناره والاجتهاد بما قسمه الله لك من العرفان فى تهذيب ابنائه وبث نور العلم فى انحائه فانى وعينيك حينما اقترب الوقت المضروب لمبارحة القاهرة (يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٢) كنت أجيل الطرف وأزود الناظر بما فى القاهرة من باهر المناظر وأجتلى محاسنها الكرة بعد الكرة وأتملى من رؤية معاهدها المرة بعد المرة ليكون لى ذخر منها الى أن أعود اليها بسلامة الله وحسن توفيقه وما زلت على هذه الحال مشغول البال مشتت البلبال وأنا كالباهت الحيران حتى حان وقت السفر

احتفال الاخوان

فاحتشد الاخوان الافاضل والخلان الاماثل لتوديعى على محطة العاصمة وكان الكثير منهم يقول «انما جئنا لنودعك حتى تتقوى بنا عزيمتك وينشرح برؤيتنا صدرك فتبذل قصارى ماعندك فى حسن القيام بالمأمورية الجليلة التى عهدت اليك وتأتى باصدق برهان على ان فى مصر من الشبان من اذا شملهم بنظره الكريم أمير مصر مولانا العباس أصبحوا من أفاضل الناس وجعلوا للوطن العزيز بين الامم المتمدنة مقاما محمودا وفضلا مشهودا»

فكنت أنظر الى نفسى ومن أنا ثم أردد الفكر فى هذا

الاحتفال وفى أمثال هذا المقال فأرى أن هذا التظاهر العظيم وان هذا الاحتفال والتكريم انما يقصد به اعلاء كلمة الوطنية واتحاد القلوب على تنشيط كل من يقوم بعمل يرجى منه نفع البلاد بقطع النظر عن مقام القائم بهذا العمل فى هيئتنا الاجتماعية صغيرا كان أو كبيرا فانى لم أبلغ الى الآن من مناصب الرآسة ومراتب العظمة والوجاهة ما يجعل القوم يتقاطرون على التقرب منى والتزلف الى من باب الرهبة أومن باب الرغبة فلا ريب فى ان الباعث لذلك الاحتفال والاجلال هو الاخلاص فى التكاتف على تأييد كل مسعى على وتعضيد كل عمل وطنى وان اخواننا أيدهم الله بروح منه قد احسوا بوجوب الدعوة الى رفع شأن الوطن وتعزيزه فلهم من وطنهم أخلص الشكر واجزل الثناء اذليس فى وسعى ان أوفيهم حقهم من الاعتراف بجميل فضلهم

ولقد لاقيت فى الاسكندرية (عروس المشرق وعنوان المغرب) عند مقدمى اليها وقيامى منها مثل مالقيت فى القاهرة وفى ذلك برهان قاطع على ان الشعور بحب الوطن والدأب على استمرار حركة النهضة الوطنية قد سرى فى عامة الفضلاء سريان الارواح فى الاجساد وكيف لايكون الامر كذلك وأميرنا الهمام وولى نعمتنا المقدام مولانا العباس وطد الله دعائم ملكه ونشر فى الخافقين ألوية

مجدة لنا به أحسن اسوة وأتم قدوة فانه أول من يسعى فى النهوض بالوطن المحبوب الى ذروة العز ومنصة الشرف

شرف المثول بين يدى ولى النعم

وقد قال لى حينما تشرفت بلثم أيديه الكريمة وشكر اياديه العميمة ان بعضهم اعترض على تعيينى فى هذه المأمورية العلمية العلية بانى مازلت فى دور الشبيبة والفتوة فأجاب بلفظه الفاخر المنيف

«ان هذا هو ذات الواجب وعين الصواب فان زكى من نوابغ الشبان وبه يمكننا أن نبرهن لعلماء أوربا على ان عندنا من الشبان من يجارونهم فى ميادين الفضل والعرفان»

فكيف لاأتيه فخارا واختال ابتهاجا بهذا القول الذى هو أفضل من جميع علامات التشريف ودرجات التكريم وكيف لاأدأب على البحث والاجتهاد حتى يبقى اعتقاد ولى النعم فى عبده المخلص هكذا على الدوام وكيف لايكون فى ذلك المقال أعظم تنشيط لامثالى من الشبان يدعوهم الى اطراح الكسل وترك الخمول والاقبال على كل عمل يرفع شأن وطنهم و يستوجب رضا ولى نعمتهم ولمثل هذا فليعمل العاملون و بمثل هذا فليتنافس المتنافسون

ركوب البحر وزيادة الاشجان

قمت من الاسكندرية فى صباح يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ٩٢ فى باخرة من بواخر شركة اللويد النمساوية اسمها فوروورد قد

جمعت الى النظافة أسباب الراحة بحيث لم يكن ينقصنا فيها شيء مما نراه فى المدائن سوى قرب تناوله وسهولة الحصول عليه بمجرد الضغط على الجرس الكهربائى ولم يكن فيها كثير من السواح ولكنها أقلعت (أو أبحرت من البخار) بعد الوقت المضروب بربع ساعة على التقريب وسارت الى ان خرجت من بوغاز الاسكندرية وابتعدت عن الشطوط المصرية فكنت أحدق النظر المجرد ومستعينا بالنظارة المقربة إلى رؤية اطراف الاراضى المصرية حتى سترها حجاب الافق واذذاك أخذتنى كآبة وتولانى حزن وتملكنى انقباض مما لم يكن لى به عهد من ذى قبل فاغرورقت الدموع فى قلب فؤادى وتلهفت نفسى الى معاهد بلادى ولم تذهب عنى هذه اللوعة الا بعد ان أطلت الفكرة فى انى أسعى الى مجد مؤثل قد يدركه أمثالى وأعود الى وطنى سالما غانما رابحا ناجحا باذن الله تعالى فشاغلت نفسى عن تيار هذه الافكار بالنظر الى تمايل السفينة ذات اليمين وذات اليسار وتلاعب الامواج وصفاء الماء الذى اكتسب فيما امام الاسكندرية لونا ازرق باهيا جعل اللجة كأنها قطعة واحدة من الفيروزج الجميل

تعب البحر

ومازالت السفينة توالى سيرها حتى أتى ميعاد الطعام فأكلت قليلا منه لانى عجزت عن الاتمام ولم الث وحققت من القادرين بسبب

ماعتراني من دوار البحر وان كانت الدوخة خفيفة جدا فقد أخبرنا أهل الخبرة ان هذه الحالة من اخف السياحات شدة على من ليس لهم عادة بالاسفار في البحار ولكن هذا القول لم يمكنى من الامتناع عن الاضطجاع على فراشى فلما حان العصر خرجت الى ظهر السفينة لاجرب الحالة فعاودتنى الدوخة ودوران الرأس فقفلت معجلا الى مضجعى ولم تتيسر لى الاستراحة الا بعد ان صارت معدتى صفرا من الصفراء مدة الليلة الاولى واليوم الثانى والليلة الثانية ولم اتمكن من تناول شئ سوى قليل من اللبن بالقهوة وبعض الفاكهة وقد كان صاحبى حضرة الشيخ محمد راشد قد أصابه ما اصابنى فلبثنا فى حجرتنا مضطجعين على الاسرة متقابلين فكنا فى هذه الحالة أشبه بالمرضى فى المستشفى المتساوى ووجه الشبه الجامعة فى الجنسية بين المستشفى والباخرة ونظافة الخدمة واتقانها وقيام عمال من صنف واحد بها وقد شعرنا بشدة اضطراب السفينة وتزايد ارتجاجها (أونودانها أوميدانها) حينما اقتربنا من جزيرة كريد (اقريطش عند القدماء أوقنديا عند الافرنج الآن باسم مدينة فيها ينسب اليها العسل الجيد وربما نحت منه العرب اسم السكر فقالوا القند وان كانت هذه الكلمة واردة فى الشعر الفصيح وقيل انها فارسية)

وفى اليوم الثالث مررنا امام سواحل اليونان و بين بعض جزائرها وكان من معنا من بنى الاغريق (الجريج) فرحين مبتهجين برؤية سواحل بلادهم يرنون اليها بلحظ متوال والانشراح ملء فؤادهم ثم مررنا قبال جزيرة كورفو (قرفس فى كتب العرب) ذات المناظر الجميلة والحدائق الغناء التى اشتهرت فى السنة الماضية بقيام أهلها على بنى اسرائيل وفتكهم بهم الفتك الذريع

وصول برندزى

وما زال البحر صاحيا والهواء موافقا والشهية حاضرة حتى عوضنا مافاتنا من الطعام وخسر متعهده ما أكسبه اياه اشتداد البحر فى اليومين الاولين حتى وصلنا الى برندزى واسمها فى كتب العرب ابرندس وعند الفرنساوية برند (Brindes) وعند الرومانيين برنتسيون اوبرندزيوم (Brindisium و Brintision) وكنا نعتقد اننا نجد من وكلاء كوك فيها أعظم مساعدة فلم يتحقق فيهم أمانا وأقول انه اذا كان جميع وكلائه فى الجهات الاخرى من الكسل والخمول مثل ماهم عليه فى هذه الفرضة فالاحسن للغريب ان يسترشد بكتب الدليل ويباشر شؤنه بنفسه ولعلهم لايكونون كذلك فى بقية المدائن التى سنمر عليها وقد سمعنا عنهم خيرا كثيرا ونحن بمصر وسنكتب عما نشاهده منهم بعد ذلك ان شاء الله

كان وصولنا الى ابرندس أو ابرنطس كما يسميها العرب بعد قيام قطار الصباح (الساعة السادسة) المتوجه الى نابولى عن الطريق القريب فخرنا بين المقام فى هذه المدينة الحقيرة (بالنسبة لاروبا) وبين اتباع الطريق المنحنى مع القطار الذى يقوم الساعة تسعة وخمسة وعشرين ففضلنا الرأى الثانى لكى نتخلص من اخلاق أهل برنديس واخلاطها الذين هم أحط فى المدنية من جعيدية مصر وارذل من سفهائها واشد الحافا والحاحا من شحاذى السيدة زينب

الطريق من برندزى الى نابولى

فتوجهنا الى المحطة وكان مع رفيقى شنطتان ومعى أيضا اثنتان فابى رجال المحطة الا أن يكون ارسال شنطتين منها بعد دفع الاجرة عنهما فامتثلنا ودفعنا نحوا من ستة وثلاثين قرشا وهذا ليس من الغرابة فى شئ بل الاغرب ان أحد مستخدمى المحطة (وهو الذى الزمنا بحمل متاعنا الى المخزن) جاء الينا بعد ان تبوأنا مقعدنا فى القطار وطلب منا ان نتحفه بشئ من النقود فقلت له عجبا منكم تغرمونا ما ليس بواجب علينا للسكة الحديدية ثم تجيء وتطلب منا الاحسان ولكنه أظهر المذلة والمسكنة وباء فرحا مبتهجا حينما اتحفته بنصف فرنك ثم قام القطار فاذا الارض حوالى ابرندس مكتسية بحلة خضراء مزينة باشجار

مورقة كل ذلك والارض حجرية صخرية قد اذابت الامطار قشرتها واودعت فيها الخصوبة والبركة باذن الله بحيث اننا كنا نرى كثيرا من الاشجار نابتة بين شقوق الاحجار ونرى الاراضى بارتفاع وانخفاض واستواء وانحدار وكلها مجللة بثياب سندسية فى غاية البهاء وقد رأينا الكرم فيها وفى بعض جزائر اغريقية (Grèce) أى بلاد اليونان) لايرتفع عن شبرين فكان منظره كنبات الخس فى مصر ولكنه يأتى بالمحصول الكثير والعنب الجيد اللذيذ على مابلغنا من اهل هاتيك الديار

وهذا دليل على ان اتخاذ العروش والتكاعيب لاشجار الكرم مما لايجديها نفعا بل قد يترتب عليه قلة المحصول لان العصارة تنصرف فى ساق النبات واغصانه بدلا من ان تكون ثمرا جنيا ومع ذلك فالحكم لعلماء النبات وبعد ان ابتعدنا عن ابرندس (برندزى) رأينا الارض قاحلة فيها نبات شاهدنا رأينا القوم يحرقونه فى بعض الجهات لتسميد الارض كما يفعل بعض أهل مصر

ولما تجاوزنا هذه الضواحى رأينا السهول قاحلة ماحلة ثم مررنا على بلاد عامرة وكان مرورنا على ساحل البحر الادريا تيكى (المعروف عند العرب بجون البنادقيين) وكانت معنا فى الوابور فرقة من الجنود فلما مررنا على محطة اوستونى (Ostuni) رأينا فيها كثيرا من

النساء العجائز ينتظرن من لهن من الاقارب فكن يودعنهم ويقبلنهم ببكاء وانتحاب مثل ماراه الانسان ببعض محاط مصر سوى انهن لايولولن بالعويل والصياح وما زال الوابور يسير بنا بين جبال وتلال وقيعان ووديان حتى قدمنا مدينة نابولى الزاهرة الباهرة بعد ان اخترقنا ثلاث مقاطعات فى الجنوب والشرق الشمالى لجنوب ايطاليا وكلها تستقى من مياه الامطار تخزنها فى صهاريج ورأينا فيها سواقى ونواعير وآبارا يشبه ماؤها مياه الآبار فى مصر وقد علمت ان المهندس (زنبارى) قدم مشروعا مقتضاه شق ترعة تأتى بالمياه من نهر سيلى (Sele) الذى يصب فى خليج سالرنو (Salerno) لتروى منه مقاطعات فودجا وبارى واتشى (Foggia و Bari و Lecce وفى كتب العرب فوج وبارى ولج) وان نفقاته تبلغ مائة مليون ليرة طليانية (نحو اربعة الاف جنيه انكليزى) قدم هذا المشروع من نحو ١٥ أو ٢٠ سنة ولكنه لم يبرز الى حيز الوجود لقلة المال وعدم تيسر الحصول عليه

هذه عجالة يسيرة من أمور كثيرة علقت بها مذكرات ومفكرات سأفصلها فى الرحلة ان شاء الله

الرسالة الثانية

عن رومه فى يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ١٣١٠ (٢٢ اغسطس سنة ١٨٩٢)

فوائد السفر وتسهيلاته

لعلى اكون احرزت برسالتى الاولى رضا حضرات القرّاء الالباء والافاق العذر واضح لكون كتابتها كانت بعد تعب شديد عانيته من سفر ثلاثة أيام فى البحر تتلوها عشر ساعات بلا انقطاع فى باخرة البر وليس فى ذلك من غرابة لعدم العادة ولقد كان سمعى ينبو من مقال القائل (بل العذاب قطعة من السفر) فلما حقق الخبر الخبر زال عنى الاستنكاف مما كنت أحسبه ضربا من المجازفة فى المبالغة خصوصا وان أسلافنا لم يكن لهم ما افاضه عرفان هذا القرن (التاسع عشر) على أبنائه من تسهيل الانتقال وتأمين الارتحال وتقليل المسافات وتناهى البخس فى النفقات بالنسبة لما كان ينبغى صرفه فى هاتيك الاوقات وتيسير أسباب السير والنظر والتأمل فى آثار من غبر ومصنوعات من حضر وتوسيع دائرة العقل بالاطلاع على نتائج أفكار الغير الى ماهنالك من الفوائد والمكاسب فى المتاجر والمصانع مما لا ينكره الا المكابر ولذلك فانى بعد المقارنة أحسب هذا التعب راحة وهذا الشقاء نعيما فلم اتربص حتى تجيئنى الانباء من الاصدقاء بما كان لباكورة رسائلى من الشأن عند الادباء .

فانى (على كل حال) أشعر فى نفسى بما يدفعنى بالرغم عنى الى الكتابة حتى اكون كأنى بين الخلان والاخدان فقد وجدت مجال القول واسعة وألفيت مقام الكتابة صالحا فأقول

نابولى ورؤية أول مدينة من أوروبا

ان نابولى والحق يقال لتستحق ان يكتب عليها مجلد ضخم لاصفحات قليلة تملى (أولا تملى) ثم تتطاير فى الهواء وذلك لانها جمعت الى بهاء المنظر جمال الطبيعة وقرنت بين حسن الصناعة ونشاط السكان مما يجعلها جديرة بان تشد اليها الرحال وينزل بها اولوا البصائر والابصار الايام الطوال بل الشهور بل الاعوام

عود لوصف الطريق الى نابولى

والذى يضاعف حسنها فى نظر القادم اليها من الطريق التى اتخذناها (طريق فودجا) انه يوافيها بعد ان يقطع كثيرا من الفيافى والقفار ويسير خلال الجبال الموحشة والارض اليباب وتحت السراديب المنقورة فى الصخور وفوق القناطر المقامة على الوديان والاغوار وبين الهاويات الخاويات وكل ذلك يجعله غير مستأنس ولا بنفسه متوجسا خيفة من كل مايحيط به حتى ان الخيال (أو الحقيقة) ليصور له ان باخرة البر ذاتها قد انتعشت بقوة الحياة فتولاها الرعب وتملكها الجزع فأخذت تتلمس فى مشيتها وتسير الهوينا (لاعن تبختر) بعد ان كانت تسعى على عجل فينقلب الصفير الخارج من صدرها زحيرا يمازجه صوت أبح خافت يعاون

على إكمال الوحشة وابعاد الائتناس وهى فى غضون ذلك تنساب فوق الوهاد وتحت النجاد كأنها الافعوان (يخرج ليكون قاتلاً أو مقتولا) ولا يزال هذا حال الراحل وحال مطيته حتى يصل بالسلامة الى نابلس الغرب الاوروبي ولكن (شتان بين مشرق ومغرب) فيحمد غب السرى اذ يرى نفسه فى مدينة هى فى الحقيقة كالحديقة الانيقة ناعم البال منشرح الفؤاد ويصدق قول من انشا (وبضدها تتميز الاشياء) ولكنى أترك الاسترسال مع هذا التيار فقد القيت عصا التسيار وقرت العين باجتلاء محاسن هذه المدينة اليانعة الرائعة الناصعة ومعاهدها الباهرة الزاهرة الفاخرة وخذمنى حديثا وجيزا على عجلة وانتظر اذا أردت التفصيل فى الرحلة

هذه المدينة أسسها أقدم قدماء الاغريق فى الزمان العتيق العتيق وسموها بلسانهم نيابوليس (Neapolis) أى المدينة الحديثة وكان لها اسم آخر غير شائع وهو پارثنوب (Parthenope) وقد حرف الطليانيون اسمها المشهور الى نيابولى ثم نابولى (Napoli, Neapoli) والفرنساوية الى نابل (Naples) وعرب هذا الزمان الى نابولى وقد ورد اسمها فى كتب الجغرافية العربية القديمة (نابل ونابل الساحلية ونابل الكتان لكثرة هذا الصنف ومنسوجاته بها فى قديم الزمان) واما نابلس

عجالة على نابولى

(او نابلوس) المعروفة فى الشام فقد أطلق الرومان عليها هذا الاسم غصبا والغوا اسمها القديم وهو شكيم (Sichem) الوارد فى التوراة وقصص الانبياء ولقد اخطأ ياقوت حيث جهل الاصل اليونانى لهذه التسمية فانتحل لها اشتقاقا من عندياته أونقلا من غير تثبت فقال فى معجمه انها مركبة من « ناب » أى سن ومن « لوس » أى التنين بلسان السامرة فيكون الحاصل من معنى اسمها «ناب التنين» .

وليست أهمية هذه المدينة وبهجتها بسبب أقدميتها وما بقى بها من آثار أهلها السالفين فانها خلو من المخلفات والاطلال التى يقصدها عادة الزوار فى المدائن القديمة العهد مثل نابولى وانما هو موقعها الذى لايزيد عليه فى العالم كله سوى موقع القسطنطينية وحسبى هذا التمثيل للدلالة على انها جمعت المحاسن الطبيعية الشائقة والمناظر البهجة الرائقة فهى على هيئة مدرج ينحدر على سفح تلال تنتهى الى البحر وفى شرقيها بركان ڤيزوڤيو (Vesuvio المعروف عند العرب بجبل النار) وحواليها تلال ترى المنازل نازلة من أعلى قللها تترى الى منتهى سفحها فاذا ارتقى الانسان احدها نظر الى المدينة بجملتها فرأى من شوارعها الصاعد والنازل والمنحدر والمستوى والمنحط والعالى ومع ذلك فالهواء فيها كلها جيد والحركة

مستديمة لانها من أهم موانى هذه الديار وأكثر مدائنها فى العمار ويعتبرها أهل السياحة والاسفار من أجمل الامصار وأبهج مواقع الدنيا على الاطلاق وقد كان خليجها العجيب يجذب الى نواديها الاغراب من جميع الاصقاع ومازالت الآلاف منهم تتردد أيضا فى هذا الزمان على ربوعها الغناء وحدائقها الفيحاء للرياضة والنزاهة ومن الغريب أن حسن موقعها جعل الأجانب يطمعون اليها كما ان رخاء العيش فيها أوجب رخاوة أهاليها فلم يذودوا عن حياضهم ولم يصدوا الفاتحين وغاراتهم فتوالى عليهم حكم اليونان فالاوسكيين (Osques) فالرومانيين فالقوط فالبوزنطيين فالنورمانديين (الذين يذكرهم العرب باسم المجوس) فالالمانيين فالاسبانيين

ومدينة نابولى المذكورة هى مدينة كبيرة ذات شوارع واسعة ومبان شاهقة تفرجنا فيها على مربى الاسماك (Aquarium) ورأينا معيشتها وهى فى نفس ماء البحر على أحجار الصخر وفى خلال الاعشاب المائية بشكل غريب ومنظر معجب وتفرجنا على القصر الملوكى وقد كان تشييده فى سنة ١٦٠٠ وفيه من الصور والرسوم والتماثيل والموائد مايدهش الانظار ويحير أفكار أولى الالباب ويقضى بالعجب العجاب وهو متسع الارجاء فيه منازه

فسيحة جدا ترى الاشجار فيه منضودة على شكل الاسوار وهيئات المثلثات والمربعات والمنحنيات وأغصانها مشتبكة محتبكة منضودة ممدودة مقصوصة مرصوصة بحيث تتكون منها أشكال وتراكيب على طراز غريب وترتيب عجيب ورأينا فيها مربى للطيور ولكنه ليس بالشئ العظيم ورأينا الاشجار الباسقة والمياه الدافقة والخضرة النضرة التى تتشحذ بمراها الاذهان وتكتحل بطلعة نورها الاجفان فلا عجب اذا كان بنو الطليان من أجود أهل الارض فى اتقان الشعر واجادة التصوير واحكام الرسم والبلوغ فى الصنائع المستظرفة والفنون الجميلة غاية لاتكاد تدركهم فيها أمة أخرى فقد رأينا فى هذا القصر الطائل من الرسوم والنقوش وأساليب العمارة والتفنن فى النحت والاغراب فى التمثيل والتخييل مالاتفى هذه العجالة بعشر معشار مايستحقه من البيان ثم جلنا فى شوارع المدينة صاعدين هابطين متأملين اقتدار الاهالى وشغفهم بتجميل أماكنهم وتزويقها بما يستوقف الانظار ويقضى على الناقد المنصف بان يقضى لهم بسلامة الذوق وحسن الاختراع .

لحظة فى المحاسن

وهنا استمحك أيها القارئ ان تقف معى برهة امام الجمال وتؤدى له واجب الاناوة مقرونة بالتسبيح والتهليل والتكبير (سبحان الله ـ الله الله ـ ماشاء الله ـ الله أكبر ـ ان الله جميل يحب الجمال)

فانّنا من عهد ما بارحنا الاسكندرية وفارقنا سان ستفانو (ملتقى الغادات الحسان ومجمع الغانيات المحجبات) لم يستقر طير نظرنا على شئ من اغصان الملاحة سوى اننا كنا نرى فى طريقنا من برندزى الى فودجا الى نابولى بعض أشباح ينتسبن الى حواء ولانسبة وهن من قبح الصورة وسماجة الوجه بحيث لو رآهن شيخ الابالسة لعدل عن الوسوسة واستبدل الاغواء بالفرار والاغرب من ذلك ان وجوههن تكون جافية واقدامهن حافية وشعورهن منتوفة ورؤسهن مكشوفة ومع ذلك فلا بد لهن من العُظّامة أو ما يقوم مقامها كان تئتزر الواحدة بالفستان وتتشح بالصدار لاظهار قد هو أشبه بالقدر وما زلنا على هذه الحال حتى ظننا ان أوروبا انما ترسل الى بلادنا أفضل ما فيها من العيون الناحرات الساحرات واللحاظ الفاتنات الفاتكات فلما قدمنا هذه المدينة رأينا الخير فيها والحسن فى أهليها فحمدنا الله وقلنا هذه بشائر الخيرات وباكورة الحسنات ولقد كان منظرنا وخصوصا الرفيق الموافق والصديق الصادق الشيخ محمد راشد يسترعى منهن الانظار فكان لى بذلك فرصة أغتنمها لتعويض ما فات والتأمل فى صنع ربك ذى الجلال والاكرام فكانت الواحدة تحملق الينا فترسل سهاما من فاتر

الالحاظ والاخرى تستغرب من شكلنا فيفترفها عن در يأخذ بحبات القلوب ومنهن من كانت تترك عملها الذى خرجت لاجله من كناسها وتسعى خلفنا تستغرب شكلنا بينما نحن معجبون بشكلها ومنهن من كن يطللن من الشبابيك فيشبكن الفؤاد ولا حرج عليهن ومنهن من كانت الخواتم بخصورهن اليق من الحياصى وغير ذلك مما يطول شرحه ويقصر يراعى عن بيانه حتى اننا لم نر حيلة للتخلص من شراك هذه الشباك سوى التعجيل بالرحيل فقصدنا المحطة

المتاع وعذابه فى السفر

فوقعنا فى شبكة لم تكن لنا فى حسبان ولم تخطر لنا على بال وذلك ان عمال السكة الحديدية أبوا الا أن يدفعونا الرسم على ثلاث شنطات من متاعنا وابقاء شنطة واحدة تحت يدنا فاظهرنا لهم شدة الغرابة من تنوع المعاملة فى برندزى أولا وفى نابولى ثانيا وقلنا لهم أليس القانون واحدا فى ايطاليا كلها أم هل يختلف تطبيقه بحسب الازمنة والامكنة والاشخاص فكان جوابهم لنا (برندزى هى برندزى وأما نابولى فهى نابولى) فلم نر بدا من نقدهم ماطلبوا ولكنى حررت هذه الجملة فى مذكراتى واذلم يكن لى من الوقت مايكفى للتعمق فى البحث عما حوته هذه الكلمة الجامعة من دقائق المعانى وعويص الافكار آثرت ان أطرحها الآن على

حضرات علمائنا الاعلام ليجعلوها موضوعا للمتون والشروح والحواشي والتتميمات والتكميلات والتذييلات والتعليقات والاخذ والرد والتوجيه والاعتراض والقيل والقال حتى اذا رجعت بالسلامة ووقفت على خلاصة الابحاث أخذتها عن الثقات غنيمة باردة وزينت بها صفحات الرحلة

الطريق لرومة

ثم سارت بنا باخرة البر الى رومة فى طريق تحف به من الجانبين أشجار مدت أغصانها فاشتبكت فكانت أشبه بعذارى الجان خرجن من الجبال المحيطة وتهيأن للرقص على أجمل منوال فمدت كل واحدة منهن ذراعيها الى اختها ذات اليمين والى تربها ذات الشمال ووقفن فى انتظار القطار حتى اذا اقترب منهن تحركن حركات منتظمة معجبة بقدود مياسة واصوات مطربة واستمر الحال على هذا المنوال بين الجبال الصماء تتخللها الخضرة الزهراء والاشجار الشماء حتى بلغنا رومة بسلام وتوجهنا الى الفندق واسترحنا .

الرسالة الثالثة

رومه

الاندهاش من رؤية رومة

﴿ رومية ورومية الكبرى ورومية المدائن فى كتب العرب ﴾

من فلورانسه فى الثلاثاء غرة صفر الخير سنة ١٣١٠ ه‍

(٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٦)

يا للعجب يا للعجب كأنى نسيت الكتابة بلسان العرب أو كأن مقامى بهذا البلد أضاع اللب واذهب الرَّشَد فكيف العمل فكيف العمل وانا كلما حاولت التحرير أو أخذت فى التحبير استعصى القلم وحرن جواد التفكير وانهالت علىّ المطالب انهيالا لا يجعلنى أعرف بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام وكيف أتخلص الى تلخيص شئ من المذكرات الجمة والمفكرات العديدة التى اقتطفتها أو جمعتها على هذه المدينة المختالة فى حلل البهاء والجمال المجللة بما أودع فيها من آثار العظمة ومشاهد الجلال ففيها العمائر الفاخرة الفائقة والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والامبراطرة والقناصل والامراء والاشراف والكبراء والسادات والبابوات فانها من يوم نشأتها الى الآن مازالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية

فخامة رومة

ثم النصرانية وكل من تولى الامر فيها يسعى بما فى وسعه لتوسيع نطاقها ويبذل جهده فى زخرفتها بما يوجب له الفخار ويستبقى ذكره على ممر الايام فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها باشكال معجبة واصوات مطربة وقد نصبوا فيها كثيرا من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع ان عاصمتنا القاهرة خلو منها بالمرة (والذى بقى عندنا من المسلات مازال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله ويتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوروبا وأمريكا)

غرام أهلها بالتجمل والتجميل

وللمبانى فى رومة منظر رائق بهيج بألوان زاهية براقة تعجب النظار وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وافاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة كأن كل واحد من أهاليها أراد ان يستوقف السائحين والجائلين والرائحين والجائين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه لانك ترى حتى الجزار يزوق حانوته باغصان الاشجار ويعرض اللحم على الانظار مقطعا قطعا ملتفا أعلاها بقراطيس من الورق الابيض تنضم ثنياته الى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الألوان ومثله بائع الخضار فى حسن الترتيب وجمال العرض ولا ينقص عنهما غيرهما فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالاقبال عليه (واللى مايشترى يتفرج)

كنائس رومة

وقد اغتنمنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة ما به من الكنائس التى يضرب بها المثل فى الضخامة والفخامة والمتانة والجلالة والتناهى فى الابداع واللاتناهى فى الاغراب والتشييد الهائل والزخرفة التى تلهى ولا شك المتعبدين والمتعبدات وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر اليها (والى بعضهما خصوصا) وان العقل ليحار فى كيفية تشييدها ويذعن باقتدار ذلك الذى صورها بالقلم على القرطاس ثم ابرزها مجسمة على سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتمام التناسب واحكام الصنع واتقان الوضع فى كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريها الى عقودها الى سقوفها الى قبابها حتى انه لم يترك مقالا لقائل ولم يدع مجالا لاستعمال ليت ولو وفوق ذلك فان للقوم بحفظها عناية لابعدها ولاقبلها ففى كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتتميم ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فانها تكاد تناهز نصف الالف) رأينا القوم مشتغلين بتشييد غيرها وأنت تعلم ما حاق فى هذا الزمان بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال فى بلاد أوروبا على العموم وايطاليا على الخصوص .

بعض مشاهد رومة

هذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص والفسيفساء فى قصر الفاتيكان ورأينا بهما من الغرائب والعجائب التى يقصر عن تفصيلها هذا الاجمال ثم شاهدنا ما بالمدينة من آثار القدماء

والمتاحف والمعارض والقصر الملوكى والاطلال القديمة والسراديب المنقورة فى قلب الجبل حيث كان النصارى فى مبدإ أمرهم يلجؤن اليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شر عباد الاوثان

تخليد ذكر الاعيان والاماجد

وقد رأينا فى كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفى كافة الارجاء من منازهها وشوارعها تماثيل كبارهم وعظمائهم الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الامة بحيث ان ذكرهم لايمكن ان يمحوه الزمان وبذلك عرف الاهلون عالمهم وجاهلهم كبيرهم وحقيرهم مقدار الاجر العظيم الذى يصيبه من ينفع الوطن من أى وجه كان وباى عمل كان ووقف السكان عموما على تواريخ أولئك الذين استفادت منهم البلاد فائدة حسية أو معنوية قليلة أو جليلة واتخذوهم نموذجا لتهذيب الابناء الناشئين وتربيتهم على السير فى جادتهم ومحاكاتهم فى خدمة الاوطان

تأسف على عظماء مصر واهمال ذكراهم

وهنا ينبغى لى ان أقف قليلا كاسف البال متحسرا على اهمال أهل بلادنا هذا الامر الذى هو أفضل الاعمال وأجل ماتشد لاجله الرحال فان الذى يعلم انه اذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادوا له الآثار والمبانى التى تضمن له عمرا غير العمر الفانى وتستديم حياته الى كل جيل لاشك انه يضحى

النفس والنفيس ويواظب على السعى والعمل لنيل هذا الشرف الذى ليس بعده شرف . ألا ترى ان الكثير من علمائنا وفضلائنا قد انقرض ذكرهم بمجرد دخولهم فى رمسهم اللهم الا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الاقلون) وهل يصح لى أن أعترف بنى وطنى الكرام بان السعى فى تخليد ذكر الاماجد الاماثل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض بالنفوس ويحرك العزائم ويحد القرائح ويوجب الاقدام على العظائم فتغتنم الامة والوطن أجل المغانم ويربحان باجتهاد أفرادهما وسعى أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام فى حاجة الى الاجنبى والدخيل لانسير الا بمشكاة نورهما ولا نهتدى الا بهدايتهما وارشادهما أما آن لنا ان نفطن الى هذه الحقائق وندرك ماوراءها من المنافع فنطرح الحسد منا لبعضنا ونسعى جميعا فى وجهة واحدة لصالح الوطن العزيز كل بقدر ماعنده ونعضد بعضنا لنكون كالبنيان المرصوص فلعل أهل بلادنا تهزهم الاريحية المصرية وتثور فيهم النخوة الوطنية والحمية الاهلية فيتشبهون بامم أوروبا لنوال الفلاح والنجاح

أوّاه . تحدثنى نفسى عند كتابة هذه السطور بان الكثير من القراء لابد أن يستخف بهذا المقال ولكنى أنادى من له حياة

أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتلك لعمرك عواطف وطنية واحساسات قومية وددت لو يشعر بها أهلى كما تملكتنى حينما رأيت الخاصة والعامة فى هذه المدينة واقفين تمام الوقوف على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهم التماثيل والانصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين حتى كان ذلك باعثا للامة الطليانية على مباراة الامم العظيمة ففتحت المعامل الكبيرة والفت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الاعمال فحفظت ثروة البلاد فى البلاد وروجت الصنائع الوطنية فاكتسبت أيما اكتساب نعم لاننكر ان الدولة الطليانية واقعة الآن فى أزمة مالية وقد برك فيها جمل الفقر ولكن لها عذر واضح من حيث انها فى وقت قصير انشأت موانى حربية بحرية وأنجزت كثيرا من الاعمال العظيمة ذات المنفعة العمومية لكى تضاهى الدول الكبيرة والامم المثرية فكانت كالزراع ينفق كل ماعنده ثم ينتظر الغلة والريع وقد بدأت تجنى ثمار ماغرست وأخذ الخير يدر عليها واظن أنه لايمضى عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ماعليها من غبار الفاقة وتفيق مما حاق بها من الارتباك والاعسار

نهوض ايطاليا فى طريق التقدم

وكأنى بك أيها القارئ قد مللت من هذا الاستطراد وتود منى بدل ذلك ان اكاشفك بما رأيته فى هذه البلاد من الامور العرضية

أمور ثانوية والقيظ باوروبا

الثانوية التى قد يكون وراءها فائدة معجلة جزئية يمكن ادخالها
فى بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبوستة والتلغراف
والبواخر والبوليس وما أشبه ذلك من التنظيمات من انهم
يضعون اسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام لكى لا يتطرق
اليها البلاء بسرعة كما حصل عندنا فى الاخشاب التى وضعتها
نظارة الاشغال فى القاهرة بمصاريف باهظة ولكنى أقول لك ان
الحر شديد جدا وانى أقاسى منه أكثر منك من عهد مبارحتى
للاسكندرية الى هذا اليوم حتى كأنى ذهبت الى اسوان أو
االسودان فعافنى من ذلك الآن عافاك الله واعتقد ان الحر فى
هذا العام بأوروبا اشد منه فى كل عام بل لم يعهد القوم له
مثيلا قبل الآن ولقد كنت أستغرب ذلك فى أرض
أوروبا حتى قرأت فى جريدة التريبونا الصادرة فى يوم الاثنين ٢٢
أغسطس تلغرافا من باريس ينبئها بان اشتداد الحر فوق العادة
قد أتلف صحة الجنود الذين فى المناورات فى جملة جهات وآخر
من ويانة يقول ان القيظ مستمر فيها وانه وردت عليها الاخبار من
جملة مدائن ان الحر سبب وفيات كثيرة وان سبعة من العساكر
زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا فى المناورات وان
الفلاحين قد اضطروا الترك أعمالهم وان الفاكهة قد أصابتها اضرار

بلنغة فكيف لاتشفق على مع ذلك كله وقد كنت أيضا بالامس (يوم الاحد) أتريض فى رومة ورأيت فى منازهها من رأيت ومارأيت وحسبك منى هذه الاشارة

الرسالة الرابعة

مدينة فلورانسه

تأسف لفراق رومة

لولاوجوب الوجود بلندره فى يوم موعود وميقات محدود لحضور احتفال مشهود والاشتراك فى مؤتمر معدود لأطلت المقام برياض رومة الغناء وأكثرت من التجول فى ساحاتها الفيحاء ولكنى تزودت من شميم عرارها وتشبعت من محاسن آثارها فودعتها بالعين والنفس متطلعة اليها والقلب شغف بها ورددت الدعاء لدولتها بالثروة واليسار ومار كبت القطار حتى بادرت فأعقبت ذلك بالدعوات الصالحات المستجابات لوطنى وخلانى وأهلى ونفسى وذلك لانه خيل لى ان الدعوة مقبولة فى هذه الاقطار لانى ماخرجت منها الا بعد ان التزمت بالمساعدة على إنماء ماليتها (وأول مايجنى على المرء اجتهاده)

عذاب المتاع

فان عمال المحطة قالوا لابد من دفع أجرة النقل على الشنطات الاربع التى مع رفيقى ومعى فأفهمت ناظر المحطة ما وقع ببرندزى ثم بنابولى من أخذ الاجر فى الاولى على ثنتين ثم فى الثانية على

ثلاث فقال ان هذه الشنطات تزيد طولا وعرضا فى القياس عما يبيحه القانون لافراد الناس فأخذ العجب منى كل مأخذ اذلم يكن لى ذلك فى حساب وقلت لعل القوم لايعرفون الهندسة وقد أتقنوا المتوالية العددية من علم الحساب فتوليت الدفع فى المدينة الثالثة من ايطاليا على الشنطات الاربع ووطنت نفسى على اتباع هذه الخطة فى كل محطة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وصول فلورانسة

ثم سار بنا القطار يجوب البلاد جوبا وينهب الارض نهبا الى ان بلغ بنا مدينة فلورانسة المصطلح على تسميتها عند أهلها بمدينة فيرنتزا التى تكلم عليها الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق وسماها فلرنسة من غير اشباع كما نفعل نحن اليوم تقربا من اللفظ الافرنجى فنزلنا فندقا لبثنا فيه ريثما استرحنا ونفضنا غبار السفر (هذه العبارة من باب المجاز لوجهين الاول ان سفرنا كان بالليل والثانى ان السكة الحديدية فى ايطاليا لاتثير قط عثيرا مهما كانت سرعة القطار لان المصلحة معتنية كل الاعتناء بوضع الزلط والحصباء على طول الطريق فهى نعمة للمسافر تمتعه بما يبدو أمامه من المناظر من غير ان يخشى ضررا ما على النواظر) وبعد ذلك خرجنا لنروّح الروح بارواح ريحان هذه المدينة وننزه الطرف فى طرقها القديمة وتحفها الثمينة فأخذنا عربة قلنا لسائقها ان يدلنا على دليل خبير

عليك بالشباب

فخيرنا بين شاب وشيخ كبير وقال لنا ان الثانى أفضل لمعرفته بالمدينة

وطول ممارسته لهذه الصناعة فاخترناه على بركة الله راجين منه الافادة بالدلالة اللفظية والمعنوية ولكن وقار الشيب كان مستوليا عليه أكثر من دلالة اللزوم حتى ألزمه السكوت والسكون فكان جالسا امامنا كانه ثالثنا بل رابعنا (بحساب العربجى) يجيل ناظره ذات الشمال وذات اليمين يتأمل ويتفكر تشبها بالمتصوفين أو المتفلسفين ولا يجيب عن أسئلتنا المتعددة الا بما فيه قليل الفائدة فأسفنا على اختيار الاختيار ورجعنا على أنفسنا بالملامة ولات حين ندامة ولكننا تسلينا أملا بان غيرنا يكون له خير موعظة بما جرى لنا والعاقل من اتعظ بغيره

هيئة فلورانسة ومحاسنها

أما المدينة فلها من الداخل منظر بعيد من الرشاقة مجرد من الملاحة لانك ترى القصور القديمة فيها شاهقة متواصلة والعمائر الجسيمة شامخة هائلة وعليها من الرزانة جلباب ومن الجودة والجفوة أثواب ليست قائمة من الخارج على أعمدة ولا بواكى معقدة ولا امامها أشجار نضرة أو خضرة مزدهرة حتى تروق خاطر الخطار وتقر ناظر النظار فهى بالمعاقل والمحاصن أشبه منها باماكن المساكن شادها سادات المدينة وأشرافها فى القرون الوسطى للتحرز بها والالتجاء اليها ولكنك اذا سرت بعيدا عن سرة المدينة سررت برؤية الرياض الاريضة والجنات الطويلة العريضة والساحات التى

هى أكثر من أن تحصى والميادين الشائقة بما حولها من الاشجار والازهار التى أوجبت تسميتها بمدينة الازهار فترى حينئذ عليها من الجمال حلة باهية ومن المحاسن ماتختال فيه كالغادة الهيفاء خصوصا اذا ارتقيت ربواتها أوقصدت منتزهاتها ولاسيما المنتزه الكبير فانه من أنزه المنازه التى رأيناها وأبهج المباهج التى عرفناها اذ هو من الاتساع والامتداد وجمال المنظر ورونقة الترتيب بحيث يجيد الفكر ويحسن الذوق ويجلو صدأ العقل ويغذى الروح ويصفى القرائح فلا عجب اذا تفرد أهلها فى تعشق الطبيعة وبرعوا فى الفنون الظريفة ولا بدع اذا قلت فى هذا المقام ان كل طليانى لابدان يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والاغانى ونظم القريض والمعانى فقدزرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقايا فنية جميلة أوفوق جميلة مما لاتكاد تضاهيه مجموعة فى الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض العريض الطويل فعدلت (لعجز لالنقص) عن اتمام مناظرة مابه من التحف الثمينة العجيبة وعولت على الخروج منه معجبا بما فيه قادرا اياه حق قدره ثم طفنا بالمدينة وتفرجنا على مافيها من بدائع

استعداد الطليانية للفنون المستظرفة

عناية الافرنج بالصغائر

الصناعة وعجائب الطبيعة مما أذكر شرحه للرحلة فرأيت فى منتزهها هرما صغيرا مبنيا بالاحجار الكبيرة حسبته من مصنوعات أجدادنا المصريين وقد نقل الى هذه الديار كما نقل غيره من أحاسن الآثار ووضع بجانب المنتزه عناية به وحفاوة ولكنى علمت من التسآل ان بعض العمال ابتناه على نفقته لاصطناع الثلج وحفظه به فعجبت من هذا التفنن فى الاتقان واستغربت من اقتدار بنى الانسان وعلى ذكر الثلج والتفنن أذكر انى رأيت رجلا يبيع الماء المثلج فى برميل لطيف ظريف نظيف خفيف ذى حنفيتين من الخارج وانبوبة لوضع الثلج من الداخل يحمله على ظهره ويسعى به ليبيع الماء من غير عناء أينما شاء واحدى الحنفيتين مخصصة لغسل الكاس التى يستقى منها الناس وقيل لى ان الرجل اخترع ذلك الطراز منذ عشرة أيام وأما غيره فلا يزال يبيع الماء المثلج فى أحواض من الاخشاب يقف بجانبها ولا بد للظمآن من الورود اليها وقد رأيت فى جميع المحاط التى مررت عليها شبانا وفتيات بل فتيات وشبانا يحملن ويحملون بأيديهن وأيديهم شيأ شبيها بالاسفاط مركبا من اسلاك ينقسم الى عيون عدتها ثمان أو عشر فيها اكواب مترعة يمررن ويمرون بها على القطار لتقديم الماء المثلج لمن شاء من المسافرين فى نظير ملدى واحد (أكثر من ملاليم بشئ قليل)

ومما رأيته بهذه المدينة رجل مقعد شطيح ولكنه يسعى بنفسه كما يسعى غيره بقدمه ويستمنح الاحسان من كل انسان فى أى مكان فانه اتخذ عربة صغيرة بقدر ما يجلس عليها ولها أربع عجلات وبما أن الشوارع منتظمة والارض ممهدة والسير ميسر فى جميع أنحاء المدينة فما على صاحبنا الأن يضغط بيده على الارض قليلا لتحريك العجلات والتنقل من طريق الى طريق وقد استغنى بهذه الكيفية عن اتخاذ أعمى يحمله ويسعى به فى نظير ارشاده اياه على الطريق ومقاسمته مايصيبه من الرزق ولاشك عندى أنى سأرى رفيقه الاعمى (بحسب ماجاء فى حكايات فلوريان) يدبر له وسيلة يتوصل بها الى نوال الحسنة من غير احتياج لنظر المقعد وتكلفه حمله على كتفه لان أهل هذه البلاد بلاد أوروبا أهل حركة وعزيمة وتفنن واقدام وهنا استوقف القلم مرة ثانية بالرغم عن البواعث الكثيرة التى تجيش فى الصدر كغليان القدر فتدعوه للاندفاع فى هذا التيار وانى لاعانى هذا العناء خشية على القارئ من الملال وشفقة على نفسى فقد برح بى التشوق الى الاوطان واشتد بى التشوق الى الاخوان لعدم استقرارى فى مكان وتعذر استطلاعى الاخبار التى تتوق اليها النفس ويحوم حولها الفؤاد فيا لله من البعاد ويا لله من غالب شعرائنا كيف يصفون وهم فى

التشوق للوطن

مستقرهم عواطف واحساسات لايشعرون بها ولكنها بجيء كلها طبق المراد أهذا من صدق الحدس أومن سلامة الفطرة .....
ويا ليتنى كنت تخرجت فى الشعر حتى كان ينفتح امامى المجال ويتسع لى المقال

الرسالة الخامسة

(مدينة بيزا Pisa)

تأوه على عدم رؤية مدينة البندقية

لقد أبدعتم ياأهل البديع فى تنويع الطباق فهو لعمركم من سلامة الاختراع ولقد برعتم ياأهل المنطق والكلام فى بيان التناقض والتضاد ومعانى الاجتماع والارتفاع فان وقتى على كل حال أعتبره ثمينا نفيسا ولكنى أجده الآن طويلا قصيرا - أما الاول - فلكثرة الشجن بالحنين الى الاهل والوطن - وأما الثانى - فلتقصيره عن مساعدتى على زيارة مدينة البندقية (ڤنسيا) فانى كنت بفلورنسه وليس بينى وبينها سوى ست ساعات ومع ذلك لايصح لى ان أتعجب وأقول ان المشتهى قريب وماإليه وصول فان الطريق ميسر والوصال أسهل من ان يدبر والبخار مسخر والقطار حاضر ولكن الوقت سلطان قاهر فكيف لاأتمكن من زيارة تلك المدينة

التى قامت فيها الخلجان مقام الحارات والجداول مقام الشوارع والمراكب مقام المركبات والزوارق مقام العربات والمقاذيف والمدارى مقام الخيول الجوارى ... ألاان الوقت محسوب والقيام الى جنوة أمر محتوم فالبدار البدار الى دار الوفادة والعجل العجل لتأدية واجب الرسالة ولكنى أستعضت عما فاتنى بقسمة طريقى الى قسمين للوقوف فى بيشة أكثر من ساعتين كانتا فى الحقيقة أبرك من يومين فاتخذت دليلا من أهل الشباب معدن القوة والفتوة وأمل المستقبل فطاف بنا المدينة وأطلعنا على محاسنها فعوض علينا ماخسرنا بسبب اختيار الشيخ فى فلورنسه

رأيت أمورا كثيرة فى هذه المدينة الصغيرة (التى لايتجاوز عدد سكانها ٤٠٠٠٠ نسمة ومصرنا القاهرة فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ نفس) وانى أحيط علم حضرات القراء بالنبا القليل من غير تفصيل .

عجالة على بيشة — هذه المدينة تسمى فى كتب الجغرافية العربية القديمة بيش وبيشة وقد وردت باسم بيزا فى كتابة الشريف الادريسى مر عليها حين من الدهر كانت فيه خاضعة لملوك تونس فى أيام دولة الموحدين (أو الملثمين لاأتذكر الآن ذلك بالتحقيق) فانى رأيت بدار المحفوظات فيها التى تشبه الدفترخانة المصرية عندنا (من

غير تشبيه ولا تمثيل) صكوكا كثيرة وعهودا متنوعة وإجازات غير
قليلة وبعضها يتضمن الضمان لاهلها بالحرية التامة والامان فى
كافة المعاملات واقامة شعائر الاديان وهى صادرة لهم من أولئك
الملوك (وقد اعتنى العالم الطليانى أمارى بنشرها وترجمتها) ورأيت
اسم البلد فيها هكذا ـ بيشة ـ وقد شاهدت فى هذه الدار
أيضا غير ذلك من الاوراق الرسمية التى اتخذتها كل دولة توالت
عليها أو كان لها علاقة بها ورأيت فيها على صغرها كثيرا من التماثيل
التى تحيى ذكر أهم رجال ايطاليا أخص بالذكر منها تمثال الطيب
الذكر فكتور عمانويل مؤسس الدولة الطليانية الحالية الملقب
عندهم بأبي الوطن ولكنه كان كله مغطى بالاخشاب المنضودة
بحيث لايرى منه شئ ما وذلك لانه أقيم حديثا وسيحتفل بازاحة
الستار عنه قريبا بحضرة الملك والملكة والاسرة الحاكمة ورجال
الدولة وأهل الحل والعقد ثم زرت المدرسة الجامعة ومكتبتها
العظيمة ورأيت فيها من النظام مايوجب الاعجاب بها مثال ذلك

نظام المكتبة والمتاحف

ان الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب
بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه الى
ان يرد الكتاب الى محله وفى ذلك فائدتان أولاهما حفظ نظام
الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع

استقامتها واعتدالها وثانيتها التنبيه على ان هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لاعلام من يريد ان يحيل ناظره على الكتب فقط ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية وأخرى لحفظ الكراريس والاجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب واسع كبير حتى لايتولاها التلف والضياع ومتى تمت الكراسات والاجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها ثم زرنا مدرسة المعلمين العليا وتفرجنا على معرض التاريخ الطبيعى وهو وان لم يكمل لكنه حاو لكثير من التحف والطرف وفيه كثير من الحيوانات النادرة الغريبة من حشرات ودبابات وأطيار وأسماك ومعادن وأحجار ونباتات وأشجار وثمار وأزهار وغير ذلك مما يدخل فى هذه الدائرة ثم زرنا كنائسها وبيعها وأغربها كنيسة بجانبها برج للناقوس منعزل عنها وهو شامخ فى الهواء لا باعتدال بل بانحراف فانه يميل بكليته على سطح الارض بمقدار خمسة أمتار أى انه اذا أنزلت من أعلى قمته خطا عموديا على مستوى الارض لكانت المسافة بين نقطة مسقطه و بين جدار الاساس خمسة أمتار بالقياس ثم عمدنا الى قبة التعميد وهى بناء آخر مستدير بجانب الكنيسة من الجهة الاخرى وبينما نحن نتأمل فى عجيب تركيبها

البرج المائل وغرائب الصدى

وبديع هندامها وحسن نظامها واتقان رسومها و . . . و . . .
و . . . الخ واذا بالدليل صفق بيديه مرتين ثنتين فأزعجنا منهما
انزعاجا شديدا لايخطر على البال اذ أعقبهما دوى ولاقصيف
الرعود وهزيم أين منه قرقعة المدافع المتوالية فى ساحة الوغى
حتى ظننا ان القيامة قد قامت وان الارض زلزلت زلزالها وأخرجت
الارض اثقالها وان الجبال اندكت والسماء انفطرت (وامؤتمراه
وامؤتمراه) واستمر الصدى على هذا المدى عشرة ثوان فعجبنا كل
الاعجاب من هذا الصنع المحكم الذى لايحاكيه صنع فى العالم

وقد كنا رأينا شيأ مثل ذلك فى كنيسة رومة من حيث
تدبير الهواء فى صلب البناء اذ يقف الانسان بجانب سارية من
سواريها ويكلم صاحبه من خرق صغير فيها فيسمع كلامه واضحا
ظاهرا من خرق آخر فى السارية الثانية أو ان يقف بجانب
باب فى أعلى القبة ويسمع صاحبه وهو يناجيه بجانب الباب
المحاذى له على مسافة تقرب من المائتى متر ولكن ذلك كله ليس
شيأ فى جانب مارأيناه فى بيشة ثم أخذ الدليل يوهوه ويوهوه
على عادة الافرنج فى المغنى . والصدى يجيبه باجل أسلوب وألطف
معنى

جبانه بيشة

ثم تفرجنا على قرافة المدينة ويدعونها (كامبوسانتو) أى الميدان المقدس أو ماأشبه ذلك فرأينا فيها رسوما كثيرة بارزة ومجوفة وقبورا فى صلب الحيطان وتحت الاقدام ولكن ذلك ليس من الغرابة فى شئ بل الغريب أن فى وسطها مربعا كبيرا طينه كله مجلوب من أرض بيت المقدس (أورشليم) جلبته من الشام ٦٦ مركبا من سفائنهم تبركا بتلك الطينة الطيبة ولكى يكون فى بلدهم قطعة من الارض المقدسة تخرج الازهار والاعشاب الخاصة بتربتها فى معدنها الاصلى وقد دعانى الدليل لاخذ شئ من تلك الازهار على سبيل التذكار

كنيسة بهجة

وقد رأيت أيضا بيعة صغيرة على حافة النهر لا يفصلها عن الماء شئ وهى فى غاية الابداع والجمال مبنية بقطع صغيرة من المرمر المختلف الالوان على شكل معجب وأسلوب جميل وأغرب مافيها أن سقفها من الداخل يشبه السقوف المصرية العربية القديمة من حيث التطعيم بالخشب والابنوس والتلقيم بالصدف والعاج ولكنه ليس كذلك بل كله من الحجر المركب مع بعضه على شكل الفص والفسيفساء فله منظر جميل بهيج يزيد فى محاسن المنتزه الكائن على الضفة الاخرى من النهر وهو فى غاية الحسن

أحاسن بيشة

وبودى ان أختم هذه الرسالة بذكر شئ من الجمال فى بيشة

فلاشك عندى انه كان أكبر شفيع لنوالها الحرية والامان من ملوك تونس أيام كانت خاضعة لهم ولايمنعنى من الافاضة فى هذا الموضوع سوى خوفى من ان تتطاول علىّ ألسنة السوء ولكنى أقطعها واستريح منها حتى لاتبقى لى بالمرصاد فيما ربما ينساق اليه الحديث فى غير هذا المدينة مما لايرى الكاتب بدا من ذكره من باب الاحاطة ليس الا فقد كان مرورى عليها وقت الظهيرة وقت القيلولة وقت اشتداد الحرارة ومع ذلك رأيت الغانيات الرائحات والغادات الغاديات المشوقات الممشوقات الهائفات المهفهفات ذوات القدود والخدود والصدور والنحور والخصور والشعور و . . و . . وغير ذلك مما ألقيه على الشعراء ذوى الوهم والخيال ليتكفلوا بشرح حقيقة الحال

الرسالة السادسة

(مدينة جنوة)

فراق بيشة ووصف الانفاق

لم أبارح مدينة من ايطاليا وفى جوانحى من اللهف عليها والشغف بها مثل ماحصل لى فى بيشة حتى ان قلمى قد طغى علىّ ويود لايتكلم الا عليها ولم يكن فى وسعى سوى مفارقتها ولسانى يكرر على جنانى مافى وطابه من قليل الاشعار الخاصة بالغزل والنسيب

والغرام والتشبيب ولكن أين ذلك كله مما كنت أشعر به ومما زاد توجعي على مفارقة محاسنها وأحاسنها ان القطار صار يسير بين الجبال وعلى حافة البحر بالتمام فبينما هو يجرى تحت الجبل وفى ظلام حالك اذ ترى نوافذ منقورة فى الصخر الذى يحيط بك من الجهات الست ترسل النور الى النَفَق والامواج الى جسر السكة والطمأنينة والسكينة الى الباخرة ومن فيها فتتجدد فيها وفيهم عوامل القوة وتدب روح النشاط

ثم استمر الامر على هذا النهج نخرج من نَفَق وندخل فى نَفَق بوصلنا الى ثالث يتبعه آخر فآخر وهكذا والمسافة بين كل واحد والذى يليه قدر الدقيقة أو أقل ترى الوابور يقترب فيها من الطود الشامخ اقترابا شديدا حتى كانه يستند عليه أو يأوى اليه ليعصمه من الانزلاق فى بحر الروم ولكنه متى دخل النفَق عجّل السير واندفع بسرعة كانه نجا من خطر لاقل منه أو لشجاعة اوجدتها فيه العادة بل . . . فى المسافر الذى مر تحت كثير من الانفاق فما بقى يعبأ بها أو يسأل عنها فضلا عن ان أرضها ممهدة مطمئنة وليست منحدرة كما فى جنوبى ايطاليا والخلاصة اننا وصلنا جنوة ونزلنا بها لنتفرج عليها أولا ثم على مظاهر الاحتفال

الذى سيقام بها احياء لذكرى أحد بنيها وهو المخلد الذكر كرستوف كولمب مكتشف قارة أمريكا

اسم جنوة

هذه المدينة تسمى جنوا Genova فى لغة أهلها وجين Gênes عند الفرنسويين وورد اسمها كما رسمته فى كتب الجغرافية العربية القديمة وان كان أبناء العرب فى هذا الزمان يكتبونها جنوا أوجنوى و كثيرا ما كان اسمها موجبا للخلط بينها و بين مدينة جنيف Génève فى سويسرة عند بعض الذين لم يعتادوا التحقيق والبحث بالتدقيق أما الذين وقفوا على الفرق وعرفوا وجوب التمييز فيسمون الثانية (أى مدينة سويسره) جنيفة أوجنيفا ولكنها وردت فى كتابة الشريف الادريسى هكذا (جنبرة) وسأبين لك تعليل هذه التسمية وكثير من أمثالها بالتفصيل فى الرحلة ان شاء الله

منظر جنوة

أما منظرها ففى غاية البهجة والجمال ولا أقول مثل كتاب الافرنج أوالذين حذوا حذوهم من أبناء العرب انها على شكل نعل الفرس أو حدوته بل أقول انها كالنون وجوفها هو جونها ومتى خيم الليل ترى هذه النون ساطعة كالهلال بل تتلاقى من طرفيها بأضواء السفائن الراسية فيها فتكون كحلقة مفرغة قد ملئت من الانوار ثم ألقى بها فى تيار البحار ولا يقرب من مشابهتها فيما أعلم سوى مدينة دمياط فى أيام الزينة والمواسم الكبيرة

ولما أصبح الصباح نزلنا من نزلنا واتخذنا دليلا لنا (من الشبان) فشاهدنا عظمة المعدات وجمال الاحتفال الذى سيكون لمن جعل العالم توأمين وبلغنا ان الاسطول البريطانى بعد ان رسا قبل غيره على مقربة من المدينة أقلع (أوابحر) على نية الرجوع قبل الاجل المضروب ولم يكن فى المينا سوى ثلاث مراكب طليانية وواحدة هولاندية فوطنا النفس على زيارتها فى عصارى النهار

براهين الوطنية فى أوروبا

ثم طفنا المدينة صاعدين هابطين وشاهدنا حصونها وابراجها وآثارها ومفاخرها ثم دخلنا دار البلدية فأنستنا نظيرتها فى الاسكندرية فان كل غرفة من غرفها وكل قاعة من قاعاتها مفروشة بالاثاث الفاخر ومزينة بالنقوش الاصلية البالغة فى الاتقان وفيها من التماثيل والرسوم والابسطة والستائر والموائد والمعدات مايجعلها أشبه بديار التحف منها بديار الادارة والسياسة ورأيت فى احدى قاعاتها تمثال كرستوف كولمب وتحت التمثال صندق من المرمر مغلق منيع فيه كتابات ورسائل الرجل التى كتبها بخط يده لكنهم لاجل ان لايحرموا الناس من مشاهدتها وقراءتها أخذوا صورتها بالفوتوغراف وعرضوها على الانظار تحت الواح من الزجاج ثم انك ترى صور وقائعه واسفاره واكتشافاته وكل

ماقاساه فى آخر أيامه مصورا محفوظا فيها بحيث انك بمجرد
الاطلاع عليها تعرف تاريخه وما جرياته عن ظهر قلب وفى دار
البلدية المذكورة غير ذلك من تماثيل العظماء مما لا أرى حاجة
للكلام عليه الآن غيرانى أقول ان القصر الفاخر الذى هى فيه
كان ملكا لاحدى العائلات الكبيرة فتنازلت عنه لها وعلى
ذكر ذلك أقول أيضا ان أعظم منتزه فى وسط البلد كان لعائلة
غنية أخرى فتنازلت عنه للبلدية وهى جعلته منتزها للعامة
ومربي لبعض الاطيار الغريبة والازهار النادرة ومتحفا للتاريخ
الطبيعى ولقد بلغنى ان احدى السيدات تبرعت للمدينة أيام
حروبها بمبلغ يوازى ٢٠٠٠٠٠ فرنك لتعزيز الحصون وتقوية
القلاع والمحافظة على أكبر أبواب المدينة فأقامت لها البلدية
بعد موتها التماثيل والانصاب اقرارا بفضلها على وطنها واشهارا
لحبها لقومها وعلى ذكر ذلك أقول وأقول وأعيد وأعيد ما ستراه
مفصلا فى الرحلة وان غد الناظره قريب

غير انى أسألك كلمة واحدة ثم أنتقل من هذا الموضوع وذلك
انى قرأت تواريخ بلادى ووقفت على وقائع قومى وتحسرت لما
رأيت أنى لا أتذكر شيأ يشبه ذلك أو يقرب منه فان كان على
بالك أمر من هذا القبيل أو أقل منه بقليل فانى أناشدك الوطنية

الاما تحفتنى به لـتزول عنى الغصـة وليكون فى تذكير القوم به أعظم اسوة

العـمامة والطربوش فى أوروبا

هـل أحدثك بحـديث العمامة والطربوش فى أكبر كنائس هـذه المدينة فانه يدل على انه لم يزرها أحـد قبلنا بشكلنا وان قسوسها لم يبرحوا قط منها . دخلنا هـذه الكنيسة وقلنا لسائق العربة ينتظرنا ولكنه لما رآنا دخلنا من الباب ولم نرفع عمائرنا (العُمارة فى اللغة كل ماوضع على الرأس من طربوش وعمة وطرطور وبرطول وقلنسوة الخ وتقابلها بالفرنسوية لفظة Couvre-chef و Coiffure) أشار الينا باتباع هذه السنة فلم ألتفت اليه ولما دخلنا نبهنا الدليـل الى ذلك فأضـفت جهله الى جهـل السائق وأفهـمته ان ذلك غير لائق وبعد خطوتين جاء الحارس يتبختر فى ملبوسـه الارجوانى وأزراره النحاسية ويتوكـأ على صولجانه وقال لنا لابد من كشف الرأس احتراما للمعبد الكاثوليكى فأفهمته ان هـذه عادتنا فى بلادنا فذهب وأحضرلنا شماسا أو شككت إن أقنعـه ولكن رآنا المطران فاقبل الينا و وافق على مـلاحظات أولئـك فقلت له ياسيدى اننا ولله الحمد نعرف واجب الادب فى كل مقام ونعتبر كشف الرأس اخلالا بالاحترام فلا ندخل قط على عظـيم أو فى مسجد الاوروسنا مغطاة ولاشك انه سيقدم اليكم

كثير من أمثالنا بمناسبة الاحتفال بمهرجان كرستوف كولمب . وكلهم يصنعون صنعنا

فأظهر الاقتناع ثم قال لى سلمنا بذلك لرفيقك فان شكله شرقى قح وأما أنت فانك بالملابس الاوروبية وحيث انك قد اخترت ملبوس الافرنج على ملبوس بلدك فاقتد بالافرنج فى نزع القبعة قلت له كلا فهذا هو الشكل الرسمى فى بلادنا وهذا الذى على رأسى ليس بقبعه وقد زرنا قبل الآن كثيرا من الكنائس وأهمها كنيسة ماربطرس برومة فخيانارهبانها واكرموا مثوانا وكلمونا بالعربية واطلعونا على ذخائرها ونفائسها وفرجونا على الاعمدة الرخامية التى أرسلها اليها ساكن الجنان أفندينا محمد على باشا حينما احترقت وساعد ملوك الارض على اقامتها وحينئذ اقتنع تماما وقال للحارس يطلعنا على ماعندهم من الذخائر القديمة الصحيحة من سلاسل وأخشاب وغير ذلك مما لايحتمل المقام تفصيله

الضرر فى اتخاذ الملابس الافرنجية

ثم خرجت من الكنيسة وفى نفسى غصة من ملبوسى هذا الذى ترتب على اتخاذه فى بلادنا إماتة كثيرا من صنائعنا وصناعنا واحياء صناعات الافرنج السريعة العطب ومساعدة التجارة الاجنبية على انتزاف مابقى لنا من قليل الثروة فضلا عن أن

الحذاء الافرنجي يوجب فى الارجل سقاما قد تكون سببا فى نكد العيش ومرارة الحياة اما البنطلون المحذّق والصديرى المضيّق والسترة أو الجكتّه أو السالك أوالرد نجوت أوالسموكن أوالفراك والقميص المكوى ورباط الرقبة الملوى وغير ذلك من الازياء والانواع فانها ليست موافقة لطبيعة الاقليم فى بلادنا بالمرة وأما الطربوش فليس فيه من مزية سوى حبس الهواء فوق المخ وعدم تمكينه من الخروج لاحتباك اطرافه على الرأس فهو أجود وأنفع فى البلاد الباردة وليس وراءه الا الضرر فى البلاد الحارة وياليتنا حينما اتخذنا الملبوس الاوربى اتخذنا القبعة أيضا فانها ليست محرمة لاشرعا ولاعقلا فضلا عن ان عرب مراكش لايزالون الى الآن (وهم على ماهم عليه من التمسك بالاسلام) يلبسون شيأ شبيها بالقبعة له حواف تمنع وهج الشمس عن الوجه وعما يحاذيه وفوق ذلك فان كلمة شاپو (Chapeau) التى تدل على البرنيطه أوالقبعة عند الفرنج محرفة عن كلمة عربية لاأتذكرها الآن (وربما كانت القبعة) لنوع من العمائم كان يلبسه مسلموا الاندلس (وسأبين ذلك بالرحلة)

هذه ملحوظات عنت لى إثر دخولى الكنيسة وقد كان شئ شبيه بها دار فى رأس حينما رأيت ان الملبوس الشرقى أجلب

للانظار (كما وقع فى نابولى وغيرها) فكنت ان أودان أكون مشاكلا لرفيقى بعمامة وقفطان وجبة مرخية الاردان ولاأبقى على هذه الحالة التى اختارها أهل بلادنا فكانوا أشبه بالغراب أراد ان يتشبه بمشية طائر جيل (هو الطاووس أو غيره) فلم يتمكن من التقليد ونسى سيره القديم - لكن الطربوش والحق يقال جعل لى فى أوروبا مزايا كثيرة منها ان القوم كانوا يفسحون لى فى كل مكان واذا قبلت على حانوت قابلونى بالبشاشة والاكرام ولابد أن يكون السبب فى ذلك أن بعض أغنيائنا وكبرائنا الذين يتوجهون بشكل مثل شكلى وينفقون الدرهم والدينار من غير حساب يأخذون ماحصلوا عليه فى بلادهم بأية الوسائط وينفقون فى أوروبا من غير فائدة لهم ولالأوطانهم بل فى قضاء أوطار باطلة وخلاعات زائلة تبقى بعدها حسرات متواصلة والشواهد أكثر من أن تعد وانى لاأشكرهم مطلقا على كونهم جعلوا أهل التجارة يرحبون بى ويوسعون لى مقاما محمودا بل كان أولى لهم وأولى لهم أن يتخيروا الصرف فى نفس بلادهم بما هو أفضل لهم وأجدى لوطنهم كما رأينا فى مدائن أوروبا - هذا موضوع يدوخ منه رأس الكاتب والقارئ فأتركه لغيرى وأريح منه نفسى

معامل الشفتشى

ولما كانت مدينة جنوة متفردة على غيرها باصطناع الشفتشى توجهنا الى أحد المعامل و رأينا كيفية الاصطناع من أوّلها الى اخرها من أخذ الفضة وهى كتلة قائمة واصطناعها أسلاكا مختلفة فى الحجم تتراكب مع بعضها بجميع الاشكال مما يندهش له العقل خصوصا وان القائمين بها أطفال وطفلات تحت ادارة معلمين ومعلمات وسأكتب عليها بالتفصيل عند التيسير

أول رؤية مسلم باوروبا

ولما خرجنا من المعمل تلاقينا برجل لابس طربوشا فوقف ووقفنا ثم تبادرنا التحية بالعربية وحصل لنا برؤيته فرح كثير اذ لم نصادف أحدا من أبناء الشرق من يوم خروجنا من الاسكندرية الى ٢٥ أغسطس يوم وجودنا بجنوة ثم عرّفنا انه السيد محمد بن عبد الغنى وكيل سلطان مراكش فى ايطاليا وأراد أن يستضيفنا فاعتذرنا لان الوقت لايساعدنا و بعد ذلك أردنا ان نزور السفائن البحرية فأخذنا زورقا كانت الامواج تصده والتيار يمنعه الى أن أقررنا بوجوب الرجوع وسلينا النفس باننا سنجد فى انكلتره ماهو أعظم وأكمل

الرسالة السابعة

(من تورينو الى مودان الى باريس)

فراق جنوة وقرافتها

فارقت جنوة وأنا معجب بنشاط أهلها ووطنيتهم وغريب اقدامهم حتى لقد رأيتهم يزحزحون الصخور ويقيمون مكانها القصور ويصعدون الى أعالى الجبل فيبنون المساكن الأنيقة والدور الرشيقة ولقد أطلت التفكير فى زخرفتهم حتى لقرافتهم التى فاقت كل ما رأيته فى غير مدينتهم بابداع التماثيل وكثرة العناية بحيث انها تعد من أحسن منازههم وأنظفها وأبهجها ولا يصح للسائح ان لا يزورها وقد رأيت بعض العائلات تقيم لمن يتوفى من أفرادها أثرا جليلا من المرمر الناصع بالتمثيل المحكم والاتقان التام مما يكلفها ١٠٠٠٠٠ فرنك فنازلا واعتنت البلدية بتنظيمها على هذا النسق المعجب وقسمتها أقساما بقدر اللحود تبيعها لمن يريد وهى تتكلف بتشييد القبور واقامة الانصاب لمشاهير المدينة قديما وحديثا

وكانت جنوة أول مدينة شعرنا فيها بالبرد الخفيف وفيها تنازل الوبل علينا مدرارا ثم قمنا منها قاصدين باريس ولكنا

التقينا فى القطار برجل من أهل تورينو أشار علينا بشطر الطريق نصفين حتى لا تفوتنا الفرصة من مشاهدة هذه المدينة الفاخرة التى تسمى فى كتب قدماء العرب طرون وطرونة واطرونة وحتى لا نتعب من طول الطريق

منظر تورينو

فعملنا بنصيحته شاكرين وكنا أرسلنا متاعنا كله الى باريس فدخلنا المدينة وقد أرخى الليل سداله وجر الظلام أذياله فرأينا شوارعها فسيحة أنيقة تضىء الكهربائية أرجاءها فتساعد على زيادة جمال المبانى الفخيمة التى تحف بها وأمضينا بقية الليلة بثياب النهار حتى اذا أصبح الصباح (وانتشر نوره ولاح) قمنا من الفندق وطلبنا من البوّاب أن يتحفنا بدليل من أولى الالباب فاحضر لنا رجلا لتشويه خلقته كانه من عجائب الزمان ثم ركبنا عربة وهو معنا نتفرج على المدينة وما فيها من الغرائب وكانت كلها تزيد فى عينى جمالا واعتدالا وليس الفضل فى ذلك لمنظر صاحبنا فقط بل لانها فى الحقيقة تحتوى بعد استكهلم (عاصمة السويد) على أجمل حدائق الدنيا وقد طفنا منازهها وارتقينا ربواتها وأهم مرتقى صعدنا اليه هو جبل شامخ يكاد يكون رأسيا عليه أربعة قضبان كشريط السكة الحديدية وفوق كل اثنين منهما عربة عجلاتها السفلية كبيرة والعلوية صغيرة جدا بحيث

يكون الجالس على هذه العربة كأنه على الارض المنبسطة ومتى
دق الحارس الجرس الكهربائى صعدت بانتظام من غير أدنى
ارتجاج تجذبها قوة الغاز ثم ترسلها بالثانى الى مكانها الاول عندما
تجىء الاشارة وسأصف لك هذه الآلة فى رحلتى فقد كتبت الى
مخترعها أطلب منه البيان الشافى ولما تسنمنا ذروة هذه الربوة رأينا
متحفا فيه الحيوانات والاحجار والاعشاب والازهار الخاصة بالقسم
من جبال الالب المجاور للمدينة ثم صعدنا على سطح المتحف فرأينا
النظارات المقربة قد قربت لنا الجبال حتى كانها صارت تحت
يد المتناول وقد كلل الثلج هاماتها فكأنها هرمت من طول العهد
ترى السحب فوقها متراكمة على الدوام ولكن سفحها مازالت فيه
قوة الشبيبة والانبات فتراه مجللا بالحلل السندسية البديعة

آثار مصر فى تورينو

ثم هبطنا هذه الربوة وقصدنا متاحف المدينة ولا أذكر منها
الآن الا القسم المصرى فقد رأيت لهم عناية تامة بحفظ الآثار
التى صرفوا فى جلبها من بلادنا الابيض الوضاح والاصفر الرنان
ورأيت فيه مجموعة كاملة من ورق البردى المزين بالاشكال
والرسوم الباهية فيها تصوير الاحوال التى تمر على المصرى القديم
من يوم منبته الى يوم منيته الى يوم دينونته الى يوم مستقره فى جنة
أو جهنم ثم نزلنا تحت الارض فى قاعات طويلة فيها الآثار

المصرية الضخمة كالمسلة وصورة لابى الهول وهى فى غاية الجمال وانى لاعجب كيف يصح اطلاق لفظ أبى الهول على هذا التمثال الذى وجهه وجه غادة مصرية مفرطة فى الملاحة اللهم الا ان يقال ان حسنه يهول من يراه كما يقال فى لغتنا الواسعة (لهذه الفتاة محاسن رائعة) ولولم يكن التمثال الهائل الذى بجانب الاهرام ما كان هذا التعبير يصح فى الاذهان ولكن قد كان ما كان فالاجدر بنا أن نحمل هوله على ما به من فرط الحسن وصباحة المحيا

ثم خرجنا من هذا المتحف الى غيره مما فى المدينة فرأينا أسواقها عامرة وحوانيتها مشحونة باصناف البضائع والفاكهة فيها بل وفى كل ايطاليا من أجود مايكون حتى انى رأيت البرقوق فيها بحجم الكمثرى بحيث لايصح ان نسمى نظيره فى بلادنا الا بلفظة بريقيق (بالتصغير) ثم خرجنا منها قاصدين بلاد «فرانسة الغراء» فسار القطار تجره باخرة من الامام وتدفعه أخرى من الخلف لان الارض كانت آخذة فى الارتفاع

نفق جبل سان سنيس

وقبل ان نصل الى مدينة مودان الفاصلة بين تخوم فرنسا وايطاليا دخلنا نفقا منقورا فى جبل يناطح السحاب فداخلنى منه خوف شديد ورعب زائد فاخرجت الساعة بنوع من الالهام لكثرة فزعى من هذه الكتلة المتناهية فى الجسامة

والضخامة التى ستكون فوقنا وقد كنت أحسب نفسى قد تعودت على السير فى الأنفاق فاذا الامر ليس كذلك لان القطار صار يسير ويتعثر فى مشيته ثم يخفف من وطأته ثم يستريح ثم يصفر ثم يتنهد ثم ينحدر فيكتم نفسه خوفا من الانزلاق على المنحدر و ينتقل على قضبان توشك ان تكون مضرسة لحفظه من السقوط وقد استطال السير حتى كادت النفوس تزهق من انحصار الهواء ومن الرعب الشديد الذى قد تضاعف بمرور باخرة أخرى بجانبنا مالبثت ان بارحتنا وتركت باخرتنا كالفرس أجهدها الضنى وحضرتها ساعة الوفاة ومع ذلك لايرحمها الفارس بل ينخسها ويستنزف مابقى فيها من حول وقوة (ولاحول ولاقوة) وكنت وانا تحت هذا الجبل المتعالى أخشى أن يسقط حجر واحد منه فينهار ويروح القطار شهيد هذا الدمار الذى ليس بعده دمار وكنت أخشى أن يصح على السائق نص الحديث النبوى (لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى) وكان الطل متساقطا والنور فى العربة أصفر باهتا (مثل فانوس اللصوص) فتوسلت الى الله جل شأنه أن يهيئ لنا الخروج من هوة الظلمات الى فضاء النور فتقبل الدعاء وانعش أرواحنا بالضياء وليس هذا الوصف الحقير شيأ بجانب الحقيقة على الاطلاق وان لم تصدقنى فتعال ايطاليا ومر

بهذا النفق (ولاتنس بيشة) فانك ستمضى به ان شاء الله تعالى أكثرمن نصف ساعة وترى أكثر مما جاء فى هذا البيان وليس الخبركالعيان

ولقد اعترفت بصدق من قال ان الحادثات تمر على الانسان ثم ينساها حتى كأن لم يكن منها ما كان وانه عرضة للنسيان فى كل زمان ومكان فانى بعد الخروج من هذا المسلك الحرج افتكرت انى نسيت أمرا خطيرا وذلك انى خرجت من ايطاليا ولم أتناول شيأ من المكرونة أوالمعكرونة أوالمقرونة (طعامها المشهور) حتى وددت لورجعت اليها لآكل منها بالارطال أوبالامتار (فقد بلغنى وأنا بمصرانها تؤكل فى بعض النواحى من هذه البلاد بالامتار) ولكن هيهات هيهات رد مافات ولوأنى تذكرت حينئذ الجران بار (أرجوك السماح فان المقرونة مقرونة فيه بالاتقان)

وصف جنوب فرنسا

ولما وصلنا الى مودان نزل الركب يهنئ بعضهم بعضا على السلامة من ذلك الجبل المريع واستنشقنا حينئذ هواء فرنسا وقد كانت رئاتنا فى احتياج اليه وتسلمنا عمال السكة الحديدية الفرنسوية ثم سار بنا القطار بين جبال شامخة شماء يشقق من أعاليها الماء فيكون غدرانا وانهارا تنساب بجانب الوابور وتحته بمنظر رائق جميل والهواء صاف عليل يروح النفس ويرد اليها

الحياة ولاأعلم لماذا اعترتنى هزة الفرح ونشوة السرور وأنا أمر بينها معجبا بهذه المحاسن الطبيعية وقد رأيت فى بعض حقولها وفى بعض مزارع ايطاليا شادوفنا المصرى بالتمام ولولا وجود الجبال وكون الذى يسقى الارض بالشادوف لابسا القبعة والبنطلون لظننت انى فى أرياف مصر أشاهد فلاحنا المعهود

وشتان بين مالاقيته فى جنوب ايطاليا مما قبض الصدر وضيق على القلب وبين ماشاهدته فى جنوب فرنسا مما يسر الخاطر ويقر الناظر . أما المدائن التى مررنا عليها فى جنوب فرنسا فانما هى قرى خلوية ليس فيها شئ من الجمال الذى رأيناه فى مدن ايطاليا وكنت عند كل محطة أسمع القوم وخصوصا النساء يملاؤن الافواه عند النطق باسم باريس فيقلن (پارى والاكثر پاغى بغنة ومدة فيها الترخيم) ثم أقبل الليل فشددت حلقة فى أعلى الكرسى فانقلب سريرا بل فراشا وثيرا فنمت متوكلا على الله ولسان حالى يكرر مايقوله المصريون (على قلبها لطيلون) وبعد ١٩ ساعة قضاها الوابور فى السير الحثيث وصلنا مدينة باريس

وقبل ان انتقل الى الكلام على هذه المدينة الحسناء أرى من الواجب على أن أفى بوعد قد أخذته على نفسى وهو ذكر

ماألاقيه من عمال كوك فانى لايسعنى الا أن أوفيهم هنا حقهم من الثناء فقد قاموا بخدمتنا فى جميع المدائن التى نزلنا بها أحسن قيام وساعدونا فى كل طلباتنا فوق المرام وأمدونا بجميع أنواع لتسهيلات والايضاحات خصوصا فى فلورنسة وتورينو حتى محوا الهفوة التى وقعت ببرندزى فلله در كوك أحسن الله مثواه بقدر احسانه الى نفسه والى العالم كله

الرسالة الثامنة

باريس

الانبهار من رؤية باريس

هذه باريس تحفة الدنيا ونزهة العالم وزهرة الكون . هذه باريس جنة الجنائن ومدينة المدائن وعاصمة العواصم . هذه باريس منبع البهاء والمحاسن ومرتع الظباء الاحاسن . هذه باريس تمثال الفخامة والجلال وشخص الخفة والرقة والجمال . هذه باريس معدن العلوم ومركز دائرة العرفان فى هذا الزمان . هذه باريس التى مهما بالغت عنها فى الوصف والمقال فانى بعيد عن حقيقة الحال بعدا ليس له مثال ولا يكاد يخطر على بال

فليس لى حينئذ الا الاكتفاء بانها فردوس الفراديس

بل هى هى باريس

قدمت اليها فى بكرة النهار (من يوم ٢٧ أغسطس) ورأيت فيها من الحركة والنشاط ماهالنى وراعنى وألزمنى الاقرار بالعجز عن التعبير والحيرة فى التحرير فكيف يتسنى لى أن أوافيكم ياقوم بما شاهدته فيها من التناهى والبلوغ الى غايات الكمال فى كل موضوع وباب وانى اذا أرخيت للفكر العنان ومكنت القلم من الجولان فى أى ميدان أملى عليكم مايملأ الاوراق ويدهش القراء ولكنى أؤجل التلخيص الى عودتى اليها بعد اتمام المأمورية والتنقل فى بعض مدائن الانكليز لكى تكون كتابتى عليها عن تحقيق وتدقيق فانها تملكت فؤادى واستولت على لبى حتى انى فارقتها مضطرا بعد ماقضيت بها يومين وماقضيت منها وطرا موطنا النفس على الرجوع اليها واستجلاء مشاهدها ومعاهدها . وهل تكتفون بذلك منى الآن أم تريدون أن أوافيكم بعجالة فيها نبأ له شان

أهمية المرأة فى الوجود

أريد أن أتكلم على أحسن نصف فى بنى الانسان ولكنى أخاف اللوام فاسمعوالى بالله عليكم هذه المرة بمعاودة

الكلام على المرأة وأعدكم انى لاأعود وما عهدتمونى انقض العهود وكيف ألام على الدخول فى هذا الموضوع الحرج الواسع وقد كان للمرأة ولايزال لها الشأن الاول واليد الطولى فى الانقلابات الدولية والنظامات السياسية والترتيبات الدينية بل فى كل شأن من شؤن العمران وفى كل عمل من أعمال الانسان فاننا اذا صرفنا النظر عن أم الامهات وتصفحنا التاريخ العام وجدنا لها أثرا ظاهرا وعملا معروفا فى كل الاديان التى نزل بها الوحى أوزينها الوهم واخترعها الخيال وهذه الاشارة الوجيزة تكفى من له أقل اطلاع

ثم اذا نظرنا بوجه الاجمال الى تاريخ القدماء من مصريين وأشوريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم وجدنا المرأة هى دون سواها سبب التقدم والارتقاء أوعلة التقهقر والانحطاط وعلى يدها تم تشييد الدول العظيمة أوتبديد سطوتها ومحو أثرها من الوجود وطالما اشتبك القتال وتفانى الابطال لاجل امرأة واحدة وكذلك الحال فى تاريخ الامم الحديثة . هذا أمر كان وكائن ويكون الى يوم تحشرون وانى أذكر لكم مايحضرنى الآن من الشواهد القليلة مثال ذلك دلوكة العجوز فى التاريخ المصرى القديم والمرأة التى كانت سببا فى حروب تروادة الشهيرة ولوكريس

وفرجينا فى التاريخ الرومانى ومثلهما تلك الغادة الكمائية التى جاء فى بعض الروايات انها كانت سببا فى القبض على انيبال الافريقى قائد قرطاجه بعد ان أذاق الرومانيين من العذاب ما اذاقهم ثم ريني (Irène) فى تاريخ بوزنطيا وتلك الحسناء الفلسطينية التى احتالت على سمسون الجبار فأخضعته وأوقعته فى يد أعدائه بعد ان أوقع بهم وعجزوا كلهم عنه بمفرده وتلك الفتن التى أثار غبارها نساء داود عليه السلام فى آخر أيامه وتوصلت احداهن بالحيلة والدسيسة (على ماجاء فى التوراة) حتى ألزمته بان يجعل ابنها سليمان (عليه السلام) خليفة له والبسوس والزباء فى تاريخ العرب وطومريس ملكة المساجيت التى طلب كورش ملك فارس أن يتزوج بها فامتنعت فأقام عليها حربا كانت عاقبتها وبالا عليه وعلى قومه واليصامؤسسة قرطاجة وكليوبطرة ملكة مصر الشهيرة ودخول العرب فى الاندلس وخروجهم منه كان سببه المرأة وهذه خديجة وعائشة رضى الله عنهما وشجر الدر وغيرهن فى تاريخ الاسلام وفتك الرشيد بالبرامكة على مافى بعض الروايات سببه المرأة ولاتنس زوجة الزمخشرى فانها على مايروى عنها هى التى أرجعته بالبرهان الفعلى لا القولى عن القول بخلق الافعال واجنيس سوريل التى كانت سببا فى سقوط الدولة الفرنساوية ثم جانّ

دارك راعيـة الغنم التى طردت جيوش الانكليز من أرض فرنسا والشواهد أكثر من أن أتذكرها الآن أنا وفى بلاد الانكليز وربما توسعت فى سردها فى الرحلة اذا يسر الله

وكان أحد القضاة فى أوروبا كلما نيط به تحقيق واقعة جنائية يقول للشرطـة (ابحثوا عن المرأة) وبذلك كان يصـل لاكتشاف الحقيقـة على الدوام مهما كانت وقائع الدعوى تصرف الظنون عن وجود أصبع للمرأة فيها ولم يكن فعله هذا من ضروب النبوة أو الاطلاع عـلى ماوراء الحجاب وانما هو من قبيل الاستقراء والاستنتاج ومن تمام معرفـة تأثير المرأة فى أعمال الناس ولقد أحسن شاعرنا العربى اذ يقول

اذا رأيت أمورا * منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها * من النساء تأتت

وأذكر بيتـين آخرين يختصان بالمرأة لاأدرى أيهـما الاحق بأن يقال عنده صدق . أذلك الذى قال

ان النساء شياطين خلقن لنا * أعوذ بالله من شر الشياطين

ام تلك التى اجابته فى الحال واجادت فى المقال

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

أما أنا فأحكم بعـد الحـيرة الطويلة بارجحيـة القول الثانى

وليس من شيمتى ان استبد عليك لموافقتى بل أتركك حرا فاختر لنفسك مايحلو

المرأة فى فرنسا

ولاشك ان الفرنساويين نظروا الى كل هذه الملاحظات وما يناسبها بنظر الناقد البصير والمتدبر الحكيم فأرسلوا مثلا تناقلته الافواه وهو (ان ماتريده المرأة يريده الله Ce que femme veut, Dieu veut.) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والامر الطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لاترضاه زوجته ومتى أقدمت هى على عمل أوتعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والاقرار بوجوبه وان لامندوحة عنه وهم يبالغون فى اكرام المرأة والتأدب فى حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف وفى تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى التى لايقدم عليها الافحول الرجال) ولذلك نبغ منهن الكاتبات المحررات الشاعرات الخطيبات المصورات المشخصات المحاميات الطبيبات المخترعات فى كل أمر ذى بال أو غير ذى بال

أحاسن باريس فى غاية بولونيا

الى هنا أنبه قلمى للعدول عما استطرد فيه الى ماينتظره منه بعض القراء عقيب ماصدرت به الكلام من التخوف من اللوام وقد تعلقت آمال ذلك البعض (اذا صح التعبير بالبعض عن الكل) بان أحدثه على فسحتى فى باريس يوم الاحد الرابع

من أغسطس بعد أن أمضيت الاحد الثانى منه فى سان ستفانو بالاسكندرية والثالث فى منازة رومة وخمائلها السندسية

ولعمرى انه يحق لهـم ذلك الانتظار ولايحق لى ان ابخل عليهم ببعض ماشاهدته اذ الاحاطـة متعسرة بل متعـذرة فانى أمضيت يوم الاثنين وصبيحة ذلك اليوم الاحد البهيج فى السؤال عن كثير من العلماء الذين سبقت لى بهم معرفة بالذات أو ببعض العلاقة الادبية ولم يسعدنى الحظ بمقابلة أحد منهم على الاطلاق لانهـم كلهم قصـدوا الخلوات طلبا للرياضـة والتمتع بالسكينة والهواء السـليم (وربما كان هـربا من الهواء الاصـفر وقى الله بلادنا منه) ولذلك أخذتنى الغيرة منهم فأحببت أن أتشـبه بهم فى استنشاق النسيم وامتاع النواظر برؤية العيون المراض الصحاح ومشاهدة مافى الطبيعة والصناعة من باهى المحاسن وباهر الاحاسن وما هو الا ان حانت ساعـة النزهة حتى علوت عربـة توسمت فى سائقها الفهم والنباهة وركب على يمينى رفيقى الاستاذ الشيخ محمد راشـد وقلنا لسائق العربة ان يغـدو بنا الى حيث يخرج القوم بحجة النزهة والرياضة وترويح الفكر وإراحة البال فأرسل الخيل تعـدو فى شوارع منتظمة عامرة آهـلة حتى اذا اقتربنا من غابة بولونيا أخـذ يسـير الهوينا ونحن نمتع النواظر برؤية الوجوه

النواضر والألحاظ الفواتر والثغور البواسم والخدود النواعم والقدود المياسة والخصور النحيلة الى ماوراء ذلك مما هو وراء الوصف والبيان وقد كان منهن الخاطرات بالدلال والاعتدال فى حلل البهاء والجمال وملبوس أنخر يزيد الملاحة بما لا يقدر ومشية متوازنة بحركات متجانسة ممزوجة برقة واعجاب لايصح ان تسمى بالتبختر ومنهن الراكبات فى العربات وبجانبهن أو أمامهن رجال من عائلاتهن (أوغيرها) ولكنهن لا ينظرن اليهم ولاهم ينظرون اليهن بل كل من الفريقين مشغول عن صاحبه (لذى تمتلكه اليد) بمن يسعى أمامه أو يمر بجانبه أو يعدو خلفه وكل واحدة من هذه الجوارى المملكات المالكات تبذل غاية جهدها ومنتهى فنها لكى تتجلى فى مظهر أنيق رشيق يسبى ويصبى ثم لاتكتفى بخطف العقول والارواح بل هى فوق ذلك فتاكة فتانة (والفتنة أشد من القتل) ومازلنا ننتقل من منظر الى أبدع الى أبرع الى أبهج الى أبهر حتى انبهرنا واندهشنا وضاعت مناصيغ أفعال التفضيل التى كنا حفظناها لمثل هذه الفرصة وقد كل البصر وارتد الطرف حسيرا فافتكرت حينئذ أن البخار تكفل بتقريب المسافات فاغنانا عن استعارة أجنحة القطا للطيران الى موضع الحب والهوى ولكنى فى عوز زائد الى كثرة

النواظر لان العينين اللتين منحهما لى البارى لاتكفيانى لرؤية هذه المناظر التى أمامى وتأسفت على كونى لم أتزود قبل الرحيل بشئ من العيون التى كانت تنفعنى وتنفع أصحابها فى مثل هذه الحال التى ليس بعدها حال ولكن لله الحمد فان الباب مازال مفتوحا والامر ميسورا لانى سأرجع الى باريس وأقيم بها نحوا من أسبوعين أو أكثر فكل من يهزه الشوق لاستجلاء هذه المحاسن بنفسه من غير أن يتحلحل عن مجلسه فليساعدنى بما هو لازم (ع) ومتى انصرفت عن هذه المدينة أرجعت اليه العين بالعين فتحدثه بما رأت وتؤكد له صدق من قال وليس الخبر كالعيان

فلما رأيت مارأيت من التناهى فى التبرج والبهرجة والتغالى فى التزويق والزبرقة والتهالك على النماكة والغندرة خطر على بالى انى لو كنت من قدماء اليونان الذين يعتقدون بتعدد الآلهة لكنت أقول ان إله الجمال بالغ فى الاتقان وبذل كل مافى وسعه من حسن الصنع عند ما كان مشتغلا بالخليقة فى هذه البلاد ولكنى بفضل الله من المؤمنين الموحدين المسلمين الذين يقولون تبارك الله أحسن الخالقين

وقد تذكرت حينئذ عبارة لاتينية كان القدماء يكتبونها على الساعات رمزا الى انقضاء الحياة بمرور الاوقات وهذه ترجمتها

(كلهن جارحات والاخيرة تقتل Vulmerant omnes, ultima necat.) ولو كنت من الشعر بمكانة القادرين على سبكه والمجيدين لحبكه لصغت هذا المعنى فى أبيات بديعة فى الكلام على النساء ولكننى لا أتصور انه فات شعراءنا البلغاء

أقول الحق اننى لم أستغرب بعد ذلك كله من تلف بعض الشبان الذين توجهوا الى أوروبا فان الجرجر والمكبب والمقبب والمحدب والمعقد وخصوصا الشريط الذى يعقد على الخصر ويتطاير فى الهواء من وراء الذى يسميه الباريسيات بما معناه (اتبعنى يافتى Suivez-moi, jeune homme) كل ذلك يجر الى الغرور من غير شعور و يهوى باهل الهوى الى - هاوية الغواية والشرور الامن عصم ربك وهم ولله الحمد كثيرون . وقد قال لنا سائق العربة ان مارأيناه ليس بالشئ الذى يذكر لان المدينة الآن صفر من أهاليها المقصودة بالذات وأكابر القوم كلهم فى الخلوات

وجوب حجب النساء

وهنا أنتقل من هذا الموضوع الى موضوع آخر له به تمام الارتباط وهو انى من أهل المذهب القائل بعدم اطلاق الحرية للنساء الى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال الى التطرف فى الافراط

فان المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات والتفانى فى الملاذ فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى الطعام فان التعليم ليس بقادر ان ينزع منهن هذه الاميال وان نزع منهن الخرافات التى يبثنها فى عقول الاطفال

أقول ذلك بمناسبة مارأيته فى (تقويم ترويح النفوس Calendrier Amusant) المكتوب باللغة الفرنساوية عن سنة ٩٣ القادمة . قال فى النهر الثانى من صحيفة ٢٣ والاول من صحيفة ٢٦ ماخلاصته : ان العلامة كستنر (Kœstner) أحد أساتذة ليبسيك وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتابا فيه ابحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها فى البلدان المختلفة مستندا على الارقام وقد أدته ملحوظاته وحساباته الى اثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهى

ان المرأة الالمانية تخون زوجها فى عرضه ٧ مرات والبلجيكية تخون زوجها فى عرضه أيضا ست مرات وأربعة أخماس مرة (بحسب التعديل المتوسط) والانكليزية تخون زوجها خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولاندية

أربع مرات والسويدية أو الدنيمركية مرتين والطليانية مرة وخمسة اسداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والاسبانية سبعة اثمان المرة والبرتقالية واليونانية خمسة اسداس المرة والصربية والبشناقية والتى من الجبل الاسود والبلغارية ثلثى مرة والتركية (ويعنون بهذه اللفظة المسلمة وغير المسلمة من الشرقيات) عشر المرة الواحدة اه

فاذا سلمنا بهذا الحساب الذى استنتجه ذلك الاستاذ الالمانى رأينا أن فى التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة فى صيانة الاعراض

زيارة سفير الدولة العلية

وبعد ان طفنا هذا المنتزة مرتين رجعنا الى فندقنا فعلمنا بكل سرور وانشراح آن دولتلو أسعد باشا سفير الدولة العلية فى باريس حضر لزيارتنا وترك لنا ورقة الزيارة وقد كنا توجهنا الى السفارة فى صبيحة ذلك اليوم (الاحد) البهيج وحظينا بمقابلة دولته ولبثنا معه مدة انصرفنا بعدها شاكرين مالاقيناه من لطفه وبشاشته وجميل مؤانسته ومحادثته

ثم أمضيت الليلة وأنا احلم أنى فى غابة بولونيا وانه لاتصح مؤاخذتى على وصف مارأيته فيها الابعد أن يؤاخذ بهاء الدين العاملى على وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على رحلته فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول

وبعد ان يؤاخذ الكثير من فحول العلماء وأكابر الاتقياء الذين لم يأنفوا ورود هذا الروض الانف وهكذا الى ان أشرقت الغزالة فحملنا امتعتنا ثم ركبنا القطار السريع قاصدين لندرة عاصمة بلاد الانكليز التى لاتغرب الشمس عن ممالكها ومستعمراتها

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندرة

وخلاصة وجيزة على المؤتمر

وصف بحر المانش

اشتهر الانكليز عند الخاص والعام بالاختصار فى الكتابة والكلام على الهجوم والمقصود من غير تقديم مقدمة أو استفتاح بفاتحة وسأتكلم عن أخلاقهم بالتفصيل فى الرحلة وأكتفى الآن بمجاراتهم فى هذا السبيل

قمت من باريس الى دييب (Dieppe) أحد ثغور فرنسا فى الشمال الغربى وركبت الباخرة وأنا مرتجف من هول بحر المانش ودوّاره اذ انى قرأت فى كل كتب السياحة انه من أشد الابحر اضطرابا وهيجانا لانحصاره مابين شطوط فرنسا وانكلترا واندفاع التيار فيه ولذلك كان الاوربيون بل الامريكيون أنفسهم

يعترفون بشدة هوله ويفزعون دائما من اجتيازه حتى لقد حمل ذلك بعض المهندسين من فرنسا على تقديم مشروع مقتضاه خرق نفق تحت قاع البحر تسير فيه السكة الحديد للسهولة والراحة وتقريب المسافة ولكن انكلترا عارضت فى إنجاز هذا المشروع خوفا من تعدى قوة حربية برية عليها من فرنسا لجاءة (كما يتولى الفرنساويون) . ولقد ازداد رعبى حينما سألت أحد المسافرين وأجابنى بأكثر مما قرأت وتمكن كل التمكن بعد أن أنذرنى القبودان أيضا باضعاف ما أفادنى الاول فكاد يفعل بى الوهم ما يقصر عنه دوار البحر لولا انى تجلدت واذ كنت مضطرا للسفر وليس لدى من المراكب سوى ركوب هذا المركب ولا يمكننى الانتظار حتى تعترف انكلترة بفائدة النفق (كما اعترفت بفائدة قنال السويس فيما بعد) فقد اعتمدت على الله وعملت بنصيحة بعض الخبيرين الذين تعرفت بهم فى باخرة البر فبادرت لتناول قليل من الطعام قبل قيام السفينة حتى يكون فى المعدة شئ يقاوم تأثير الدوار بادىء بدء فلا يقع على الامعاء مباشرة

فجاءنى الغلام وكلمنى بالانكليزية وكنت قد نسيت اليسير الذى كنت تعلمته قبيل سفرى من القطر المصرى بسبب استعمالى الطليانى فى ايطاليا والفرنساوى فى فرنسا فضلا عما فى رطانة

الانكليز من الصعوبة والدمدمة والهمهمة واهمال المقاطع الاخيرة من الكلمات فتذكرت ان أحسن طعام يجيد القوم صناعته هو الرزبيف والبفتيك (أو البكتيف بحسب رواية البعض فى بلادنا) فذكرت اسم اللون الاول فعاد ومعه قطعتان كبيرتان حواليهما من الدهن سواران بل سوران وبجانبهما قليل من شبه المرق فغمست لقمة فى هذا السائل ثم وضعتها فى فمى فكادت تحدث عندى ماهوأشد من دوار البحر ودوخة الرأس واضطراب الامعاء لولا أن تداركت نفسى فأهويت الى فى بكمية عظيمة من الملح والفلفل والخردل وذلك لان الانكليز يصنعون ما كلهم من غير ملح ويتركون تمليحها للآكل بقدر مايريد وخلاصة القول انى أكلت كما أكلت (لاهنيأ ولامريئا)

وأما رفيقى فقدآثر النوم على كل شىء عملا بما اكتسبه من التجربة فى بحر الروم

ثم انى صعدت على ظهر السفينة لاتمتع بمنظر البحر ومشاهدة المدينة ولو ان ذلك يزيد فى أعراض الدوار ولاأصف اعتدال الجو وبهاء السماء وصفاء اللجة وجمال المدينة واجرافها الصخرية الشامخة التى تتلاطم الامواج تحت اقدامها بل أقول انى كنت أستغرب من تحسن الحال كلما تقدمت السفينة الى الامام وأنا

لاأشعر بالاضطراب ولكن القبودان كان يقول لى (بالفرنساوية) تربص قليلا ريثما تعارض السفينة التيار . وما زال الحال على هذا المنوال حتى بدت لنا شطوط انكلترا والفرح يداخلنى قليلا قليلا الى أن دخلنا ميناء نيوهافن (New Haven) بسلامة الله تعالى وحسن معونته بعد مسير أربع ساعات ونصف وكان عدد المسافرين ١٤٠ فى الدرجة الاولى و ٨٠ فى الثانية لم يؤثر الدوار الا على ستة من الستات واثنين من الخواجات وقد أجمع الخبيرون على ان مثل هذا اليوم لايجيء الافيماندر فقلت لعل هذا من كرامات المؤتمر أوان أحد أصحابنا فى مصر قرأ لنا حزب البحر

دخول انكلترة

ثم نزلنا فى المدينة فاستقبلنا أعوان الكمرك يسألوننا هل معنا شئ من الدخان والسجاير ثم وضعوا أمتعة المسافرين على كثرتها فى مخزن كبير بحسب ترتيب عددها فى التسجيل ووضعوا النمرة على الارض بالطباشير لكل متاع مسافر وعدد مامعه من الشنطات وما يتبعها لكى يتوجه كل أحد بحسب تذكرته الى موضع نمرته فيرى متاعه بدون أن يكون ازدحام أواختلاط أوضجة أورجة فأعجبنى هذا الترتيب وبعد التفتيش سار بنا

القطار الى لوندره فيما بين حقول خضراء ناضرة ومراع واسعة زاهرة

وصول لوندرة

فلما وصلنا المحطة المقصودة من لوندره فى مساء ١٩ أغسطس تلقانا عامل من بيت كوك ومعه كثير من مكاتيب اخوانى الذين تركتهم فى مصر وصلت قبل وصولى فحفظها لى عامل كوك وقد تلوتها باشتياق زائد قبل ان انتقل خطوة واحدة وشكرت الله على هذه النصف مشاهدة مسرورا بها شاكرا لله ذاكرا مالهم من الفضل والعناية ثم ركبنا العربة قاصدين الفندق فاذا المدينة كبيرة ضخمة جسيمة هائلة لايصح أن تسمى مدينة أوعاصمة بل هى قطر كبير واذا حق لى تسمية باريس (جنة الدنيا) فلا بد لى من تسمية لوندره موساعات العالم

وقد نزلنا فى أهم فندق بأهم حى من احياء هذا القطر اعلاء لشأن المأمورية واعتبارا لمقام حكومتنا السنية وهو المعروف بـ(ألبمارل هوتيل) وهو من الطبقة الاولى ولا ينزل به أحد من المسافرين الا بتوصية أوتقديم وكان نزلا لاعضاء العائلات الملوكية الذين جاؤا الى هذه الديار وقد كان النور الكهربائى فيه طوع بنانى طول الليل وطول النهار وان اليراع عاجز عن

وصف ماعليه الفندق ولكنى أقول ان بذل الدنانير الوافرة أجرة للنزول فيه كبذل الدراهم فى غيره وسأصفه بما فى المقدور فى الرحلة ان شاء الله تعالى

وفى صباح النهار نزلنا الى قاعة الاستقبال فرأينا ثلاثة من أبناء بلادنا قد حضروا للسلام علينا وكنا لا نتوقع ان أحدا يعرف مكاننا فى تلك الساعه فحصل لنا برؤيتهم ومكالمتهم مزيد السرور وهم من التلامذة الذين أرسلتهم الحكومة الخديوية للتعلم فى بلاد الانكليز

بعض زيارات

ثم حضر لزيارتنا فى الفندق سعادة الجنرال السير غرنفل باشا سردار الجيش المصرى سابقا فاستقبلنا سعادته بواجب الاحترام اللائق بمكانته من الفضل والعلم وهو الذى ساعدنا فى مأموريتنا هذه كما سيمر على نظر القارىء ثم حضر لنا رفيقنا الثالث وهو الدكتور فوللرس وقد رددناله الزيارة بعد ذلك

أعمال المؤتمر بغاية الايجاز

فلما جاء يوم افتتاح المؤتمر أرسل لنا سعادة سردارنا السابق عربته لتقلنا الى محل الاجتماع فلما وصلناه رأيناه يموج بالناس ولا يجهل القارئ ان جميع من يضمه المكان هو من مشاهير العلماء ونخبة الفضلاء من كل أمة ولم يحضر المؤتمر

أحد من العائلات الملوكيـة بل كلهم اعتـذروا برسائل برقيـة وغـير برقية

وأفتتح حضرة الرئيس الاستاذ مكس مللر أعمال المؤتمر بخطبـة قد كانوا طبعوها فى ٦٣ صحيفة ووزعوها علينا وكلها غرر ودرر وربما نلخصها فى الرحلة أما الرياسة الادارية فقد كانت فى يد اللورد نورثبروك (الذى كان حاكما على الهند وقد جاء مصر من زمن غـير بعيد) ولاحظ الجميع ان الوقت المقرر قد مضى ولم يتم العمل المحـدد فى البيان الرسمى ليوم الافتتاح بل انه لم يتكلم أحد غـير الرئيس وآخر اثنى عليـه وثالث تكلم بالطليانية وعلى ذلك انفضت الجلسـة الافتتاحيـة وفى المساء كانت مأدبة اللورد نورثبروك لاربعة وعشرين مدعوا من أهل المؤتمر لم يكن بينهم شرقى غـيرى وقد أجلسونى على المائدة والى يمينى الدكتور بوهلر وهو من أشهر مشاهير العلماء فى أوروبا والى يسارى السير غرنفل باشا وكانت المأدبة أشبه شئ بمآدب الملوك على ما سمعت لا ما عرفت

وفى الايام التالية كانت الاقسام تشتغل بمباحثها وفى جملتها الفرع الثانى من القسم الثانى الخاص بالساميات الذى كنا فيه فلما جاء دورنا تكلم الدكتور فوللرس على رسالة كتبها فى الاصوات العربية مستندا على ما رواه ابن يعيش شارح المفصل وما جاء به سيبويه

النحوى ثم تلوته بالفرنساوية مبينا إجمال مافى الرسائل التى قدمتها للمؤتمر ثم قام حضرة الاستاذ الشيخ محمد راشد وتكلم على رسالته التى كتبها فى الكلام الدارج بمصر القاهرة وأورد كثيرا من أزجال العوام والحانهم وموشحاتهم ومواليانهم وأدوارهم ثم قدم شرحا مطولا كتبه على خطبة مقامات الحريرى

وفى اليوم الرابع عينوا لجنة دولية للنظر فى شؤن المؤتمر الآتى والاقرار على وقت انعقاده ومحله وتعينت فيها عضوا نائبا عن الديار المصرية وكان الحاضرون ٢٥ بما فيهم الرئيس فتليت الخطابات الواردة بهذا الصدد ودارت المذاكرة على تعيين وقت انعقاد المؤتمر الآتى فقال الكونت داجوبيرانتى مندوب ايطاليا ان اللازم عقده بعد ثلاث سنوات حتى يتيسر للعلماء فى خلال هذه المدة أن يحضروا مباحث يقدمونها فيه فقلت حينئذ (ان القاعدة التى تقررت فى أول الامر لاجل عقد المؤتمر كل ثلاث سنوات انما كانت لقلة المستشرقين وأما الآن فقد انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون والواجب علينا أن نوجد لهم فرصا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم لئلا يزداد الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية فتضيع القاعدة الاولى بالكلية وتذهب ثمرات هذا الجمع ادراج الرياح ويصير علماء كل دولة على

عقد مؤتمر فى عاصمتها كل عام أوعامين فيتفرق العمل شذر مذر ولهذا فانى بمناسبة الشقاق الحاصل الآن فى لسبون أرى وجوب الاقرار على عقد المؤتمر فى سنة ٩٤ أى بعد سنتين فقط) فطرح الرئيس هذين الرأيين على الاعضاء وحسبت الاصوات فاذا هى متساوية فى كل فريق ١٢ عضوا وبقى الترجيح له فأطال الامعان ثم انحاز الى رأينا وتقرر الاجتماع فى سنة ٩٤ ثم تقرر أن يكون مركزه مدينة جنيفا (جنيره) ببلاد السويسره ثم تقدم مشروع خاص بتنظيم أعمال المؤتمرات فى المستقبل وجعلها تسير على وتيرة واحدة فتقرر بعد بعض تعديلات

ولما حل اليوم المحدد لانفضاض المؤتمر اجتمع فيه خلق أقل من الذين حضروا يوم الافتتاح ودارت المذاكرة على ماقررته اللجنة الدوليـة التى سبقت الاشارة اليها ثم أعلنوا بالاختتام

وفى المساء توجهنا الى مأدبة أعدتها لجنة تنظيم المؤتمر لجميع الاعضاء فى قاعة (هوتيل متروبول) وهو من أكبر فنادق لوندره وكان عدد الحاضرين فيها ٣٠٠ مدعو وكان السير غرنفل باشا على يمينى والاستاذ الفاضل الشيخ محمد راشد على شمالى ولا يخطىء من يشبه هذه الحفلة ببرج بابل من حيث اختلاف الالسنة الا أنها بالغة فى الكمال والاتقان جمعت أصنافا كثيرة من بنى آدم ولغات

متخالفة تتكلم بها القوم الواحد بعد الآخر وقال رفيقى شيأ يناسب المقام ثم تكلمت بالعربية حسب مقتضى الحال واعلم انه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثر ما لانعقاد مؤتمر المستشرقين فيها بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة فى الوقت الذى انعقد مؤتمرنا فيه وهى مؤتمر للعملة (بفتح الميم) ومؤتمر للعامل وثالث للصحة وكل هذه منزوية فى غضون جوف هذه المدينة التى تسمى فى كتب العرب (لندرس) كما يسمون عاصمة فرنسا (بريس) وأما اسمها فى لغة أهلها فهولندن ولكن الفرنساويين يسمونها (Londres) ويضعون فى آخرها سينا لا ينطق بها فاذا أرادوا النسبة اليها رجعوا للاصل اللاتينى الذى يقرب من اللفظ الانكليزى فقالوا لندنيان (Londonnien)

وفى الاسبوع الذى كان المؤتمر منعقدا فيه (من ٥ الى ١٢ سبتمبر) دعينا لمآدب كثيرة ونزه مفيدة للجسم والفكر يسمونها رياضية وبلغتهم جاردن پارتى (Garden party) لكنهم ينطقون بها جادن پاتى بجيم وألف مفخمتين ونون لا تكاد تظهر وكذلك الباء الفارسية والالف فى التفخيم والتاء والياء فى عدم الظهور (فهذا درس من اللسان الانكليزى وان كنت لا أعرف منه الآن الا قليلا) ولا أذكر من هذه

الرياضات الرياضية فى هـذا المقام سوى مأدبة أعدها لنا اللورد امهرست (وهو غـير الذى كان حاكما على بلاد الهنـد) فقـد دعانا فى يوم ١٣ سبتمـبر الى قصره الكائن على مسافـة أربع ساعات من لوندرة فركبنا القطار ونزلنا عنـد وصولنـا فى عربات فاخرة أرسلها لنارب الضيافة ومنزله أشبه شئ بمدينة عامرة فيها الرياض الغناء ومن ألطف مايروق النظـر فيها أماكن أعـدها للعب فسيحة الارجاء مفروشـة بالاعشاب الطبيعية وفيها الغابات والبحيرات لصيد الطيور والاسماك ومعمل للغاز و آخر للكهربائية وآخر لاصطناع العربات وترميم آلات الزراعة وخزانة للاسلحة وغـير ذلك مما يدل على الحضارة وضخامة الثروة واصالتها وأذكر انه جمع فى روضته هـذه كثيرا من الاشجار النادرة الغريبة من أقاصى المشرق والمغـرب وله عناية بالازهـار والفواكه فوق العـقل وقد رأيت عنده صنفا من العنب كبير الحجم لذيذ الطعم أبيض اللون وله خاصـية الرائحة الذكية فيضوع أريجه عنـد أكله

وقد اصطنع فيه زهرية على مثال بستان الازهار الذى كان فى قصر الحمراء بغرناطة أيام دولة عرب الاندلس وشكلها آخذ بالبصر بهجة ورونقا

أما داخل القصر فحدث عنه ولا حرج وقل ماشئت ففيه دار تحف مصرية وبابلية وعمومية ولاجل أن يتصور القارىء مقدار التحف التى فيه وعظيم أهميتها أقول انه يوجد لديه ١٣ صندوقا كبيرا كلها مشحونة بآثار مستخرجة فقط من تل العمارنة فى ديارنا قريبا من ملوى بمديرية أسيوط وهو ينظر الآن فى بناء محل متسع لعرض هذه الآثار فيه وأما المكتبة فهى كبيرة جدا وفيها نسخ كثيرة بخط اليد من المصاحف الشريفة وكثير من الكتب العربية والفارسية والهندية مماله قيمة وذلك عدا الكتب الافرنجية المنسوخة بخط اليد المحلاة بالصور والرسوم البالغة حد الاتقان والكتب التى كانت باكورة اختراع المطبعة فى أوروبا وفى انكلترة وهى الآن نادرة الوجود وقلما توجد فى الكتبخانات العمومية التى من الدرجة الاولى وأحسن شئ رأيناه نسق وضعها وترتيبها المدهش للعقول وقد أعد للكتب النادرة المثال خزائن من الحديد خشية عليها من الحريق اذا شبت النار وان كان متحفظا على جميعها كما ينبغى

وفى المنزل غرفة ورقها من الجلد الاندلسى القديم وعليه أشكال ورسوم صورها احد المعلمين النابغين وأما الاوانى والفرش والاثاث والاستعداد وكثرة الرسوم والطيور والحيوانات المصبرة

فذلك مما لا احد لوصفه ولا تسل بعد هذا عن بقية قاعات النوم والجلوس والاكل وماتحتوى عليه من الاثاث والنور والاشكال والاوضاع فكله من وراء مقدور اليراع وصفه وفى الدار كلها اسطوانات عليها اعلانات تفصيلية بكيفية استعمالها بالسهولة لاخماد النار اذا شبت فى أى مكان وخلاصة القول انه اذا كان فى الدنيا نعيم فهو فى منزل هذا الرجل

أما دماثة أخلاق حضرة اللورد وحسن معاملته لنا هو وزوجته و بناته الست فذلك بمقدار ثروتهم وحضارتهم وقد أحرزوا من شكرنا لهم بمقدار ما كان لهم من مكارم الاخلاق

ومن بناته ثلاث أواثنتان جئن مصر والباقى لم يزرنها ولكنهن يقرأن الحروف العربية و يقدرن على كتابة بعض الكلمات بخلاف اخواتهن الاخرى وقد كان يود هذه العائلة الكريمة ان تبقينا عندها أياما كثيرة ولكنا اعتذرنا لان حضرة الشيخ كان لابد من رجوعه الى مصر فى يوم ١٦ سبتمبر فودعناهم بعد ان أخذت احدى كريماته صورتنا بالفتوغراف وبعد ان استكتبونا أسماءنا بالعربية والافرنجية

آما نزهتنا فى لوندره فلا أتكلم عليها الآن وانما أذكر انى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى احدى ضواحيها

وهو محل متسع فيه تياترورحب وفيه معمل للزجاج يشبه معامل البندقية وفيه شوارع مائية ومراكب ومراكبية تمثل للانسان مدينة البندقية بالتمام

فحمدت الله على هذه الفرصة الذى جعلت لى فكرة على هذه المدينة المائية حتى كأنى شاهدتها بالعين فالايدرك كله لايترك كله

معرض التاريخ الطبيعى

وقد توجهنا فى يوم من الايام الى معرض التاريخ الطبيعى البريطانى وكان مرشدنا فيه حضرة وطنينا الفاضل المنفرد بالشهرة فى هذا الفن الدكتور عثمان بك غالب فاستفدنا من دقائق المعرض وحقائقه أشياء كثيرة وأقول الآن ان الحكومة تنفق عليه وحده فى السنة خمسمائة ألف جنيه انكليزى وقد كان فى الاول فرعا من المتحف البريطانى فلما اتسع نطاقه وازدادت معروضاته نقلوه الى هذا المكان المخصوص وهو فى غاية الترتيب ونهاية الكمال

الرسالة العاشرة

لوندرة

عظمة لوندرة وجسامتها

بودى لو تيسر لى أن أكتب الآن ولو كلمتين على هذه المدينة بل على هذا القطر الواسع الذى يسمونه لوندره ولكنى أقف امام هذا الموضوع الهائل شبيها بالنملة بجانب مسجد السلطان حسن أو كالزورق الصغير فى البحر المحيط تتلاعب به الامواج وأنى له أن يهتدى الى بر السلامة فعلى م أكتب وماذا أصف وفيم أخوض فلقد اشتملت متاجرها على جميع أصناف العالم ومحصولاته كما ان بضائعها ومعاملها بلغت من الاتساع والاتقان فوق مايتصوره الادراك حتى إن مجرد الدخان الذى ينبعث منها الى سمائها يتحد مع ضبابها ويزيد فى تكدير جوها ثم يتساقط على مبانيها وعمائرها وتماثيلها وانصابها فيجعل منظرها أسود قاتما كئيبا محزنا تنقبض منه النفوس ويذهب بالانشراح ادراج الرياح وفيها من الاقبال على الشؤن واغتنام الفرص ومعرفة قيمة الوقت مايحير الافكار ويبهر الابصار ورجال الشرطة فيها بلغوا من الانتظام وحسن الدراية وكمال الدربة ومعرفة الواجبات مالايكاد يضاهيهم فيه غيرهم فى الكون باسره حتى صار لهم مهابة

فى النفوس وسيطرة حقيقية على كافة الافراد بحيث ان أقل اشارة منهم تكفى لمنع أى خلل أو اضطراب

حركة لوندرة

أما استمرار الحركة فى شوارعها فمما لا يتصوّره الانسان الا بعد المناظرة بالعيان فانها فى أقل الايام (ماعدا يوم الاحد) تشبه يوم مهرجان النيل أو ليلة احتفال الاعجام فى العاشر من محرم الحرام أو موسم المولد النبوى أو الاحمدى فترى العربات العمومية ذوات العجلتين وذوات الاربع تتقاطر وراء بعضها وبجانبها عربات الاومنيبوس شبيهة بالمنازل والدور كسلسلة متصلة الاطراف والناس يتبع بعضهم بعضا كأنهم يساقون الى المحشر الى غير ذلك مما يقتضى التعريف به أن نظهر الحقيقة فوق الاغراق والغلوّ فى المبالغة ولكنى لا يصح لى أن أعتذر بتعذر الاحاطة بأطراف هذا الموضوع عن كتابة ماشعر به الوجدان وتأثر به الجنان وانى أحاول ذكر قليل مما تيسر لى الوقوف عليه من الاجماليات ومن أمورشتى ومنشورات متنوّعة تصور للقارئ بعضا من كل من جسامة هذه المدينة العظيمة واتساع نطاقها وامتداد أعمالها وكيفية الحركة فيها

وابورات لوندرة

فأوّل شئ يؤثر على عقل القادم اليها مايراه فيها من حركة الوابورات وسرعة مسيرها وكثرة عددها وتنوّع اتجاهاتها واختلاف

أوضاعها فى الارتفاع والانخفاض حتى يكاد يعتريه دوار فى الرأس يشبه دوخة البحر ويداخله خوف شديد من امكان حصول الاصطدام فى كل لحظة أو خروج القطار عن الشريط فى كل خطوة حتى اذا وصل المحطة زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الارصفة وجسامة المبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه

ومهما وصفت ومهما شرحت ومهما بالغت فانى لا أبلغ عشر معشار الحقيقة ولذلك رأيت ان الطريقة المثلى هى أن أكتفى الآن بذكر بعض أمور متفرقة تجعل للقارئ فكرة صغيرة من عظمة هذه المدينة الكبيرة

فوائد الشركات

ولكنى أقول قبل ذلك ان الشركات والجمعيات وما بينها من المزاحمة الممدوحة والمناظرة المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فمهما نظر الانسان الى أى عمل من الاعمال رآه فى يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل فى شئ ماسوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فان الامة قائمة بنفسها مكتفة فى طلب

المكاسب والمعالي بما يفيدها ويرفع شأن دولتها من غير أن تتنازل وتمد يدها لامداد الحكومة ماديا أو معونتها معنويا حتى ان الانسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤن العقليات والمحسوسات كيف ان مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس في يد الشركات نعم فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام في هذه البلاد بلاد التعاضد على الاعمال والتباعد عن الخمول والاهمال ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على انماء المال ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى واضافتها للدولة الانكليزية على يد شركة تجارية

باجتهاد الافراد نجاح المجموع

وذلك لان أفراد الامة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا الا للعمل والاكتساب ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى ان بعض البنات في العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ولا تكون كلا على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ومنهن من يؤثرن التغرب في بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء في منازلهن خاليات من العمل منغمسات في البطالة والكسل وذلك شأن الشبان

أيضا حتى لقد جاء فى أمثالهم أنه (لاشئ يفلح مثل الفلاح) وذلك يشبه المثل الفرنساوى (الغاية تبرر الواسطة) وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الامم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القناطير المقنطرة فلا بد له من التكسب بعرق جبينه

استئثار الانكليز فى كل شئ

وحبهم لوطنهم ولانفسهم ولابناء جنسهم أمر لايكيف مثال ذلك أن الرجل منهم اذا كان يعرف لغة غير لغته الاصلية فلا يتكلم بها الا عند الضرورة القصوى واذا رأى منك أنك تعرف من الانكليزية مبادءها أخذ يخاطبك بها و يجتهد فى منعك من مكالمته باللغة المشتركة بينك و بينه لانها غير انكليزية وكذلك السكة فلا يتعاملون بغير العملة الاهلية مطلقا ومثلها المقابيس والمكاييل والاوزان ومع ان العقلاء منهم يعترفون بأفضلية الطريقة الاعشارية لكنهم لايزالون متمسكين بطرائقهم المتعددة المتخالفة التى ليست على أساس ثابت ومثال ذلك أنك اذا توجهت لاى مخزن وطلبت صنفا أو محصولا مما اشتهرت بعض البلاد الاجنبية بصناعته واتقانه فان رب الحانوت يجيبك بأنه موجود عنده ولكنه ينصحك نصحا مكررا بأخذ الصنف الانكليزى قائلا لك انه أجود وأفضل من جميع الوجوه

تصور الوطنية الحقة باوروبا

وهذا الموضوع يجرنى الى الاستطراد بذكر كلمة واحدة على الوطنية فى بلاد أوروبا التى أتيح لى زيارتها الى الآن وهى ايطاليا وفرنسا وانكلترا فهى التى جعلت هذه البلاد ذات سطوة عظيمة وبأس شديد فانهم ينظرون الى من يخدم الوطن باعتبار أعماله العمومية المفيدة للبلاد ويجلون ذكره على الدوام من غير أن ينظروا مطلقا الى أعماله الشخصية وأموره الداخلية ومهما كان فيها من موجبات الانتقاد فان ذلك لايمنعهم من اعتباره واحترامه ورفع صيته الى أعلى عليين ألا ترى ان (غاربالدى) الذى يهتز لاسمه قلب كل وطنى طليانى قد خدم الدولة الطليانية وأوجد وحدتها فأحله أهل بلاده المحل الاول من الاعزاز والاعظام ولم يلتفتوا الى ماتناقله بعضهم عنه من الاعمال المنكرة التى ارتكبتها زوجته الفتاة وقد اتخذها بعد ان صار طاعنا فى السن ومثال ذلك غامبتا رجل الجمهورية الفرنسوية فان قصته مع عشيقته معروفة وهى التى أطلقت عليه الرصاص فنقلته الى غير هذه الدار ومع ذلك فهو موضوع الاعجاب عند الفرنساوية يلهجون بذكره ويتمدحون بمآثره ويحتجون بأقواله ويستشهدون بأعماله وقد أقاموا له فى أعظم نقطة من باريس حيث كان قصر الامبراطور جهة ميدان الكاروسل تمثالا فخيما رفيعا اكتنب الاهلون

لاقامتــه على أفخر مثال وهــم يأتون لزيارته من كل انحاء فرنسا يضعون عليه الا كاليل والتيجان

وأما لوندره ففيها تمثال أمير البحر (الاميرال نلسن) الذى كسر الدونانمة الفرنساوية وتعقبها فى كل البحار وفاز بالانتصار فى وقائعه وخصوصا فى الجهة من الاندلس المعروفة فى كتب العرب باسم طَرَف الاغر (التى حرفها الافرنج الى ترافلجار Trafalgar وقد خبط أصحابنا المترجمون فى نقلها الى العربيــة فقالوا ترفلجار أو طرف الغار) فقــد أقاموا تمثالا فاخرا على عمود شامخ يشرف على كل مبانى لوندره ونظروا الى ما اكتسبه منه الوطن ولم يلتفتوا بأى وجه الى عــلاقاته السرية مع امرأة أخرى (كان لها بعل فيما بلغنى) حتى انه حينما أدركته الوفاة أثناء الواقعــة البحــرية فى طَرَف الاغر كان أول شئ اهتم به هو السؤال عن نتيجــة القتال فلما بلغــه ان النصر لدولته سكر بخمرة الفوز وهو فى سكرات الموت ولم يلتفت بعد ذلك لشئ سوى انه أوصى باعطاء سيفه ووشاحاته الى خليلته

ولقــد يذكرنى ذلك بالملكة كاترينة امبراطورة الروسيا فان التاريخ ينبئنا بأنها كان لها محبون معلومون ولهم مرتبات وعلوفات رسمية بهذه الصفة فى ميزانية الحكومة حتى انها لبست

الحداد رسميا بعد وفاة أحبهم اليها مدة سنتين ومع ذلك فلا يزال الروس يفتخرون بها ويمجدون ذكرها لان دولتهم فى أيامها وباجتهادها بلغت من التقدم وعلو المكانة ماجعل لها جانبا مهيبا فى أعين الدول الاخرى

فهكذا يكون حب الوطن وهكذا يكون السعى فى تشجيع الفضلاء على خدمته فان النظر الى السفاسف وتعقب الهفوات التى لايترتب عليها ضرر للامة والوطن لايكون من ورائه الا إهباط العزائم وتثبيط الهمم فتخمد القرائح النيرة وتنطفى الافكار الوقادة ويقعد المجتهدون وأصحاب الامانى عن الكد وراء المعالى ولايصيب الوطن من ذلك الا خسران رجال ربما كان له من وراء أعمالهم فائدة جليلة

ولقد ساقنى الكلام على وطنية الانكليز الى هذا الاستطراد فأسأل القراء عفوا لانى أرى نفسى وجوارحى وقلبى وفكرى تندفع بالرغم عنى الى ذكر شئ من هذا القبيل عسى أن يكون له صدى فى بلادنا فيكون من ورائه النفع العميم

احصائيات ناطقة بحسامة لوندرة

وأرجع الآن الى الكلام على لوندرة التى يتعسر على الانسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها ومن المحتمل انه لم يتفق لأحد أنه رآها كلها وان ذلك لن يتفق فى الاستقبال لما يستوجبه

المشروع من الصعوبة والاتعاب والحيرة والاضطراب فان مسطحها ٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وارباضها وقدروا أطول دائرتها ٩٠ كيلومترا وان طولها من الشرق الى الغرب ٣٥ كيلوا مترا ومن الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا وطول طرقها ١٥٠٠ ميل وطول بالوعاتها ومصارفها ٢٠٠٠ ميل وكان عدد سكانها فى أول هذا القرن أى سنة ١٨٠١ عبارة عن ٨٦٤٠٣٣ نفسا وفى سنة ١٨٢١ صاروا ١٢٢٧٥٩٠ ولما جاءت سنة ١٨٧١ بلغوا ٣٢٥٤٢٦٠ يسكنون فى ٤١٧٧٦٧ دارا وفى سنة ١٨٨١ أثبت الاحصاء الرسمى أنهم ٣٨١٤٥٧٠ بما فى ذلك الضواحى المتصلة بها تمام الاتصال ويتضح من التقرير الابتدائى عن حركة السكان فى سنة ١٨٩١ ان عددهم فى شهر ابريل من تلك السنة كان ٥٦٣٣٣٣٢ وعدد المنازل ٧٩٧٦٧٩ وعدد الاغراب المتوطنين بها ١٥٠٠٠٠ ولها وحدها فى مجلس البرلمان ٥٨ عضوا ينوبون عنها

وسائط النقل

ولكنك اذا نظرت الى ذلك الاتساع الهائل وتلك المسافات المتباعدة الشاسعة تراها معدومة وكأنها لم تكن فان المدينة قريبة الاطراف لسهولة التنقل وكثرة الوسائط من كل نوع ففيها أكثر من ١٥٠٠٠ عربة بعجلتين وحصان واحد والسائق من

خلف (واسمها هنسم وهى مثـل عربات الاوتيل كونتيننتال فى القـاهرة) أو باربع عجـلات وحصانين لركوب هـذه الخـلائق المتزاحمـة أما عربات الامنيبوس فلا تقـل عن ٢٥٠٠ عربة تسـير فى ٢٠٠ خط متمايزة عـن بعضها وقد انشأتها شركات متعددة وقد بلغ عدد الركاب فى عربات احدى هـذه الشركات (وقدرها ٨٦٠ عربة) ٦٠ مليونا من النفوس فى سنة ١٨٨٢ وفى كل عربة منها ٢٦ مقعدا ١٢ فى الداخـل و ١٤ على ظهـرها وفى أكثرها زيادة على ذلك مكانان بجانب السائق وفى ضواحى المـدينة وبعض جهاتها عربات الترامواى التى تجـرها الخيل على قضبان حديدية وهى لاربع شركات ولايمكن ادخالها فى المـدينة لكثرة الازدحام فان المقرران عربتـين تسـيران الى الامام وعربتين الى الخلف وقلما تكون جهة من الشارع خالية من الاربع عربات

وقد أحدثت سكة حديد العاصمة (التى تسير تحت الارض) عربات الامنيبوس توصـل بين المحاط و بعضها وتتميز عن عربات الامنيبوس الاخرى بان السـائق تكون فوق رأسه مظلة كبيرة عليهـا اسم الشركة ويجوز لكل انسان صادفها فى طريقـه ان يركب فيها

وفيها أيضا عربات تسمى (ماى كونش) تسير بالسواحين والمتفرجين الى بعض مدائن النزهة القريبة

وفيها شركة تتكلف بحمل الامتعة والرزم والطرود التى لايتجاوز وزنها ١٠٠ رطل الى أية جهة من جهات لوندره وضواحيها ولها أكثر من ١٢٠٠ مكتب فرعى متوزعة فى كل انحاء المدينة وثمن النقل زهيد جدا وقد تأسست شركة أخرى لنقل البالات مثل بالات الاقطان والبراميل بانواعها والبضائع الكبيرة الجسم وأهم هذه الشركات فيها ٧٠٠٠ مستخدم و ١٠٠٠٠ حصان وهنا أقول ان سائق العربات فى لوندره يفوقون فى صناعتهم جميع أمثالهم فى سائر أنحاء الارض

وهنالك أيضا شركة خيرية تألفت لمساعدة العساكر البرية والبحرية الذين قضوا مدة الخدمة فانها تكلفهم وتقوم باحتياجاتهم وتستخدمهم فى نقل الرزم والطرود الصغيرة باجرة لاتتجاوز ١٥ مليما بحسب بعد المسافة وثقل الحمل

ويوجد بها شركات لها زوارق بخارية كثيرة العدد تجرى فى نهر التيمس على الدوام لنقل هذه الجماهير المجمهرة من مكان الى مكان وهى فى البحر بمثابة عربات الامنيبوس فى البر ويجوز للراكب فيها ان ينتقل من الواحد للآخر بحسب الجهة التى

يقصدها من غير زيادة فى الاجرة وهى لاتتجاوز ١٥ ملليما وتقوم المركب كل خمس دقائق ويوجد شركات أخرى لها بواخر تسير بين لونده والجهات التى على نهر التيمس وتقوم كل ربع ساعة وكل نصف ساعة (ماعدا أيام الشتاء) وفوق ذلك على النهر مراكب كثيرة بالقلوع والمقاذيف يؤجرها الناس للفسحة على الماء أو للتنقل من جهة الى أخرى ويوجد مراكب بحارية انشأتها بعض الشركات للسفر من لونده الى جميع موانى انكلترا واسكتلندة وارلندة بل ولفرنسا والجهات الاخرى من قارة أوروبا هذا بصرف النظر عن المراكب البحارية التجارية الكبيرة التى تمخر فى جميع البحار

وفى لوندرة أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل واحدة منها (حتى التى تحت الارض) أكثر من محطة مصر القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا ومنها مايساوى محطة مصر والاسكندرية وطنطا ثلاث مرات فى ثلاث مرات وقد يمر فى بعضها (مثل محطة كلابهام) أكثر من ١٤٠٠ قطار من غير احتساب قطارات البضاعة (وأنت ترى من هنا كم ينبغى أن يكون مقدارها فى بلدة تجارية صناعية مثل لونده)

وفى سنة ١٨٨١ نقلت سكة حديد العاصمة وكانها تحت

الارض ١١٠ مليون من الركاب بالتمام وقد ازداد هـذا العدد الآن زيادة كلية

وصف القطارات بلوندرة

ثم ان القطارات كثيرة جدا وسريعة للغاية والعربات مفروشة بكل عناية واتقان حتى ان عربات الدرجة الثالثـة هى أحسن بكثير من عربات الدرجة الثانية عندنا ولا يمكن ان يمر على الانسان لحظـة واحدة وهو فى القطر من غـير أن يرى قطرين أو ثلاثة تحت اقدامه ومثلها بجانبـه ومثلها فوقه بقليـل ومثلها يجرى على القناطر والجسور ومثلها بحـذائه ذات اليمـين ومثلها الى جانب اليسار وهكذا مما يحدث الخبال وذلك كله نتيجة المزاحمة وثمرة المناظرة فان الذى يريد أن يتوجـه من لوندرة الى مانشستر مثلا يجد أمامه خمسـة طرق مختلفة فى يد شركات مختلفة وكل واحدة منها تجتهد فى ان تضمن للمسافر من المزايا والفوائد والتسهيلات ما يجعـله يقبـل عليها دون سواهـا حتى ان الطوالات الخشب المستعملة فى الدرجة الثالثة أصبحت لا وجود لها بالكلية وقد تكون عربات الدرجـة الثالثـة فى قطرات الاكسبريس كما ان بعض القطرات لا توجد فيها إلا الثانية وفى بعضها (وهى السريعة) لا ترى الا الاولى

ولا يمكن أن يمضى على الانسان اذا وقف فى مكانه ثـلاث

دقائق من غير أن يمر عليه مايريده من عربات الامنيبوس أو القطرات أوالزوارق البخارية أوغير ذلك فأصبحت المسافة فى هذا البلد الطويل العريض معدومة والابعاد متقاربة لسرعة وسائط النقل وكثرتها وسهولتها وتيسرها

وخلاصة القول ان تعدد الشركات ومنافستها لبعضها التنافس الممدوح يجعل الانسان مهما قلب ناظره فى أية جهة من جهات المدينة على وجه الارض أو تحت الارض أو فى الجو فوق أسطحة المنازل يرى عددا هائلا من القطرات البخارية منها مايرفع عقيرته الى عنان السماء ومنها مايكتم نفسه فى جوف الارض ويكتفى بالانين

تشخيص حركة لوندرة

ومن تأمل فى حركة هذه القطرات التى لاينقطع دويها كلها مركبة من ٢٠ أو ٣٠ عربة كبيرة وكلها مشحونة ببنى آدم ثم نظر الى الزوارق البخارية والى سواريها التى تجعل النهر كغابة بالغة فى الاتساع ثم نظر الى عربات الامنيبوس وهى تجد فى السير وليس بها مقعد خال ثم نظر الى حركة الشوارع ومافيها من المركبات المختلفة المقادير والاحجام والاشكال والانواع وكلها غاصة بالناس وبالبضائع ثم نظر الى جانبى الطريق ورأى الاقوام تمور وتموج كالسيل المنهمر الذى لايصده عائق فلا

شك أن يعتريه اضطراب واندهاش وتأخذه الحيرة والاختبال
ويحكم بان هذه المدينة كقرية النمل وليس لها من هذا
القبيل نظير فى العالم بأسره على الاطلاق والذى يزيد فى الاعجاب
والاستغراب انه لايسمع صوتا ولاصياحا ولاضجة ولااعتراكا بنسبة
جزء من ألف جزء من هذه الحركة بل كل انسان صامت أوهامس
مقبل على شؤنه مكد فى الذهاب الى مقصده وكل شئ يجرى فيها
كالساعة المنتظمة ذات الآلات الكثيرة والغايات المتنوعة حتى
ان الغريب ليحكم بانه بين قوم لايسمعون ولا يتكلمون

سكة حديد العاصمه

ولا أنتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر شيأ يسيرا عن سكة حديد
العاصمة فانها عبارة عن طريقين أولهما يدور حول السى City
(أعنى المدينة مثل السكرية والغورية وما حواليهما من الجهات
فانها معروفة فى مصر القاهرة باسم المدينة أيضا) والثانى
حول البلد كلها وهما متصلان ببعضها فى كثير من النقط
وقد بلغت نفقات الميل الواحد فيما بلغنى ثلاثة ملايين من
الجنيهات لان الشركة التزمت بدفع قيمة الاراضى والمنازل وحفر
الارض و بنيان القباب والعقود وغير ذلك مما يوجب صرف
المبالغ الجسيمة وبما ان القطرات فى هذه الطرق تسير تحت
الارض الا عند دخولها فى المحاط (فانها كانها مكشوفة الى السماء)

فقد رأى مهندسوا الشركة أن يصنعوا الآلات البخارية محتوية على مزيتين مفيدتين جدا لمقتضى الحال فأولاهما ان الآلة مجهزة بحيث أنها تحرق الدخان المتصاعد منها فلا يكون له أدنى تأثير وثانيتهما انها تصطنع من الفحم الذى تحرقه زيت الحجر (الغاز أو البترول) اللازم لاضاءة كافة العربات على الدوام والاستمرار

ثم ان القطار يدخل المحطة وهو فى منتهى السرعة ويقف مرة واحدة فيحصل ارتجاج خفيف جدا لا يكاد يشعر به الانسان والسبب فى ذلك انهم وضعوا فى ثلاث جهات من الرصيف ثلاثة ألواح كبيرة لتوفير الوقت ومكتوب عليها ما معناه (انتظر هنا للدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة) فيقف ركاب الدرجة الاولى فى المكان المعين وركاب الدرجة الثانية فى المحل المخصص لهم ومثلهما أصحاب الدرجة الثالثة ثم ان العربات فى القطر مرتبة وراء بعضها بحسب الترتيب المعين فى رصيف المحطة فمتى جاء الوابور وقف فى المكان المناسب فلا يكون على المسافرين الآن يدخلوا العربات من غير تعب ولا سؤال بل بتحريك القدم خطوة أو خطوتين بالاكثر وذلك لمنع الاختلاط فان القطار لا يقف أكثر من بعض ثوان وتجد على باب العربات من الداخل عبارة هذه

ترجمتها (انتظروا حتى يقف القطر) ولكنى أرى من الواجب على المسافر ان يشرع فى النزول بمجرد وقوف القطر لان أقل تأخير يترتب عليه ان يساق الى المحطة الثانية ثم يرجع مع قطر آخر الى المحطة المقصودة من غير أن يلتزم بدفع أجرة تكميلية بشرط أن لايظهر على وجه الارض بل يستمر على رصيف المحطة وهذا أمر ينبغى تنبه الغريب اليه فان كثرة الاعلانات فى المحطة تمنعه ولاشك من أن يعرف اسمها فالاجدر به والحالة هذه أن يسأل قبل النزول فى القطر عن عدد المحاط التى سيكون الوقوف فيها قبل الوصول الى المحطة اللازمة أو أن يجتهد فى قراءة اسم المحطة على فوانيسها ودكاك الانتظار فانهما المحلان الوحيدان الباقيان للآن فى حرز وأمان من هجمات أصحاب الاعلان

وكل انسان يركب فى القطر يجوز له أن يؤمن على حياته ونفسه من العوارض والاخطار التى ربما تطرأ فى أثناء السفر ففى حالة الوفاة تدفع الشركة ألف جنيه انكليزى لورثة المسافر فى الدرجة الاولى الذى يكون قد أمن على حياته بدفع مبلغ يوازى ١٢ مليما زيادة على ثمن التذكرة وتدفع مبلغ ٣٠٠ جنيه لورثة المسافر فى الدرجة الثانية الذى يدفع ٨ مليمات زيادة على ثمن التذكرة ومبلغ ٢٠٠ جنيه للمسافر فى الدرجة الثالثة الذى يدفع ٤

مليمات زيادة على ثمن التذكرة فاذا كان العارض غير الوفاة التزمت الشركة بالتعويض بمبلغ نسبي بحسب شدة العارض وخفته وفى هذا المقام أذكر مارواه بعضهم من أن رجلا من الانكليز كان يركب على الدوام فى الدرجة الاولى ولا ينسى مطلقا التأمين على حياته وفى كل مرة وصل المحطة بالسلامة أخذ فى اللعن والشتيمة والسباب لعدم وقوع ما كان ينتظره لعائلته من الثروة واليسار وحقيقة فان الاخطار قليلة بل نادرة بل لاتكاد تذكر وقد كان انشاء هذا الخط فى سنة ١٨٦١ وله أكثر من ٣٠ محطة وقد يمتد الى بعض ضواحى لوندره (ويكون حينئذ على وجه الارض) وقد يسير تحت نهر التيمس فى انبوبة من الحديد وفى كل خمس دقائق يقوم قطار وذلك من الساعة ستة صباحا الى نصف الليل (ولكن القطر يقوم قبل الساعة ٨ صباحا وبعد الساعة ٨ مساء فى كل ربع ساعة وثمن التذاكر طفيف جدا فلا يزيد على خمسة قروش صاغ)

وأقول بهذه المناسبة ان تسجيل المتاع ليس من أصول السكة الحديدية فى بلاد الانكليز على العموم (لا كما فى ايطاليا اواه منها اواه) بل ان المستخدمين يستغربون من الذى يطلب ذلك منهم لان القاعدة العامة (وقد يكون لها استثناء لا أعرفه الآن) ان

الانسان يكتب اسمه واسم المحطة على متاعه ثم يباشر وضعه على عربة صغيرة فى الرصيف ثم فى العربة المعروفة (باسم عربة العفش) ومتى وصل الى المحطة نزل وتوجه الى المستخدم وأعلمه عن متاعه فيسلمه فى الحال من غير أدنى تعب ولا اختلاط ونزاع أو عطل أو مماطلة

وعندى كلام كثير على السكك الحديدية وكثرتها وتقدمها فى بلاد الانكليز ولكن لايسمح لى المقام بايراده الآن وانما لايسعنى ان أخفى اعجابى بها من كل الوجوه حتى ان الانسان لايتصور كيف أنها لاتنقل هذه البلاد وخصوصا لوندره الى اية جهة من أقطار المعمورة

شركات الاستدعاء بالكهرباء

ومن أغرب الشركات التى فى هذه المدينة شركتان ليس لهما من عمل سوى الاستدعاء بالكهرباء وذلك ان لكل منهما مشتركين فى جميع جهات المدينة وكافة انحائها ومنازلهم متصلة بسلك كهربائى بالمكتب الموجودة فى دائرته ويكون فى المنزل شبه مزولة عليها ازرار الاول للساعى والثانى للطبيب والثالث للعربة والرابع للاستغاثة من الحريق والخامس للاستغاثة بالبوليس فاذا ضغط المشترك على أحد هذه الازرار عرفت الشركة مطلوبه فتبعث له فى الحال ساعيا أو طبيبا (واذا كان له طبيب مخصوص يكون

عنوانه معلوما عندها فتخبره بالطلب) أو عربة للركوب أو طلمبات الحريق أو رجالا بواسطة ادارة البوليس لامداده بالقوة اللازمة وهاتان الشركتان مستعدتان أيضا لخدمة غير المشتركين بهما فيجوز لهم ارسال طرودهم وأمتعتهم بواسطة سعاتها فى نظير أجرة لاتزيد عن ١٢ مليما فى الساعة وفوائد هذه الشركات ظاهرة خصوصا فى المدن الكبيرة

شركة حماية الحيوانات

وهذا الحديث على الشركات يسوقنى الى ذكر شيء وجيز عن شركة حماية الحيوانات وان كان اسمها معروفا فى مصر فانها من أغرب الشركات وأفيدها وهذه الشركة تحت حماية البرنس دوغال ولى العهد وقد كان لها تأثير عظيم فى هذه البلاد بحيث انك لاترى القوم حتى الذين من الطبقة الدنيئة يتجاسرون بأى حال ولاى سبب على اهانة الحيوان الاعجم واساءته ولها عمال كثيرون ومن أعضائها جم غفير من أصحاب الوجاهة والنفوذ وكل من أقدم على هذا العمل المنكر حكم عليه بالاشغال الشاقة من ستة شهور الى سنة كاملة وكثيرا ماركبت فى عربات متعددة ولا أتذكر أن السائق رفع السوط على الحصان أكثر من مرتين بكل خفة وكثيرا ماقطعت المسافات الطويلة من غير أن يلمس السوط جسد الحصان على الاطلاق ومثل هذه الشركة لازوم

لها فى بلادنا اذا راعينا الاحكام الشرعية المفروضة كما هو الواجب علينا

شركات قاعات المطالعة والكتبخانات

وقد رأيت فى البلاد الافرنكية التى مررت بها قاعات المطالعة ولكنها فى لوندره قليلة وليس للحكومة يد فيها البتة بل قد أنشأتها شركات تجارية متنوعة أو خاصة بطبع الكتب ونشرها وقد أسست بعض الشركات كتبخانات ترسل الكتب اللازمة الى منازل المشتركين فلا تكلفهم التوجه الى مركزها لانتقاء الكتب التى يرغبون مطالعتها فى منازلهم وقيمة الاشتراك من جنيه واحد الى خمسة الى ستة فى السنة

شركات التوريد

وفى هذه المدينة غير ذلك من الشركات التى لا تدخل تحت حصر ولو أردت أن أذكر كلمة على كل واحدة أو أكتفى بمجرد الاشارة الى اسمها لاتسع المجال بما يوجب الملال مهما كان اصطبار القارئ ومجاملته للكاتب ولكنى أقول انى رأيت فيها كثيرا من شركات التوريد التى تتعهد للمشترك بجميع مايطلبه من الاصناف والمحصولات اللازمة له ولعائلته ولمنزله بابخس الاثمان ومن أجود الاصناف

النوادى وغرابة تنوعها

ثم أنتقل الى الكلام على النوادى (المعروفة بالكلوب) فانها كثيرة جدا وأهمها نحو المائة وكلها فى قصور فخيمة شامخة

باذخة بالغة النهاية فى الزخرفة والاتساع والاتقان والاحتواء على كل مايطلبه الانسان من مأكول ومشروب وجرائد وكتب وغير ذلك مما يلزم للفكاهة وتمضية الوقت فى نعيم وسرور وكل شئ فيها من أجود نوعه وبثمن المقطوعية (الذى يساويه فقط) وهى معدة لاجتماع الاصحاب والاصدقاء الذين من صنف واحد وأذواق متشابهة وعددها بالنسبة الى لوندرة أكثر منه فى أية عاصمة أخرى من عواصم أوروبا ولا يقبل العضو فيها الا بعد اقتراع سرى دقيق جدا ورسم الدخول من خمسة جنيهات الى أربعين (والغالب ٢٥) والرسوم السنوية من ثلاث جنيهات الى خمسة عشر هذا عدا ثمن المأكولات والمشروبات وفى بعضها يجوز للعضو أن يستضيف بعض خلانه ومنها ماهو للرجال والنساء ومنها ماهو للنساء خاصة أو للعلماء أو لحزب المحافظين أو لحزب الاحرار أو للهند الشرقية أو للضباط البرية والبحرية العاملين أو للضباط المتقاعدين أو للمستعمرات أو لتحسين نوع الكلاب أو لمدرسة اكسفورد الجامعة أو لمدرسة كمبريدج الجامعة (ولا يقبل فيهما الا المتخرج منهما) أو لالعاب الكرة أو لرجال السياسة أو للسياحة (ولا يدخل فيها الا من ساح الى مسافة ٥٠٠ ميل عن لوندره) أو الرجال لآداب ومن أغرب نواديها ذلك المعروف

باسم النادى المتوحش وفيه كثير من أرباب الجرائد والآداب والفنون والتشخيص ومن أعضائه البرنس دوغال ورسم الدخول فيه ٨ جنيهات والرسوم السنوية ثلاثة جنيهات ولأغلب المدارس نوادى خاصة بتلامذتها الحاليين والسابقين وقد يزيد أعضاء بعض النوادى عن ٧٠٠٠

وكل جمعية وكل شركة وكل ناد يولم فى السنة وليمة فاخرة وأهم هذه الولائم وليمة جمعية التصوير ويجتمع فيها أكابر أرباب العلم والسياسة والرياسة والجيش والبحرية وأعضاء البرلمان والاساقفة والافوكاتية والبرنس دوغال واخوته وكل من اشتهر فى فن أو عمل وقيمة النفقات فى هذه الوليمة تبلغ من ٤ جنيهات الى ٨ جنيهات عن كل واحد من المدعوين

مطاعم لوندرة

وفى هذه المدينة أكثر من سبعة آلاف مطعم (لوكاندد) والخدمة فيها كلها منتظمة جدا ولو ان أماكنها فى الغالب ليست بالغة فى الزخرفة مثل نظائرها فى أوروبا وكثير من هذه المطاعم على مذهب الهنود فلا تجد فيها سوى الخضارات وماتنبته الارض وأما اللحوم فلا توجد فيها البتة لانها محرمة

وفيها نحو ألف قهوة وكلها على الطرز الانكليزى أى ان الانسان يمكنه أن يتناول الطعام فيها بثمن بخس ولكنه اذا طلب

شيأ من المشروب وجب عليه دفع الثمن مقدما للخادم لكى يستحضره له من الخارج (وكذلك الحال فى بعض الفنادق وفى كثير من المطاعم) لان هذه الاماكن ليس لها رخصة فى بيع المشروبات ثم ان القهوة عبارة عن قاعة ضيقة تنقسم الى طوالات من الخشب منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ومثبتة فى الحائط والارض مثل عربات الدرجة الثانية فى السكة الحديدية فيأكل الانسان فيها وهو بمعزل عن جاره وفيها تجد دواما القهوة والشاى والشكولاته والكاكاو والبيض والجبن

أماكن الاجتماع العموميه

أما القهاوى الكبيرة التى من جهة المدينة (الستى) فهى أشبه ببورص يجتمع فيها التجار والنواخذة (مجهز والسفن Armateurs) وأصحاب الضمان من الحريق والغرق وسائر الطوارق والعوارض والسماسرة وأمثالهم فيتعاقدون فيها ويتبايعون

وفيها بعض محلات يسمونها دواوين السجاير تشبه القهاوى التى فى أوروبا ويكون بعضها عبارة عن قاعة كبيرة فيها نجف وثريات وألواح فيها صور ورسوم وعند الدخول يدفع الانسان شلنا واحدا (٥ صاغ) ويكون له حق فى سجارة أفرنكية وفنجان قهوة وقراءة أهم الجرائد المطبوعة فى انكلتره وفى أوروبا وقد أنشا

بعض الفرنساويين والطليانيين قهاوى على الطراز الاوروباوى (المتعارف فى مصر) ولكن هذين الصنفين من الاماكن العمومية لايجوز لهما بل ولايمكنهما وضع الموائد أو الكراسى على برازيق الطريق ﴿البرزوق فى اللغة العربية يقابل كلمة التروتوار الفرنساوية Trottoir الشائعة الآن راجع شرح القاموس ولسان العرب فى ترجمة ب رزق تجد ان معناه القسم من الطريق العام المخصص على جانبيه للسائرين على الاقدام وأما كلمة افريز التى استعملت تحاشيا من كلمة تروتوار (أوتل توار بحسب نطق العوام) فهى فى غير موضعها لانها فارسية معربة ومعناها فى كتب اللغة الجزء البارز من أطراف أعالى البناء فيقابلها لفظ كرنيش المعرب عن الفرنساوية﴾ ومتى سار الانسان على برازيق الطريق رأى فيما بين الحوانيت كثيرا من مخازن الدخان فانها فى لوندرة فوق العدد والاحصاء

الحمامات — وقد رأيت كثيرا من الحمامات فيها الماء الملح الاجاج أم العذب الفرات باردا أو مسخنا على درجات مختلفة وفيها حمامات على الطرز التركى المتعارف فى مصر وقد صار للانكليز الآن بها ولع وغرام وان لم يكن القائمون بالخدمة فيها على شئ من مهارة أهل

بلادنا وفى بعض الحمامات لاتزيد الاجرة عن ١٢ مليما ومع ذلك فان الشركات القائمة بادارتها تربح ارباحا وافرة

التياترات والملاهى

وفيها تياترات كثيرة واشهرها ثلاثة وثلاثون وفيها عدد عظيم من الملاهى وقهاوى الغناء والموسيقى وأماكن عرض الصور والبهلوان وغير ذلك مما يكون فيه تشخيص الروايات أيضا

جرائدها ودياناتها

وفيها وحدها أكثر من ٤٠٠ جريدة منها ٥٠ للديانة على سائر مذاهبها فان الشيع الدينية فى بلاد انكلتره كثيرة متنوعة جدا وهم يحترمون كل الاديان وكافة الاعتقادات حتى انه يصح ان يقال ان كل انكليزى يعبد الله بحسب هواه وقد بلغ عدد الديانات والمذاهب فى بلادهم أكثر من ١٨٣ وكل واحدة من هذه الشيع تدعى بالطبع انها هى التى فازت باكتشاف الحقيقة وهى تتناظر مثل مناظرة الشركات التجارية ومع ذلك ففى كل يوم تظهر شيعة جديدة وأبغض المذاهب الى هذه الأمة هو المذهب الكاثوليكى الرسولى الرومانى ويكرهون البابا كراهة التحريم وهذا التعصب المطلق بجانب ذلك التساهل المطلق هو أيضا من باب التناقض المطلق

الكويكرز

وافكارهم واعتقاداتهم وآراؤهم ومقالاتهم فى نهاية الغرابة ولايسمح لى المقام الآن ببيان شئ منها ومع ذلك أقول ان منهم طائفة تسمى الكويكرز (Quakers) لايركعون الا لله العلى المتعالى ولا يرفعون قبعتهم لاحد ما (كما هى عادة الافرنج)

ويخاطبون الناس قاطبة بالكاف (أى لا يعظمون المفرد باستعمال الجمع كما هى العادة فى أوروبا فلا يقولون حضرتكم أو أنتم أوما أشبه ذلك بل قلت لك انك فعلت كيت وكيت ... الخ وهذا النوع من التعبير يسمى عند (العرب المخاطبة بالكاف) وعند الفرنساويين (Tutoyer) ولا يحلفون أبدا حتى امام المحاكم ويمتنعون من الدخول فى سلك العسكرية لانهم يعتبرون الحرب محرمة وجناية حتى ان جون بريط السياسى الانكليزى المشهور استعفى من وزارة غلادستون فى سنة ١٨٨٢ بسبب الحرب التى وقعت بين انكلتره وأهل الثورة العرابية فى مصر ولهم غير ذلك من الاطوار والاخلاق

تبويذ الانكليز

وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندرة بقصد تبويذ الانكليز (اذا صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه) وبلغنى ان لهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية فى خط ويت شابل (White Chapel) المعمور بالوف من الخلائق وعلمت ان أعمالهم سائرة فى طريق التقدم وان بعضا من رجال البوليس الانكليزيين قد دخلوا فى زمرتهم

الاستراحة يوم الاحد بانكلترة

وبمناسبة الديانة والكلام عليها أقول الآن ان أمة الانكليز انفردت عن سائر سكان الارض بمراعاة الراحة المطلقة فى يوم الاحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الاعمال مرة واحدة ويستعدون لذلك من ابتداء عصارى السبت فترى الخلائق تتناقص والازدحام يقل شيأ فشيأ والمخازن تغلق والنواقيس تدق ومتى جن الليل عادت الحركة الى منتهاها ورجع الاضطراب الى اقصاه لكن فى الاسواق فقط اذ يتوجه القوم اليها من كل صوب لاخذ المؤنة والذخيرة اللازمة لذلك اليوم الذى يقف فيه دولاب الاعمال وينقطع الاخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس ومتى أصبح الصباح رأيت المدينة قفرا بلقعا ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منثور فى شوارعها واما المخازن والابواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها بالكلية واما القهاوى واللوكاندات فتفتح فى مواقيت الفراغ من الصلاة فقط أى من الساعة الاولى الى الساعة الثالثة بعد الظهر ومن الساعة السادسة بعده الى ماقبل نصف الليل بساعة ولكن الاغرب من ذلك كله ان البوستة مع أهميتها تتعطل حركتها فلا تباشر أى عمل ما ولا توزع الخطابات الواردة اليها

ولا ترسل المكاتيب الصادرة الى الخارج ومثلها التلغراف فان اسلاكه تستريح أيضا فى هذا اليوم يوم الراحة العامة إلا فى بعض المحطات الكبيرة جدا وكذلك الكمرك فانه يحجز البضائع وامتعة المسافرين الذين يقدمون الى هذه البلاد فى هذا اليوم المشؤم فانه حقيقة يوم الحسرة على الغريب يضطره للاعتكاف فى منزله وتضييع يوم من حياته بلا ثمرة ولا عمل والسكة الحديدية لا تمشى القطارات عليها اثناء القداس وفى غير هذا الوقت تقل حركتها الى الربع أو أقل وترى فى جداول مواقيت السفر خانة عمومية لايام الاسبوع وخانة خصوصية للقطارات القليلة التى تقوم فى يوم الاحد وتلك المحاط التى كانت بالامس عامرة آهلة بالخلائق تصبح وهى ساكنة مطمئنة ويكون منظرها مع عظمتها واتساعها مشوبا بشئ من الايحاش يجعلها أشبه بقبر هائل وخلاصة القول ان المدينة كلها ينقطع منها الحس وتبارحها الحياة فكأنها سراج قد خبا نوره فجأة ولا يتصور المرء انه مازال فى تلك المدينة المتماوجة بهذه المخلوقات بل يخطر على باله انه دخل بلدا جاءها النذير بقرب جيش هاجم عليها فولى أهلها الادبار وتركوا الديار ومافى الديار ملتجئين الى الخلوات والقفار وابقوا بعضا من الرجال يراقب حركات العدو ويعلمهم باعماله حتى اذا أقبل المساء

ابتدأت الحياة تدب فى هذه الآلة العظيمة المعروفة بلوندرة فترى بعض الناس يبتدؤن فى الجولان ومتى قابل الواحد منهم صاحبه (من الرجال والنساء) سأله هل كنت فى الكنيسة فيجيبه بالايجاب أو يعتذر بعذر قوى مقبول ولاجل ذلك ينبغى للغريب ان يغتنم فرصة الاحد فى التوجه الى الكنيسة فى الصباح ثم يخرج الى أرباض البلد لاستنشاق الهواء الصحيح فانه يكون محتاجا اليه لقلته فى لوندرة بسبب الدخان ولكنى اشير عليه بأن يرجع فى عصارى النهار و يطوف بعض الشوارع ويمر ببعض الحدائق مثل هايدپارك وغيره فانه يرى فيها كثيرا من الخطباء وأغلبهم من الشغالة واقفين يخطبون فى أى موضوع يدور فى أدمغتهم مثل الفوضى والاشتراكية والديانة بسائر أجزائها عندهم وترى الرجل منهم يخطب وحواليه جماهير كتلا كتلا كأنهم على ذى جنة وهو لا يقول لهم افرنقعوا بل كلما زاد عددهم رفع عقيرته مشيرا الى اليمين والى الشمال والاغرب من ذلك ان بعضهم يقف يتكلم بصوت مرتفع ويشير بيديه مع انه وحده وليس حوله من يستمع له ولكنه يوالى الكلام كأنه محاط بالاقوام ويستمر بالايماء الى من يفرض وجودهم ذات اليمين وذات الشمال ومنهم من يجئ فى ركب جليل بالموسيقى والاغانى والاناشيد وغير ذلك من

الخطباء فى هايدپارك وغيره

المقدمات التى تصطاد العامة وتجذبهم الى حضور مقالتـه ومنهم من يطوفون فى الشوارع بالالحان والانغام والرايات والاعلام وبالاختصار ان كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف فى أى مكان ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أولا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على احراق دور الاغنياء وسلب المخازن الكبيرة وما أشبه ذلك فان حرية المقال فى هذه البلاد

التناقض بانكلترة

وصلت الى ماهو فوق منتهاها وفى يوم الاحد يكثر السكر والسرقة أيضا لان الانكليز لايعرفون الوسط فان بلادهم بلاد التناقض جمعت الاطراف فاما التناهى فى الغنى واما التناهى فى الفقر واما التناهى فى الفضيلة والعفاف واما التناهى فى الرذيلة والفجور واما التناهى فى العمل واما التناهى فى الكسل الى غير ذلك من الاطراف حتى ان المدينة اما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الاحد) وهكذا

لاتكلم من لاتعرفه بلوندره

ولكثرة اللصوص وتفننهم فيها ينبغى بل يجب على الانسان أن لايكلم أحدا لايعرفه وان يجتنب كل من يعرض عليه خدمته وارشاداته أو يبادره بالكلام واذا احتاج لاى أمر من الامور فلا يسأل الا رجال البوليس فانهم يبادرون بالاجابة بحذق وفطانة

أو يدخل فى بعض المخازن ويستعلم فيها عما يريد وقد اعتاد الانكليز أنفسهم على ذلك فاذا اتفق لك انك كلمت واحدا منهم فان كان من أصحاب الادب وأهل المجاملة أجابك بنعم أولا من غير زيادة وكثيرا مايعرض عن الاجابة ويلازم الصمت ويستمر فى طريقه من غير ان يلتفت اليك بالمرة وان كان شرسا اعطاك درسا أو قلع لك ضرسا

عموميات على البريد

هذا وأينما سار الانسان فى شوارع لوندرة رأى حوانيت عليها صناديق للبوستة وفى كل صندوق فتحتان كبيرتان احداهما لوضع المراسلات الخاصة بالمدينة نفسها والثانية للمراسلات التى برسم أقاليم انكلتره والبلاد الاجنبية وفى بعض الشوارع المتباعدة عن هذه الحوانيت ترى على برازيق الطريق اسطوانات كثيرة من الحديد الملوّن بالبوية الحمراء معدة لوضع المراسلات فيها حتى لايلتزم الانسان بالتوجه الى المكتب القريب منه وثمن تذكرة البوستة للمملكة البريطانية نصف بنس (أى ٢ مليم) وللخارج بنس واحد (أربعة مليم) وعدد مرات التوزيع فى اليوم اثنتا عشرة مرة فى كل يوم واحدى عشرة فى المواضع التى حول دار البوستة المركزية على مسافة ثلاثة أميال ويبتدئ التوزيع

من الساعة ٧ ونصف أفرنكى صباحا وفى بعض الجهات يكون ارسال المكاتبات بالتلغراف فى قناة يفرغون منها الهواء وعلامة ساعى البوستة أن يدق على الباب دقتين عنيفتين وفيما عدا الجهات المحيطة بدار البوستة يكون التوزيع ست مرات فى اليوم الواحد ويجوز إرجاع طوابع البوستة الى مكاتبها فتخصم من قيمتها ٢ ونصف فى المائة فى نظير العمولة والاصدار واعلم أنه يوجد بهذه المدينة شوارع كثيرة لها اسم واحد وقد يبلغ عددها ١٠ أو ١٥ فلاجل منع الاختلاط الذى يتأتى حصوله بهذا السبب قسمت ادارة البوستة المدينة الى ثمانية أقسام باعتبار الجهات الاربع الاصلية والجهات الاربع الفرعية ووضعت حرفا أوحرفين (ج ش أى جنوب شرقى مثلا) للتمييز بينهما بالسهولة حتى لايحصل عائق أوغلط فى التوزيع ولذلك ينبغى لكل من يراسل أحدا من أهل لوندره النازلين بها أن يضع هذه الحروف الصغيرة بعد ذكر اسم الشارع والمدينة لسهولة التسليم وعدم التعطيل

عموميات على التلغراف

أما التلغراف فكان قبل سنة ١٨٧١ لثلاثين شركة ثم أخذته الحكومة وجعلته تابعا لمصلحة البوستة ومع أن أقل أجرة لارسال أى تلغراف من لوندرة واليها هى أعلى مما فى بلادنا لانها هنا ست بنسات (أى خمسة قروش من العملة الدارجة) وهى فى

بلادنا قرشان فقط بالعملة الصاغ ولكن القوم يستخدمونه بكثرة لايتصورها العقل لانهم يفضلون خسارة القليل من المال واكتساب الوقت ومع ذلك فأعمال البوستة أيضا مازالت رائجة واذا دفع الانسان أجرة رد التلغراف وفات الوقت المقرر للاجابة أمكنه استرجاع مادفعه لهذا الغرض فى ظرف ثلاثة أيام من تاريخ الارسال ويجوز إرسال الرسالة البرقية الى جملة أشخاص مقيمين فى قسم واحد بشرط أن يدفع المرسل ٨ مليمات على كل نسخة غير النسخة الاصلية ويجوز أيضا إرسالها الى أشخاص مقيمين فى جهات مختلفة بعد دفع نصف الاجرة العادية على كل نسخة خلاف النسخة الاصلية وهذه التسهيلات المفيدة للمصلحة وللجمهور غير موجودة فى بلادنا

عموميات على التلفون

وبمناسبة التلغراف أذكر أنه يوجد بين باريز ولوندره سلك تلفونى وأجرة التكلم فيه لاى فرد من أفراد الناس مدة ثلاث دقائق ٨ شلنات (٤٠ قرشا صاغا) أما التلفون الخاص فى لوندره وحدها فهو فى يد جملة شركات

المدارس

ولا يسعنى الآن أن أوجل الكلام على التعليم والمستشفيات وأكتفى بأن أقول ان المدارس فى هذه البلاد تعتنى عناية عظيمة بتربية الجسد والعقل لان العقل السليم لايكون الا فى الجسد السليم

ومن جملة المدارس التى زرتها مدرسة ايزلوورث المعروفة باسم (نيو برورود كوليج) فرأيت النظام فيها بالغا حده وناظرها المسيو بارنت (Barnett) على غاية الظرف واللطف وحسن المعاملة ودماثة الاخلاق وعلمت منه وتحققت بنفسى ان تلامذتنا المصريين فيها بلغوا من التقدم والنجاح درجة يغبطون عليها وأنا متأكد من الآن أنهم سيخدمون الوطن خدمة جليلة عند رجوعهم اليه بما اكتسبوه من المعارف والآداب ويسرنى بل يجب على أن أورد أسماءهم فى هذا المقام وهم حضرات الافندية أحمد براده ومحمود يوسف ومحمود قاسم

وقد أصدرت نظارة المعارف العمومية أمرها الى وطنينا المجتهد الفاضل حسن أفندى توفيق الذى كان فى برلين بالتوجه الى لوندره لتعلم اللغة الانكليزية وغيرها بهذه المدرسة وقد رأيته وعلمت منه بكل ارتياح وانشراح أنه ألف كتابا فى التاريخ العام وأنه بعد أن يتمه قريبا يشرع فى تدوين ما استفاده من أنواع العرفان ووقف عليه من شتات الفوائد التى تنفع ابناء بلاده ولعمر الحق ان هذه النتائج مما يسر مصر وكل محب لها ولاهلها وأقول مثل ذلك أيضا عن حضرات الافندية التلامذة على عمر وأحمد فهمى ومحمود اسمعيل الموجودين بمدرسة

هومرتن فانى توسمت فيهم النجابة والفطانة وتفرست انهم عند عودتهم الى وطنهم بعد زمن قريب سيبرهنون على أنهم لم يضيعوا اوقاتهم سدى بل اكتسبوا من العلوم مايجعلهم هم واخوانهم ان شاء الله وساعدتهم العناية فى مقدمة العاملين على اتحاف أبناء بلادهم بما يفيدهم فى ميدان العرفان (وان غد الناظره قريب) وسأشرح لك الكلام فى الرحلة على التعليم وطرقه وقرب الوصول الى ثمراته فى بلاد الانكليز وعلى مدرسة اكسفورد الجامعة بنوع خصوصى لانى زرتها بالتفصيل وأكتفى الآن بايراد بعض المرتبات التى للاساتذة لتعلم ان مرتبات أمثالهم فى بلادنا أقل مما يكتسبه الواحد منهم فى يوم أو بعض يوم مثال ذلك أن المدرسة الجامعة فى اسكتلندة تدفع لمدرس الكيمياء ٨٠ ألف فرنك فى السنة أى ثلاثة آلاف ومائتى جنيه أى مائتين وستة وستين جنيها وثلثى جنيه فى الشهر الواحد ولمدرس التشريح ٧٥٠٠٠ فرنك ولمدرس الطب ٦٥٠٠٠ فرنك ولكل من مدرس التاريخ الطبيعى والباثولوجيا ٢٠٠٠٠ فرنك ومدرس النباتات مرتبه السنوى ٥٥٠٠٠ فرنك ويوجد فى المدرسة الجامعة بمدينة جلاسكو مدرس للتشريح ومرتبه ٥٥٠٠٠ فرنك فى السنة وأما المدرسة الجامعة باكسفورد ففيها ٤٢٤ مدرسا

مجموع مرتبهم السنوى أربعة ملايين من الفرنكات أى متوسط الواحد منهم ٩٥٠٠ فرنك وفى المدرسة الجامعة بكمبريدج ٤٨٣ ومجموع مرتبهم السنوى ٣٣٠٠٠٠٠ فرنك وفى دبلين عاصمة ارلندة مدرسة اسمها الترينتى (أى التثليث) وفيها ٥٩ مدرسا مرتبهم ٨٠٠٠٠٠ فرنك فى السنة فهكذا تكون العناية بالتعليم والقائمين به

الاعلانات وهولها

ومن الامور التى تدهش القادم الى لوندرة كثرة الاعلانات التى يراها على جدران المحطة وكل مكان فيها حتى لايمكنه مطلقا معرفة اسم المحطة وتمييزه عن الاعلانات ثم متى سار فى الشوارع رآها كلها اعلانات واذا ركب فى عربات الاومنيبوس أوغيرها رآها كلها اعلانات من الداخل والخارج والاسفل والاعلى ولقد كان صدرى يضيق من رؤيتها وهى كأنها تتهددنى بوجوب قراءتها والعمل بما تشير اليه والاستحصال على ماتدل عليه فكنت اذا قلبت طرفى يمنة ويسرة أورفعته الى أعلى أوخفضته الى أسفل أو حولته الى الخلف أو رجعت به الى الامام رأيت الاعلان واقفا لى بالمرصاد فاذا أغمضت الطرف لاستريح منه قليلا ثم انتبهت فلا مناص لى من رؤيته على الدوام وفى كل مكان مختلف الصور والاشكال والرسوم والالوان فاذا أخذت تذكرة للسكة الحديدية

أو لعربات الاومنيبوس أو غير ذلك رأيت الاعلان مقتفيا أثرى وأثر كل من كان فى أى مكان وأى زمان فاذا اشتريت كتابا أو جريدة أو تعريفة أو خريطة أو ما أشبه ذلك رأيت الاعلان هو هو على الدوام يضطرني لقراءته بالرغم عني قبل أى موضوع يهمني فاذا مشيت على برازيق الطريق رأيت الاعلان يتساقط على من حيث أدرى ولا أدرى فأحتار فى كيفية التخلص منه فاذا جن الظلام رأيت الاعلان مكتوبا بالانوار على صفحات الزجاج أو بواسطة القنوات الخاصة بنور الاستصباح

وقد جرت عادة الجرائد أنها تخصص صفحاتها الاولى للفصول المهمة والمواضيع ذات الفائدة العامة ولكن الامر هنا بالعكس لان الانجليز يعتبرون الاعلان من أهم الاشياء فترى جرائدهم كلها على اختلاف مواضيعها وتنوع مشاربها مشحونة بالاعلان خصوصا الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة حتى ان الانسان ليحتار قبل أن ينظر الى مواضع الاخبار والفصول السياسية اذ لابد من المرور على الاعلان مثال ذلك جريدة التيمس المعروفة بملكة الجرائد تحتوى على ١٦ صحيفة منها نحو احدى عشر صحيفة مخصصة للاعلان وقس عليها سائر رعاياها وقد علمت ورأيت أن بعض البيوت التجارية يتكبد النفقات الطائلة والمصاريف

الهائلة لنشر الاعلان على صحائف حديدية فى جميع المحطات ثم لاتكتفى بذلك فتضع صحائف أخرى فى عربات السكة الحديدية (خصوصا التى تحت الارض) ثم لا تكتفى بذلك فتنشره فى عربات الاومنيبوس فى كافة أرجائها ثم لاتكتفى بذلك فتنشره فى جميع الجرائد ثم لاتكتفى بذلك فتنشره على غطاء جميع الكتب التى تظهر حديثا وفى الصفحات الاولى والاخيرة منها ثم لاتكتفى بذلك فتعلقه فى جميع أنحاء المدينة ثم لاتكتفى بذلك فتستخدم رجالا تلبسهم بشكل مخصوص وتضع أطواقا من الحديد على خواصرهم وأكتافهم لتعليق الاعلان فيمشى الرجل منهم (ويسمونه سندويش Sandwich) وامامه وخلفه وفوق رأسه ألواح من خشب مكتوب عليها الاعلان ثم لاتكتفى بذلك فتطبع أوراقا صغيرة تضعها فى يد السندويش فيفرقها على المارة فهذا هو الحصار بعينه وكل واحد من أصحاب الاعلان يجتهد فى التفنن فى اعلانه حتى يجعله يضطر الانظار بالالتفات اليه لما فيه من الرسوم والحروف والالوان وغير ذلك مما يضيق الصدر ويقضى على الانسان بان يحسد العميان

العميان فى لوندرة

وهنا تذكرت العميان فقد سبق لى القول بأن المقعدين استغنوا عن خدمتهم وقلت لابد لى أن أجد طائفة العميان قد

وجدت هى أيضا طريقة تكفيها الحاجة الى أنظار المقعدين ولا أريد أن أتكلم على التكايا المخصصة لهم بواسطة الحكومات أو أهل البر والاحسان فانها ليست من تفننهم وقد كنت أعرف أنهم اتخذوا الكلاب للاسترشاد بها والسير خلفها ولكنى قرأت من بعض الجرائد أثناء مرورى على باريس أن أحد العميان جلس على بر زوق الطريق ووضع بجانبه لوحة مكتوب عليها هذه العبارة (القوا نظرة وصلديا الى الذى لايمكن أن يردهما اليكم) فكيف لايحن قلب الانسان وتدفعه عوامل الشفقة الى امداد صاحب ذلك الفكر الحسن ولما جئت لوندرة رأيت العميان قد تفننوا فى الاختصار لان الوقت عند الانكليز من ذهب فترى الرجل واقفا حيث تمر الالوف المؤلفة فى كل لحظة وعلى صدره صندوق صغير فيه فوهة ومكتوب عليها (Blind) (أعمى) ليس الا ثم ان بعضهم أراح نفسه من الوقوف أيضا فوضع صندوقا بجانب شباك التذاكر حتى ان المسافر بعد أن يأخذ الباقى له يضع بنسا أو بنسين أو مايتيسر بكل سهولة من غير أن يتكلف وضع يده فى جيبه واخراج الدراهم منه فان ذلك يضيع منه الزمان ويمنعه عن الاحسان . وأتذكر أنى أول مرة رأيت الرجل واقفا على قنطرة لوندرة ومعه هذا الصندوق لم أفهم الكلمة التى عليه فوقفت

أنظر هذا الامر ولما سألت من معى وعرفت سر المسئلة فرحت كثيرا اذ تمكنت بذلك من الايفاء بوعدى فى رسالة فلورانسه .

مواطف وطنية

ولكنى مالبثت ان تكدرت لانى سمعت بعض المارين بجانبى يقولون عنى انى أمين باشا (رجل خط الاستواء وهو الدكتور شنتيزر الالمانى) فقد ثارت فى العواطف الوطنية والاحساسات القومية لانى لاأرضى أن أشبه برجل مثل هذا الذى خان حكومتى وبلادى وباع أو أعطى أملاكها فى خط الاستواء لدولته الاصلية أو لغيرها بعد ان رقته حكومتنا السنية الى مراتب العز والشرف وسهلت له سبيل الثروة واليسار وحسن السمعة والاشتهار ثم تكلفت النفقات الطائلة (وهى فى احتياج اليها) لامداده وانجاده وانقاذه فقابل ذلك المعروف وكل هذه المواساة بالنكران وفعل مافعل قاتله الله

وبالاسف انى بعد ذلك سمعت اناسا آخرين يقولون هذا القول عنى حينما يرون احمرار وجهى واحمرار طربوشى .

وداع وسياحة بانفراد

ولقد تجولت فى بعض مدائن الانكليز وسأتكلم عليها بالاختصار فى الرسالة الآتية وأترك التطويل الى الرحلة ثم رجعت الى هذه المدينة وكانت مدة مقامى فيها أولا وثانيا ثلاثة وثلاثين يوما ولم أشرع فى السياحة الا بعد أن ودعت صديقى الفاضل عثمان

بك غالب وكأنى ودعت معه نفسى أو أودعته روحى لشدة الالم الذى حصل لى من فراقه ولكونى بقيت بعده وحيدا (وما أردت أن أستعين بالتلامذة المصريين حتى لا أشغلهم عن الدرس والتحصيل وحتى أتعوّد على السياحة بمفردى)

اخلاق الانكليز

ومن أخلاق الانكليز التى وقفت عليها فى سياحتى فى بعض مدائنهم المشهورة ان الجراءة والاقدام فيهم أكثر منهما فى أية أمة أخرى فهم يقتحمون كل الاخطار التى تخطر على البال وهم مخلوقون للسياحة والتجوال ومتى خرج الواحد منهم من وطنه قاصدا أى جهة وقابلته الصعوبة والمشقات والاهوال والاخطار فلا يزيده ذلك إلا ثباتا واقداما وعنادا لانه رسم خط سيره ولا يمكنه أن يعدله أو يرجع عنه واذا كتب فى دفتر سياحته أنه فى يوم كذا وساعة كذا يكون فى المحل الفلانى فاذا لم تصادفه منيته فى الطريق فلا شك أنه يكون فيه فى الوقت المعين

واذا سافر لاقصى أقاصى الارض فعل من غير ضجة ولا رجة ولا حيرة وذلك عنده بمثابة السفر الى القبة والمطرية لاهل القاهرة والى الرمل لاهل الاسكندرية وانما هنالك سؤال وحيد لا يمكن أن ينساه وهذا هو (هل أرجع من طريق الصين أو طريق أمريكا)

ولوع الانكليز بالرياضات

ولابد لكل انكليزى من أبناء البيوتات الكبيرة أن يكون عارفا بقيادة المراكب والخيل والعربات ويتعود من نعومة أظفاره على الرياضات الجسدية فلا يعبأ بالمشى مسافة مائة ميل أو بالتقذيف فى الزورق من لوندرة الى اكسفورد (٦٩ ميلا) وكثير منهم يذهبون من لوندرة الى ايدمبورج عاصمة اسكتلنده سعيا على الاقدام والمسافة (٤٠٤ أميال) ومنهم من سار على أقدامه ٤٠٠ مرحلة فى بلاد السويد وهم يستمرون على المشى بهذه الكيفية حتى يصبحوا طاعنين فى السن وترى الشيوخ الهرمين يمشون فى الارياف كل يوم خمسة أو ستة كيلومترات ولا يمتنعون عن ذلك الا اذا أصابهم مرض لابد أن تعقبه الوفاة ومعلوم أن غلادستون مازال الى الآن يقطع الاحطاب بنفسه حتى لقد اتفق له فى الشهر الماضى أن بقرة نطحته وكادت تبقره بينما كان مواظبا على عادته فى الغاية

وفيهم كثير من الشيوخ يغتسلون بالماء البارد صباحا ومساء صيفا وشتاء ولا يتناولون فطورهم الا بعد مشى ثلاثة أو أربعة أميال

ويوجد باكسفورد أستاذ جرت عادته أن يمضى المسامحة السنوية مع زوجته فى قارب يقوم هو فيه بالتقذيف وهى

بامساك الدفة ويستمر على ذلك شهرا أو شهرين فى كل سنة ومتى أقبل المساء نزل بأحد الخانات التى على ساحل النهر وعند الصباح يأخذ منه المؤنة ثم يستمر فى تجواله وقد ساح بهذه الكيفية على أغلب أنهار أوروبا

وكثير منهم يذهبون على عجلة الاسلاك (السيكل Cycle) من احدى عواصم أوروبا الى الاخرى وقد جرت عادة أغلب المتزوجين حديثا بقضاء الشهر الاول المعروف عند الافرنج بهلال العسل على ظهر هذه العجلة فى الوديان والغابات والبرارى والخلوات متنقلين من قرية الى أخرى بدون أن يكون مع الزوجين شخص ثالث

حرصهم الكلى على الوقت

واذا سألت الواحد من هؤلاء الاقوام عن سؤال أجابك لحرصه على الوقت بنعم أولا فقط وفى النادر يجيبك بكلام قليل جدا بحيث انه لا يتخلى عن عمله الذى فى يديه أو قراءة جريدته وكذلك السائل يطرح السؤال ثم يوالى عمله وفى المكاتب الخاصة بالادارات العمومية أو بالشركات ترى هذا الاعلام (الرجا منك أن لا تتكلم الا فيما يختص بالاشغال) وفى الكتبخانات والمحلات العمومية ترى كلمة (صه) أو (الكلام ممنوع) مطبوعة فى كل جهة وترى طريق الدخول وطريق الخروج واضحا فى كل المحطات وما أشبهها من المحال العمومية وبجانبه أصبع يشير الى الطريق

تحشمهم في بعض عبارات

وما أصدق الذى قال ان الانكليز لايشبهون أية أمة أخرى ولكنهم كلهم متشابهون متجانسون على منوال واحد وطرز واحد وهم يتحاشون القول الهراء بكل مافى وسعهم فيعبرون عن الزنا بقولهم (مسامرة جنائية) ويستبدلون هذه الجملة (ممنوع إلقاء القاذورات وممنوع التبول الخ) بهذه (لاترتكب أى اتلاف) ويسمون المبولة والمرتفق (مغسلا) ولاجل تأييد هذه التسمية يضعون طشتا لغسيل الوجه وفرشا لتنظيف الشعر والملابس ولذلك يقول الرجل منهم (انى أريد أن أغسل يدى) بدلا من قولنا (أنا رايح زى الناس أو رايح أزيل أو أنقض أو أفك وضوئى) ولايقولون عن المرأة انها حبلى بل انها (فى طريق العائلة) أو (فى حالة تستدعى الاهتمام) وهم يتحاشون المزاح بالمرة أمام النساء وفى بعض المباول العمومية يكتبون هذا الاعلام (أصلح ملابسك وبنطلونك قبل الخروج) وهكذا

الثقة والصدق

وفيهم ثقة تامة يعجب بها الغريب حتى فى الاعمال والتجارة والصدق فيهم منتشر جدا فيكتفى الرجل منهم عند الزواج بأن يعلن عن سنه وانه عزب أولم يتزوج ولايبرز أوراقا لتأييد أقواله واذا كذب الواحد منهم مرة فى الامور القضائية حوكم كمن يحنث فى يمينه أو يخون عهده واذا كذب عند أحد الافراد طرد

فى الحال ومن ثقتهم ان عمال الكمرك يسألون القادم عما معه من الاشياء الخاضعة للرسوم ويعتمدون قوله فاذا ظهر كذبه صودرت الاشياء المضروبة عليها الرسوم الكمركية لجانب الحكومة وألزم الكذاب بدفع قيمة الرسوم ثلاثة أضعاف

مبادئ الزواج

ومتى اصطحب شاب بفتاة كان له أن يعرفها بأصحابه وينفرد بها فى الفسحة والنزهة والمراقص والتياترات والخلوات وغير ذلك وقد يبقى عقد الخطبة بينهما سنين طوالا الى أن يتيسر للشاب القيام بما يلزم من المصروف ومتى حصلت المفاتحة فى الخطبة فلا يجوز لاحدهما أن يعدل عن الزواج الا برضا الآخر فلو عدل الشاب طالبته الفتاة وأهلها بالعطل والاضرار وأبرزوا فى الجلسة المخاطبات والمكاتبات التى تبادلها المحبان وتعترف الفتاة أمام المحكمة بالاقسام التى أغلظها لها بالبقاء على حبها وبغير ذلك واذا كان العدول من طرف المخطوبة لا يتأخر الفتى فى اقامة القضية واكتساب مبلغ وافر من المال فى نظير العطل والاضرار

شدة تمسكهم بعاداتهم

وللانكليز تمسك شديد بعاداتهم وتقاليدهم يشبه محبتهم لأمتهم وتفضيلهم لها على ما عداها حتى انهم يحتقرون الغريب الذى يزورهم أو يتوجه الى التياترو أو يجلس فى الفندق على مائدة

الاضياف بغير الملابس السوداء الرسمية المعتبرة عندهم فى ليالى
الاحتفالات وأغلب النساء فى البيوتات الكبيرة يتكلمن
بالفرنساوية جيدا ومن عاداتهن أنهن يقمن عن المائدة بعد تمام
الأكل ويبقى الرجال وحدهم لشرب الدخان وغيره والمسامرة
والمحادثة ثم يتقابل الكل فى قاعات الاستقبال أو غيرها وفى
النساء لدى التكلم خفة فى الحركة وشمم وجراءة واقدام ولولا انى
وعدت بعدم الرجوع لهذا الموضوع لشرحت الحال وأطلت
المقال وحسبى أن أقول ان الذى يحكم عليهن بحسب العينات
التى يراها فى مصر يعترف بأنه أخطأ وجازف متى جاء هذه البلاد
ومن الغرابة أن الواحدة منهن متى كانت جميلة فليس لها مثيل
على وجه الارض ومتى كانت قبيحة فلا يضارعها فى السماجة
انسان وذلك لان الوسط غير موجود فى بلادهم فى كل الامور

احذر النساء

ومما ينبغى تنبيه الغريب اليه أن لا ينفرد بالجلوس مع أية
امرأة كانت فى غرفة من عربات السكة الحديدية مهما ظهرت
له فى مظاهر الاحتشام والوقار والنبل والكمال فلقد تجمع كثير
منهن (كما تجمع الرجال واشتركوا فى التجارة والصناعة) واتفقن
على جعل القطارات ميدانا لاعمالهن فمنهن النصابات المحتالات
النشالات الطرارات ومنهن التى تطالب بمبلغ عظيم وتهدد صاحبها

بأنه ان لم يؤد هذه الجزية عن يدوهو من الصاغرين بلغت رجال الشرطة عنه فى المحطة التالية بأنه فاتحها بما يخل بالآداب وغير ذلك ومنهن المتدينات المترهبات اللاتى يلازمن الرجل بدعوى انهن يخلصن روحه ويهدينه الى الصراط المستقيم صراط الذين اتبعوا المذهب البروتستانتى ثم تأخذ فى ايراد الدلائل والبراهين لاقناعه بوجوب الدخول فيه وفى هذا القدر كفاية الآن

مبانى لوندرة

واعلم أن مبانى لوندرة كلها على طرز واحد ومثال متشابه ومنوال متجانس وكلها متسربلة بملابس الحداد كأن أهلها يرون مثل بنى العباس ان (النور فى السواد) ويظهر للمتأمل فيها انها مبنية بالطوب الاحمر ولاتزيد عن الدورين الا فى النادر ولكنها متى تعدت هذا العدد أوتجاوزت النموذج المتبع عندهم فى البناء فيكون ذلك للطرف الآخر مرة واحدة فقد شاهدت بعض الدور فيها ثلاثة عشر دورا وقد شاهدت من جمال بعض المنازل والقصور ماجعلنى أحكم بانى فى احدى مدائن ايطاليا بعيدا عن لوندرة بمراحل وكيلومترات ومثال ذلك كنيسة ماربولس تتراآى على مسافة ٣٠٠٠٠ متر مما حولها وفى كل المبانى ترى طبقة تحت الارض يستخدمونها للطبخ والغسيل والتخزين ولغير ذلك من

اللوازم المنزلية حتى لايكون ذلك بجانب المساكن بل ان النزول الى هذه الطبقات يكون من سلم على برزوق الطريق فلا يدخل الفحام أو الجزار أو الخباز أو الخضرى أو غيرهم من المتعهدين بالتوريد فى المساكن مطلقا وقد دبروا النور والهواء فى تلك الطبقات الارضية بما يجعلها موافقة للصحة وقد رأيت فى بعضها قاعات للجلوس وغرفا للاستقبال فى غاية الزخرفة والجمال بحيث انها تروق فى عين الانسان وتستميله الى اطالة الجلوس فيها أما المساكن فان منظرها من الخارج عادى حقير ولكنه من الداخل محفوف بالتأنق وله من التزويق رونق يأخذ بالابصار فترى فيها المفروشات الثمينة والطرف والتحف التى لاتقدر قيمتها وترى الكراسى والمقاعد مختلفة الاصناف والاشكال وترى الامتعة والمرائى فى جميع النواحى مرتبة بذوق وحذق قد تجرد منهما خارج المنزل بالمرة وهذا أيضا من باب التناقض

المطبخ الانكليزى

وأما طبخهم فعادب تافه وفى غاية البساطة فكأنهم لايزالون على الفطرة فان الاشكال التى يعرفونها قليلة العدد وليس لهم من تنويع أو تعديل بل مازالوا سائرين فيها على سنة آبائهم الاولين ولكنها كلها والحق يقال صحية نظيفة وقد فاقوا الامم جميعا فى اصطناع الروزبيف فانك ترى كتلة من اللحم تزن

ثلاثين أو أربعين رطلا وكلها مسوّاة بالسواء من الداخل والخارج ومن جميع الجوانب وهم لا يضعون الملح فى الخبز أيضا أما الفنادق الكبيرة وأغنياء القوم فيستخدمون طباخين فرنساويين حتى انهم يضطرون (مع شدة محبتهم للغتهم) لكتابة وفهم أسماء الالوان بالفرنساوية ولقد أحسن فولتير حيث قال (ان الناس فى بلاد الانكليز يعبدون الله على خمسين نوعا ولكنهم لا يهيؤن البقرى والضانى الاعلى نوع واحد)

تنمير المساكن

أما نمر المنازل فى الشوارع والحارات فليست منتظمة كما فى مصر بطريقة الشفع والوتر بل قد ترى الجانب الايمن مبتدئا بعدد ١ ثم ٢ وهكذا حتى اذا انتهى الشارع بعدد ما رجعوا بالعدد الذى يليه من نهاية الجانب الايسر فيكون أول الشارع فيه أول أعداد المنازل من جهة اليمين وآخرها من جهة الشمال وفى القليل منها قد اتبع القوم طريقة الترتيب الحسنى المتعارفة فى مصر وغيرها من ديار أوروبا

المرتفقات والمباول العمومية

وفى جميع المحطات والمتاحف والآثار العمومية والاسواق المهمة والميادين التى بين الشوارع ترى مرتفقات ومباول عمومية بعضها خاص بالنساء والباقى للرجال وكلها فى غاية النظافة ونهاية الاستعداد وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها الماء متساقط باحكام

على الدوام من أحواض قد ترى فى بعضها الاسماك المختلفة الالوان يربيها الحارس فى هذه البحيرة التى يتجدد ماؤها فى كل لحظة وكثير من هذه المرتفقات متسعة جدا وينزل اليها بدرج لانها تحت الارض (فكأنها البنفسج قد اختبأ من عيون النرجس) واذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله أن يدخل فى أى دكان فطاطرى ويدفع بنسا واحد (٤) مليم للخادم

وصف الستى

وقد سبق لى ذكر الستى (المدينة) وسهى على أن أقول انها مركز الصناعة والتجارة لا للوندرة وحدها بل للعالم أجمع تتوارد اليها كنوز الثروة من جميع أقطار الارض وتديرها هى كيف شاءت وترسلها أينما أرادت ومن نظر الى جوها تصور أن رتيلاء هائلة جاءت ونسجت خيوطها وأرسلتها فى جميع أطرافها فان الاسلاك التلفونية والكهربائية التى فيها عدها أعسر من احصاء قطرات الامطار ومما يدلك على أن الحركة فى هذه الجهة من لوندرة قد وصلت الى نهايات التصور أن الرسائل الواردة عن طريق البوستة توزع فيها فى كل ساعة من ساعات النهار حتى ان عدد المكاتيب التى ترد اليها فى كل صباح يزيد عن الالف ألف (وهنالك مخزن واحد يرد له فى اليوم أكثر من ثلاثة آلاف رسالة) وعدد

سكان الستى المقيمين بها ٣٧٦٩٤ نفسا ولكنها فى ساعات الاشغال تتوافد اليها الخلائق من كل فج عميق حتى يبلغ عدد الذين بها طول النهار أكثر من ٣٠١٣٨٥ منهم ٢٩٥٢٠ رؤساء بيوت تجارية و ٢٠٢٢١٥ مستخدما و ٥٠٤١٦ مستخدمة و ١٩٢٣٥ غلاما لايزيد سنهم عن ١٥ سنة وقد حسبوا ان فى ٢٤ ساعة (فى يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٩١) دخل الى حدود الستى ١١٨٦٠٩٤ شخصا و ٩٢٣٧٢ عربة مختلفة الانواع ومتى أقبل الليل رجعت هذه الخلائق كلها وتركت الستى قاعا صفصفا حتى اذا شقشق النهار رأيت هذه الافوام تنهال عليها من كل جانب بمئات الالوف كالسيل المنهمر فهى أشبه بالبحر يحدث فيه المد والجزر

بلوندرة روح التجارة

ومما يدل على ان روح التجارة مجموعة فى العاصمة الانكليزية ان الرسائل التى توزعها البوستة فى لوندرة وحدها تزيد عن ربع مجموع الرسائل التى برسم بريطانيا العظمى كلها بل ان بلاد اسكتلندة (Scotland) (وتعرف عند العرب باسم سقوسية) باجمعها لايرد لها من الرسائل نصف مايرد للوندرة كما ان ايرلندة (وتسمى كذلك فى كتب العرب القديمة) بسائر مدائنها ومعاملها ومتاجرها البحرية لايرد لها الثلث

السعادة بالاجتهاد

فكيف لاتنهال جداول الثروة على هؤلاء القوم العاملين الذين يعرفون حقيقة قيمة الوقت حتى ان الرجل منهم اذا افتكر فى أى أمر من التسهيل والتيسير وثابر عليه بقليل من الثبات وساعده حسن جده لا يلبث أن يصير من أغنيائهم وأشرافهم ونبلائهم مثال ذلك رجل كان يصطنع البيرة (الجعه) واسمه (باس) فاتقن عملها وتفنن فى طرق التعريف بها حتى انه وصل الآن الى ثروة لايمكن تقديرها الا لمن يعلم أنه اشترى الدار التى كان يسكنها اللورد بيكونسفلد وزير انكلترا الشهير ثم فرشها بالمتاع الفاخر وبلغت نفقات الفرش وحده ٦٥ ألف جنيه تقريبا من ذلك لوحتان فيهما بعض الصور والمناظر بستة عشر ألف جنيه ولما وصل الى ماوصل من اليسار توصل الى ان صار من اللوردات الكبار (اللورد بريتون) وعنده الآن سبعة آلاف عامل وله ايرادات كثيرة ودخله من الجعة وحدها بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف جنيه فى السنة الواحدة ومرتب مدير الادارة عنده هو ٥ آلاف جنيه انكليزى فى السنة

ومثله كوك المشهور وتاريخه معلوم فى مصر وقد أصبح لبيته الآن أقلام ومكاتب فى كافة البلاد المتمدنة بل ان له فى لوندرة وحدها نحوا من ثمانية مكاتب وكلها تشبه بل تفوق المصالح المنتظمة

المشهود لها بالاجادة ومما يدل على انتظام ادارته وتيقظ عماله لراحة معامليه انهم أطلعونى فى لوندرة على ترجمة شكواى من وكلائهم فى برندزى أرسلها لهم وكيلهم فى القاهرة نقلا عن رسالتى الاولى واستفهموا منى عن اللازم وأوعدونى بمعاقبة المقصرين حتى لايعودوا للاخلال بواجباتهم وسأفرد للكلام عليه فى الرحلة فصلا ان شاء الله.

ومثله رجلان اسمهما سبيرز وبوند قد التزما بان ينشئا فى جميع محطات لوندرة وبريطانيا العظمى سكردانات (١) للآكلين والشاربين من المترددين على القطرات فراجت تجارتهما وربحت أعمالهما حتى تعديا هذا النوع الى غيره فأنشآ دكاكين بدالين (بقالين) وخياطين وغير ذلك وعندهما من النساء المستخدمات نحو الخمسمائة امرأة

ومثلهما كثير غيرهما اتبعوا طريق الجد فى أعمالهم ففازوا وصاروا من أهل الثروة وأقبلت عليهم الخلائق وأقرت لهم

---

(١) يؤخذ من كلام شفاء الغليل فيما فى لغة العرب من الدخيل ان السكردان لفظ فارسى معرب ومن شرحه له يستفاد انه يقابله فى اللغة الافرنكية كلمة بوفيه Buffet المستعملة الآن فى اللغة العربيه وحينئذ فالرجوع الى السكردان أولى وأفضل)

بالفصاحة والاصالة وصار لهم فى النفوس مهابة وجلال حتى ان كثيرا من المحدثين بهذه الصفة أصبحوا أعضاء فى البرلمان بالنيابة عن بعض المقاطعات بل عن بعض المدارس الجامعة وهم كثيرون لاأريد أن أطيل الرسالة بذكرهم ولكنى لاأرى مندوحة عن الكلام على رجل اسمه هويتلى Whitely

هذا الرجل كان فى مبدا أمره من طائفة المتسببين ببيع بعض الاصناف على عربة يدفعها بيده أو يقف بها بجانب الرزوق وقد أصبح الآن وهو صاحب مخازن واسعة فى لوندرة لايضاهيها غيرها فى كل البلاد التى رأيتها وقد علمت أنها فريدة فى العالم بأجمعه وقد دخلت هذه المخازن فحرت واندهشت وضللت عن الطريق لتشعب مسالكها وتنوع الاصناف فيها فانك تجد عنده كل مايحتاجه الانسان من أى طبقة كان من يوم مولده الى يوم لحده من جميع الاصناف وكافة الانواع من ملابس للجسم وللرأس ولليدين وللاقدام داخلية وخارجية للرجال والاطفال والنساء والبنات جاهزة أومفصلة بحسب الارادة ومن أقمشة لجميع أصناف الناس للملكية والعسكرية البرية والبحرية ومن حرائر ومنسوجات مختلفة متعددة متنوعة ومن روائح واعطار ومن بضائع أجنبية من جميع أقطار الدنيا من مصاغات

ومجوهرات مختلفة الاقدار والاحجام والاثمان ومن مشغولات الحديد وكافة المعادن على الاطلاق ومن أخشاب وأحطاب ومن كتب وورق وما يقتضيه ذلك من جميع الانواع ومن فواكه طرية وناشفة وخضراوات جافة ورطبة جنية ومن لحوم الحيوانات والصيد ومن حيوانات حية وأطيار وأسماك بل تجد عنده الفحم الحجرى بل الكبريت بل كل مايتصوره الانسان يجده فى هذه الدكان وعلى الضمان ذهب اليه فى أحد الايام رجل من اللوردات وأراد أن يربكه ويضحك عليه فقال له انى أريد فيلا أبيض (ومعلوم انه من الندرة بمكان) فتلقاه الرجل بكل هدو وسكينة واستوصفه الفيل اللازم وساومه الثمن وأخذ عنوانه ثم قال له أضرب لك موعدا بعد ثلاثة شهور يحضر مطلوبك فلم يمض الاجل المعين حتى جاء الى صاحبنا اللورد كتاب فى البوستة يعلمه بوصول الفيل حائزا لكافة الشرائط المطلوبة والاوصاف المرغوبة وانه مستعد لارساله اليه فى المكان الذى يعينه وبلغنى ان عدد القتيات المستخدمات فى مخازنه يقارب الخمسة آلاف وأمثال هؤلاء كثيرون

فلا يعجب الانسان حينئذ اذا اضطر القوم للاستعمار الغنى والفقر والاجتهاد فى جلب الذهب الى بلادهم من كافة أقطار الارض

حتى صارت مدينتهم سوق العالم كله وأصبح كثير منهم يكتسبون في الدقيقة الواحدة خمسة أو عشرة جنيهات أو أكثر ومنهم من ايراده السنوى يعتبر في بلاد أخرى رأس مال عظيم جدا ومنهم دوك اف فونشير يملك من الاراضى فقط ماقيمته ثمانية آلاف ألف جنيه ومع ذلك فان ثروته هذه ليست شيأ يذكر بجانب دوك وستمنستر فانه لم يتيسر حصرها للآن

وبهذه المناسبة أقول ان الباحث المدقق لايرى فى اى نقطة فى الكون منظرا أبشع ومشهدا أشنع من الفقر الذى أناخ بكلكله على جانب عظيم من سكان لوندرة فان ذلك المنظر يوجب لوعة وألما لايضاهيهما شئ من الاحزان لقربه من تلك الثروة الطائلة وتلك النعمة الكاملة الآخذة فى النماء والازدياد بقدر اشتداد وطأة الفاقة وتناهى الاعسار فهلا يرى الناظر بعد ذلك ان هذه المدينة قد تفردت بالجمع بين الاطراف وانعدم فيها الوسط فى كل أمر من أمور الحياة حتى لقد صدق شاعرهم شيلى إذ قال ما معناه

ان جهنم المستعرة * أشبه بمدينة لوندرة

الرسالة الحادية عشرة

تجول فى بعض مدائن الانكليز

وصف المطر والضباب

قمت من لوندرة فى يوم الخميس ٢٢ سبتمبر وقد اكفهر وجه السماء واحتجبت شمس الضياء وخيمت فى المدينة كتائب الضباب ثم تمزقت ضلائع السحاب فتساقطت الامطار كالانهار وتسابقت السيول من أعالى التلول وتتابع الرعد القاصف يصحبه البرق الخاطف ورأيت الناس يبتدؤن فى ايقاد النور فى الشوارع والحوانيت والدور فنزلت من العربة الى جهة مستقربة للتفرج على هذه الحركة المستغربة غير مبال بهاطل الوابل فخيل لى أنى فى صندوق كبير من الزجاج القاتم وعلى جدرانه شبه أشجار منضودة ومياه معدودة وطرائق ممدودة وأشباح فى غدو ورواح وماوصلت الى سكة الحديد الا وقد بلغ الظلام منتهاه فأسرعت الى عربة القطار السريع ورأيت الماء ينهال من ميازيبها كأنها أفواه القرب ولما استقربى الجلوس واستأنست بالجلوس ورأيت النفوس تتضجر من هذا الجو العبوس فاتحت بعض القوم بهول هذا اليوم فقال هذا هو الضباب الاسود ولعله يقف عند هذا الحد فلا يكون طليعة لعرمرم الضباب الاصفر فانه هو الموت الاحمر

فأظهرت الاشتياق لمعرفة هذا الافتراق فأخبرنى أن الضباب عندهم قسمان أولهما وهوالذى نشاهده الآن أكثر غرابة وأقل ضررا للانسان فانه يجعل وقت الظهيرة البهيج كمنتصف الليل البهيم فيسارع الناس باضاءة النبراس ومتى كان الضباب فى الطبقات العالية فليس فيه من الضرر مايستحق أن يذكر ولكنه على كل حال لايوجب عطلا فى دولاب التجارة وحركة الاعمال وأما الصنف الثانى فهو الاصفر يؤثر على الحلق ويتهدد الحلق بالخنق ويوجب التحفظ على الانفاس بالاكمام وقد اخترعوا للوقاية منه كمامات مخصوصة للتمكن من التنفس بسهولة وكل من أهمل الاحتراز بهذا الغطاء أو بهذه الكمامة خرج الدم من فيه مع اللعاب ان لم تزهق النفس وتذهب الى الرمس وفى الحال يسرجون المصابيح فى الشوارع والحارات والدور والدكاكين ولكنه يستحيل على الانسان أن يرى النور نفسه ولوكان بمقربة منه وبعضهم يلتجؤن الى العربات فيلبثون بها ساعات وترى هذه الحركة الهائلة التى تفردت بها لوندرة تقف كلها مرة واحدة ولا يتجاسر الجرىء على أن يتقدم فترا أو يتأخر شبرا خوفا من الاصطدام بشئ مما لايراه. وهذا الصنف من الضباب لايظهر الامدة خمسة عشر يوما وأخص الاوقات به شهر نوفمبر فقد يمر الاسبوع الكامل كأنه ليلة واحدة

قد يتخللها أحيانا شفق باهت يزيد فى الحزن والكآبة المنتشرة على أرجاء المدينة ولذلك كان الانكليز أعرف الناس بعضار الجو فى مدينتهم فيبارحونها فى فصل الشتاء (الا من تضطره حوائجه وأعماله) ويفر الاعيان والاشراف واللوردات منها فى هذه الاوقات لانها تكون والحق يقال غير قابلة للسكنى بما يغشاها من ركام الضباب المتوالى الذى يمزج فيها بين النور والظلام ويزيد فى درجة الرطوبة الى حد لا يطاق فشكرت الرجل على هذه الافادة وأردت أن أحيطه علما باعتدال الجو فى بلادنا وبهاء السماء عندنا مما يجعلها جنة تقر النواظر وتشرح الخواطر ولكنى رأيته لا يعبأ الا ببلاده ولا يلتفت الى غير ماهو فى معلومه فأقفلت باب الحديث وأخذ هو والجماعة فى تدخين شبقاتهم القصيرة الشهيرة وتلاوة جرائدهم الكثيرة واشتغلت باضافة هذه الفوائد على ما علمته من سرعة تغير الجو فى لوندرة فان متوسط درجة الحرارة فيها هو ٩,٤٥ من درجات سنتيجراد وقد تنزل فى الشتاء الى ٣ تحت الصفر ولم يمض الا قليل من الزمن حتى وصلنا برمنغام Birmingham فنزلت بها وهى مدينة قديمة اسمها الاصلى بروموايشام ثم حرفها العامة الى بروماجم واشتهرت الآن باسمها المتداول المعروف وهى مركز المعامل التى تشتغل باصطناع الحديد فى بلاد الانكليز وفيها

مدينة برمنغام

ورش للجلوانوبلستيا ولاصطناع الريش الفولاذ التى يستعملها الافرنج فى الكتابة بدل الاقلام وللمصنوعات الحديدية الخاصة بالكنائس وعلى مقربة منها ورشة لاصطناع الزجاجات العدسية الخاصة بالفنارات البحرية وأخرى لعمل العربات ومن أجل مبانيها دار المدينة وفيها متحف واف ومكتبة أهلية يقوم بالخدمة فيها نساء فى غاية الفطانة وفيها غرفة مخصصة لمؤلفات شاعرهم الفيلسوف الشهير شكسبير تحتوى على مجموعة فيها كتبه التى طبعت فى جميع المطابع وفيها تراجمها الى كافة اللغات الاوروباوية وكذلك البوستة يقوم بمباشرة أعمالها نساء لهن حظ وافر من علم الجغرافية

مدينة دربى

ثم قمت منها الى مدينة دربى (Derby) وتفرجت على مكتبتها ومتحفها ولكنها ليست الا عبارة عن معامل كثيرة خالية مما يشرح صدر الغريب أو يستميله لاطالة البقاء فيها وأهم شئ يستحق الذكر هو انى حططت بها الرحال (أعنى جعبة ملابسى ووطاب أوراقى) مدة ٢٤ ساعة

مدينة منشستر

وأسرعت بالقيام منها الى مدينة منشستر (Manchester) على القطار السريع فمرّ تحت نفق اسمه بيك فورست تونل وطوله ميلان كاملان ولكن القطار قطعهما فى دقيقتين وفيه بطرية كهربائية

لاضاءة كافة العربات بالليل أو عند دخولها نهارا فى بعض الانفاق فقط ومنشستر مدينة كبيرة عامرة فيها كثير من المعامل وأهم شئ تفرغت له فيها مكاتبها الكثيرة المجانية التى أعدت لتثقيف عقول الاهالى وتشحيذ أذهان العمال فى أوقات خلوهم من الاعمال وقد رأيت فى أهم مكتباتها مجموعة مستوفاة لانظير لها فى أعظم مكاتب أوروبا حيث احتوت على جميع ماألفه العلماء فى فن اختزال الكتابة (الستنوغرافيا) وفيها مجموعة كاملة لاهم جرائد بريطانيا العظمى واعمال البرلمان وكتب قديمة نادرة ومعمل للتجليد ورأيت فيها طابعا يؤثر على الورق من غير حبر استحدثوه حتى لا يتمكن أحد القراء من اختلاس بعض أوراق الكتب التى يكون فيها تصاوير ورسوم أو جداول أو غير ذلك مما يستشره الغواة للاختصاص به واتلاف الكتاب برمته وهى طريقة لطيفة يحسن اتباعها فى الكتبخانة الخديوية حفظا لما فيها من الذخائر والنفائس حتى ان الذى يستعير الكتاب النادر لاتسول له نفسه تجريده من بعض الصفحات فيصبح أبتر عديم القيمة وفيها غرفة للقراءة يجد الانسان فيها جميع الجرائد التى تصدر فى اليوم وسأشرح الكلام بالتفصيل على مكاتبها التسعة وغرف المطالعة المتعددة اظهارا لما جاءت به من الفوائد التى لاتقدر وعدد سكان

هذه المدينة ٧٠٥٠٠٠ نسمة بما فيها سالفور من ارباضها وهى
كما لايخفى مركز لصناعة الاقطان (وفى متحفها نموذج من
جميع محصولات القطن بانواعه فى كافة أقطار العالم) وليست من
شئ فى حسن المنظر وبهاء الرونق وهى كسوق تموّن فيه أهل
المدائن التى حولها وكلها مختصة بغزل القطن ونسجه وبما يتبعه
من الصنائع وفيها بعض عمائر تستحق الذكر مثل دار أمانة المدينة
ودار التجارة الحرة وهى معدة للاجتماعات العمومية تسع ٥٠٠٠
نفس وفيها بستان للنبات فى غاية الانتظام وفيها كثير من الاسواق
والكنائس المهمة وفى شوارعها وميادينها أنصاب لتخليد ذكر مشاهير
الانكليز وقد مضى علىّ فيها أحد الآحاد فكأنها ولوندرة قد
أفرغتا فى قالب واحد ومما زاد فى أهمية المدينة أن شركة تألفت
وساقت مياه البحر الاطلانطيقى من ليفربول اليها فى ترعة سموها
قنال مانشستر لكى يتيسر للسفن أن تدخل فى انكلترا حتى تصل
اليها بما فيها من البضائع وقد بلغت نفقات هذا القنال نحو ٦ ملايين
من الجنيهات والمنظور أنهم يصرفون أيضا أربعة ملايين أخرى

لفربول
وفندق أدلفى

ثم قمت منها الى ليفربول (Liverpool) ونزلت
بفندق ادلفى وهو من أفخر وأفخم الفنادق التى رأيتها بأوروبا
من حيث الاتساع والاتقان وكمال المعدات حتى ان أدنى

غرفة فيه يضيئها النور الكهربائى وفيها التلفون للمخاطبة مع ادارة الفندق وخدمه ولمكالمة النازلين به مع بعضهم ومع المشتركين فى التلفون من أهل المدينة

الجمعية الأسلامية الانكليزية

وقد تفرجت فيها على المحاكم وعرفت أساليب التقاضى والمحاماة عندهم وزرت مكتبتها ومتاحفها وشاهدت آثارها وأنصابها وتقابلت فيها مع الشيخ عبدالله ويليم كويليم رئيس الطائفة الاسلامية من أبناء الانكليز ودعانى لتناول الطعام عنده وأكرم مثواى ورأيته قائما هو وأصحابه بتأدية الفروض الدينية الشرعية بقدر اجتهادهم فى دار جعلوا فيها قبلة ومحرابا ومكانا للصلاة ومنبرا للوعظ والخطابة وفيها مدرسة اسلامية لتعليم الآداب والفنون الانكليزية على ما يوافق النصوص الشرعية وهى الى الآن فى عهد الطفولية وكلهم متوددون لبعضهم رحماء بينهم مقبلون على تكسب أرزاقهم يتخاطبون بألفاظ الاخاء ويحيون بعضهم بتحية الاسلام ويزيد عددهم الآن عن الستين بما فيهم بعض النساء ولاشك انهن سيكون لهن اليد البيضاء فى تعميم نشر المبادى الحقة واظهار مزايا الدين الحنيف شأنهن فى كل عمل أقبلن عليه فى أى قطر من أقطار المسكونة وقد ترجموا بعض السور الكريمة ونظموها فى قصائد

يرتلونها فى بعض الاجتماعات وعندى نسخة منها وقد اديت

الزمهرير فى سبتمبر

معهم فريضة العشاء فى ليلة ٢٧ - ٢٨ ستمبر وقد اشتد الزمهرير وتنازلت الحرارة وارتفعت البرودة بما لم أعهد له مثيلا من قبل حتى كانت جوارحى تنتفض وفرائصى ترتعد كأنى العصفور بلله القطر واستمرت أسنانى على الاصطكاك والاحتكاك حتى تحققت ان برد العجوز فى بلادنا ليس بالشئ الذى يذكر بجانب ماسميته برد الشباب عندهم وكانوا كلهم يقولون أين هذا من البرد الصحيح

نار السعير

وبعد أن خرجنا من المسجد صاحبنى اثنان منهم لارشادى على الفندق وبينما نحن فى اثناء الطريق واذا بمبادئ حريقة فى مخزن خشب فوقفنا نتأمل أفاعيل النار مع اشتداد هبوب الرياح ولم تمض برهة كبيرة حتى ارتفع لسان اللهيب الى عنان السماء وتطاير الشرر الى جهة الشرق فأتت على المخزن وبعض البيوت المجاورة له ولم يتغلب عليها رجال المطافئ مع إقدامهم وبراعتهم الا بعد أن بلغت النفس التراقى ولولا حذاقتهم وسكون الاهالى وعدم اضطرابهم واستيلاء الهلع عليهم لكانت أحدثت اتلافا أعظم مما حدث وسأكتب عليها بالتفصيل وانما أذكر الآن ثبات الانكليز فانى لم أسمع فى الجماهير التى تجمهرت الا صياحا واحدا من امرأة استغاثت بالقوم لانقاذ ولدها وألقت نفسها فى مقدمتهم

لاستخلاص فلذة كبدها وبعد ذلك استولى الصمت والسكون حتى فى أهالى المنازل المجاورة التى كانت ألسنة النار تتطاول اليها وبقى رجال المطافئ مالكين لجريتهم فى العمل حتى انقضت هذه القارعة ولم يمت فيها أحد من الناس والحمد لله

عموميات

وعدد أهالى ليفربول ٥١٧٠٠٠ نفس وهى أول الموانى البريطانية بعد لوندرة بل قد تفوق عليها بما يصدر منها الى الخارج وأخص تجارتها مع بلاد امريكا اذ يجيئها منها كميات من الحبوب والاقطان وغير ذلك من المحصولات مما لايكاد يتصوره العقل ثم تصدرها بعد اصطناعها فى معاملها الى جميع انحاء العالم وأحواضها أهم مايوجد فى أعظم موانى الدنيا تدخل اليها أكبر السفائن فى كل لحظة وهى متقاطرة صفوفا صفوفا وراء بعضها على مدى ستة أميال وزيادة بحيث ان منظرها يعتبر من عجائب العالم ولا يزالون الى الآن يشتغلون بحفر أحواض جديدة وانشاء مخازن للتجارة البحرية

ومن أهم مبانيها قاعة سنت جورج وهى عمارة فخيمة جليلة بما فيها من الرونق والبهاء وحسن النظام يجتمع فيها القوم أثناء الانتخابات أو الاحتفالات العمومية ورأيت قصر متحف الفنون والصور والرسوم وغرفة المطالعة والمكتبة الحرة

والبورصة وغير ذلك من عظائم الآثار التى لايسمح لى المقام بالتوسع فى الكلام عليها الآن وفيها كما فى غيرها من مدائن الانكليز تلك الرياض السندسية التى تنقى الهواء وتسر الفؤاد بما فيها من الخضرة والنضرة والمياه المتدفقة والاشجار القليلة حتى يتيسر للنظر ان يمتد الى منتهى الافق وفيها مدرسة جامعة وغير ذلك مما أستبقى شرحه للوقت والمكان المناسبين له

هذا وقد كنت عقدت النية على الرجوع الى لوندرة مباشرة ولكنى عدلت عن ذلك وعولت على زيارة بعض مدائن الغال لقربى منها واعلمى بانه لم يسبقنى أحد من أبناء جلدتى من هذا الجيل فى التوجه اليها وستكون موضوع الكلام فى الرسالة التالية ان شاء الله

الرسالة الثانية عشرة

تجوال فى بلاد الغال

نظرة فى الانسان

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وبرأه على أبدع تكوين وصوّره فى أجمل مثال وفطره على أكمل منوال ثم أودع فيه من غرائب الغرائز وخفى الاسرار ومكنون القوى ما الايرتاب فى وجوده الحاذق الفطين أو يتخيله الدرّاكة الفهيم أو يخطر على بال اللبيب الاريب ولايزال العلم يكشف لنا فى كل يوم عن قناع هذه الخبايا ويكاشفنا بما فى تلك الزوايا ويطلعنا بمقدار تقدم العرفان على مافى الانسان العاجز من آثار الاقتدار كلما قرن الارادة بالعمل ووفق بين الفكر والتحقيق فى مظاهر الوجود وهذه كلها قضايا ثابتة عند من قدح زناد القريحة الصحيحة وتدبر فى سلائق الخلائق وأرسل رائد التأمل الى عجائب الارتقاء العصرى وما كان من نتائج سعى العقلاء فى الايام الخوالى

السبب فى علم تغرب المصريين

أقول ذلك بمناسبة مااشتهر به المصريون من الركون الى السكون والخلود الى الراحة والقناعة بالكفاف وما ذلك الا لتوفر العيش فى بلادهم البارة بأهلها وتيسر أسباب الكسب ونوال الرزق من غير ما كد ولا كدح كما هو الشأن فى الامم المتوطنة

بالبلاد الجبلية أو الاصقاع المجدبة القاحلة أو البلاد التى ضاق ذرعها عن القيام بأود أبنائها حتى اضطروا للنزوح عنها الى ماهو أخصب وأبرك سعيا وراء القوت أو طلبا للرفاهية والنعيم

وليس السكون من شؤون المصريين دون من عداهم ممن يدبون على وجه الكرة الارضية فماهم و ربك إلا كسواهم من طوائف المخلوقات الذين أفاضت عليهم يد العناية الازلية نعمها المترادفة حتى جعلت بلادهم مطمحا لانظار الغريب عنها يلتجىء اليها على الدوام ويقرع أبوابها طلبا للقرى والضيافة

ثم اننا اذا نزلنا فى سلم الكائنات الى الحيوانات رأينا هذه النتيجة بعينها فانواع الدبابات وأصناف الحشرات وأطيار الهواء وأسماك الماء خاضعة لهذا الناموس الكونى العام فما كان منها فى وسط مشحون بالخيرات تراه من طبيعته ميالا للسكينة وعدم العنفوان وما كان بعكسه يكون من خلقه البطش والبغى والعدوان وقد استمر الحال على هذا المنهاج حتى تأصلت هذه الاخلاق وصارت وراثية فى كل من الفريقين يتناقلها الابناء عن الآباء والاحفاد عن الاجداد ولكننا اذ قلبنا الموضوع وعكسنا القضية كما يفعل علماء الطبيعيات ببعض الحيوانات لاتلبث الجبلات ان تتغير والسجايا ان تتحور والطبائع أن تتنوع وتتحول

والاميال أن تتبدل وتتعدل بحسب مايقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

لذلك كان البدو على العموم مجبولين على الترحال والضرب فى أطراف البلاد حتى اذا تمصروا أصبحوا كأهل الحضر أقل استعدادا للهجرة والتغرب عن الاوطان والابتعاد عن الارض التى نبتوا بها واستقوا من مائها وتغذوا بنباتها

السبب فى ولوع الانكليز بالسياحة

ولما كانت بلاد الانكليز كثيرة البعد عن ان يصدق عليها انها من الخصب وتوفر الرزق بحيث تكفى لمؤنة أهلها تولد فيهم بالضرورة حب السياحة والسعى فى مناكب الارض وبذل كل مافى وسعهم من الوسائط الحسية والوسائل المعنوية بجلب الثروة من أقطار الارض وأطرافها الى تلك الجزيرة التى يسكنون بها ثم لما ضاقت عنهم التزموا بالاستكثار من الاستعمار والانتشار فى سائر الاقطار مثل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ومثل الاغريق والرومانيين ومثل العرب فى أول دولتهم والبرتقاليين والاسبانيين فى مبدأ نشأتهم ومثل الالمانيين واليونانيين وغيرهم من أمم هذا الزمان

وبعد ان كانت السياحات للانكليز من أول الحاجيات أصبحت الآن من ضروريات الكماليات لانها رسخت فى ملكاتهم

وثبتت فى أخلاقهم حتى انهم فاقوا جميع أمم الارض فى هذا الموضوع

استعداد المصريين للسياحة

وبعكسهم المصريون واشباههم من الاقوام فانهم لم تحوجهم بلادهم للخروج من حوزتها ومبارحة حومتها فانها تكفلت لهم بلوازم الحياة ولم تضن عليهم بما يسد رمقهم حتى انه ماأمكن ولايمكن ولن يمكن أن يموت فيها أحد بسبب الجوع كماهو حاصل فى كل يوم بلوندرة وغيرها من مدائن الانكليز ولايمكن أن لايجد العامل فيها عملا يغنيه عن بذل ماء الوجه وإخلاق الديباجة أو الانتحار ان كان فى نفسه شئ من الشمم والشهامة وأما لوندرة وحدها فقدشهد الاستاذ كيرهاردى نفسه وأكد بأن عدد العمال الذين لاعمل لهم هو ١٠٠٠٠٠ ومعلوم ان أقل تعطيل فى معامل أية مدينة من بلاد الانكليز يوجب انقطاع الخبز عن مئات ألوف من العمال كما تشهد به التلغرافات

فلا غرابة حينئذ فى أن مصر لم تخرج كثيرين من أهل السياحة والزيارة ومحبى الاستطلاع ولكن ذلك ليس برهانا على عدم استعداد أهلها لها بل ان البارئ جل وعلا خصهم أيضا بهذه الغريزة كما حلاهم بصفاء القريحة وجودة الذهن وسمو المدارك وغير ذلك من المزايا العقلية التى يعترف لهم بها حتى

أعداؤهم من الاجانب وانما الاعمال محك الرجال فلا يصح للعاقل المنصف حينئذ الآن يسخر ويستخف بأولئك السائحين الذين جاؤا مصر وحكموا بأن أهلها ليس فيهم اقتدار على السياحة وطلب العز فى التنقل فان أول طواف حول افريقية كان فى عهد الفراعنة الاقدمين وعلى سفائن المصريين وبواسطة المصريين خرجوا من بحر الروم مغربين حتى تجاوزوا بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) ثم اجتازوا بحر الظلمات (المحيط الاطلانطيقى) الى أن بلغوا مايعرف الآن برأس غشم الخير ثم جابوا البحر الهندى وألقوا المراسى عند مدينة القلزم (قريبا من السويس) ومن نظر فى كتاب (مصر والجغرافيا) الذى وُفقت الى اظهاره حديثا اذعن بأنهم قد كانت لهم اليد البيضاء فى الاكتشافات الجغرافية التى حصلت ببلاد السودان وغيرها وان كانت رسائلهم وتقاريرهم وكتاباتهم لم تنل حقها من الانتشار حتى تكون بهجة فى عين المحب وقذى فى أعين المبغضين

الاندفاع للسياحة

ولقد صدق الفرنساويون فى المثل الذى أرسلوه حيث قالوا (ان الشهية تحضر وقت الاكل L'appétit vient en mangeant) واصدق منهم امامنا البوصيرى فيما أتى به من الحكم (ان الطعام يقوى شهوة النهم) فانى حينما أتيح لى مبارحة الربوع التى ألفتها

والديار التى عهدتها وهذه هى المرة الاولى عرفت مقدار الحنين
اليها والتوجع من مفارقتها حتى لقد اشتد بى الوجد عليها وأنا
بقلورانسه على مقربة منها ولايعرف الشوق الا من يكابده ولاينكر
هذه العواطف النبيلة الامن تجرد منها ولكننى كنت كلما
طوحت بى الاسفار أستأنس الى السياحة وأرى فى نفسى
مايجذبنى الى رؤية بلاد كثيرة واقوام عديدة حتى انى لما كنت
بلفربول شعرت بما يدفعنى الى زيارة بلاد الغال وقد دارت المكالمة
بينى وبين بعض الانكليز على ماعزمت عليه من التوغل فى هذه
البلاد فاستكبر هذا المشروع على شاب من المصريين وقال
لى انه من باب المجازفة سيما مع قلة بضاعتى فى اللغة الانكليزية
مع كونى لو كنت متقنا لها لما أفادتنى بشئ كثير لان أهل تلك
البلاد لهم لسان آخر خاص بهم وهو بعيد عن الانكليزية بعدا
شاسعا فقلت له ولم تقدمون أنتم الى بلادنا وتكتبون عليها مع
عدم معرفتكم بلساننا ولاوقوفكم على اخلاقنا فقال لى اننا
نستعين بما كتبه اسلافنا الذين خالطوكم وأقاموا بين ظهرانيكم
فضلا عن انتشار لساننا فى أوطانكم وكثرة التراجمة الذين
نستخدمهم فى التفهم والتفهيم فأجبته بانى لاأرى من مانع فى
ان اكون لقومى مثل أولئك الاسلاف الذين تشير اليهم وانى

أستعين بترجمان من أهل تلك البلاد يفهمنى بالانكليزية وعلى قدر الامكان مالبس فى وسعي ادراكه من لغة قومها فان الانكليز والامريكانيين لابدأن يكونوا قدموا اليها وحينئذ فلاشك فى وجود نفر من أهلها يكاموننى بالانكليزية على قدر ماأفهم ثم أحطت صاحبى بمشروع سياحتى فى الاندلس والبرتقال وانى لاأفهم كلمة واحدة من اللغة الاسبانية فقال ذلك سهل عليك لانها قريبة من الفرنساوية والطليانية ولك بهما إلمام فسلمت له بسداد هذا الجواب فقال لى وهناك عوائق أخرى ربما لاتقوى على مقاومتها وهى البرد الشديد والرطوبة الزائدة وتوالى الامطار فى هذه البلاد الجبلية فقلت له وفوق ذلك فانى عازم على النزول الى مناجم الفحم الحجرى فهز رأسه وبرم شاربيه وتبسم ضاحكا ثم قال بصوت متقطع (اذا كان الكلام سهلا على اللسان فالعمل صعب على الانسان) فترجمت له ماقاله شعراؤنا (أنجز حر ماوعد — وان غدا لناظره قريب) ثم ودعته بعد ان وعدته بانى اكاتبه من هاتيك البلاد وركبت القطار فى عصارى النهار

دخول بلاد الغال

ولما وصلت الى مدينة شستر Chester استدعيت حمالا نقل متاعى الى قطار آخر وأعطيته جنيها ليستحضر لى تذكرة الى لنجوئلن Liengollen ويرد لى الباقى فذهب وغاب ثم رجع

موفيا بالمراد فأتحفته بما قدرنى الله عليه لانى افتكرت أنه كان فى وسعه عدم الرجوع ووصلت لنجوتلن فى منتصف الليل أوقبله بقليل وكان المطر متواليا عليها بمالم أعهده فى عمرى وأما البرد فيكفينى أن أقول لنه أهدانى بالزكام مدة أربعة أيام وسمعت للمياه خريرا يشبه الهدير والزئير وكأنها متدفقة من صخور عالية متلاطمة على جنادل متوالية متساقطة فى جداول سافلة وبلغت النزل كالغريق لايخاف البلل فأوقدوا نارا حامية اصطليت بها واستأنست لها وماسمعت آذان الديكة فى الايكة وتسبيح الاطيار على أفنان الاشجار حتى وثبت الى الشباك وألقيت نظرا متسارعا الى ماأمامى من المناظر فاذا جبال شاهقة تكسوها خضرة رائقة تتخللها ازهار شائقة تكتنفها أشجار باسقة تنساب بينها مياه دافقة لونها ضارب الى الاصفرار والاحمرار مثل مياه النيل المبارك أيام الفيضان فانثلج فؤادى كما انثلج جسمى وقرت عينى بباهر هذه المناظر وجمال هذه الحال حتى عولت على اطالة الاقامة فى هذه المدينة الصغيرة التى يبلغ عدد سكانها ٣١٣٣ نسمة فأخلدت الى الراحة فيها وترويح البال بمرائيها بعد أن لاقيت من لغط المدائن الكبيرة وضجتها ومتناهى اضطرابها وحركتها ماجعلنى محتاجا لقليل من الراحة حتى يعود لى النشاط لموالاة السياحة

نجوتلن ومناظرها

ومن الغرابة أني علمت بعد مبارحتي اها بزمان ان أهل التجوال لايحطون بها الرحال الا للاستراحة

* فانها مدينة صغيرة واقعة على نهر الدي (ومعنى دى باللغة عموميات على الغالية الاسود وبالانكليزية بلاك) وتسمى بلسان أهلها لنجوثلن وان كانوا يرسمون اسمها في الكتابة هكذا (للنجوللن) وعلى نحو ميلين منها اطلال دارسة لدير قديم وهى أجمل مابقي من عمائر القدماء في شمال هذه الاراضي وعلى ميل ونصف منها بقايا حصون منيعة قائمة بشكل مخروطى على تل مرتفع يطل على المدينة ويصد عنها المغيرين عليها وقد زرتهما بالتفصيل وشاهدت أعمال الحفر فيهما وكشف ما كان دارسا تحت الارض منهما وفيما وراء هذه الحصون يمتد النظر الى مسافة أربعة أميال تشغلها جبال طباشيرية وتتخللها مروج أريجة ومراع فسيحة ويحف بالمدينة من الشمال الى الجنوب واد بهي بهيج يبلغ طوله ٢٤ ميلا ينعش الفؤاد ويشجي النفس بنوره وزهره وخضرته وقد آثرت التوجه اليه على عربة في طريق البر عن ركوب القطار حتى أتمتع باجتلاء محاسنه وتسريح الطرف في مشاهده ورأيت ماأبقاه فيه الدهر من آثار القصور الدارسة التى تتعلق بما كان لها من المكانة في الفخامة والجلال وتشهد بان الايام خلعت عليها ماعندها من الجمال

طباع أهل الغال

وقد تنقلت من هناك الى قرى كثيرة حول لنجوثلن وتحققت فى أهل الغال بشاشة وبشرا وائتناسا ويسرا مع الطباع الكريمة والاخلاق الفاضلة النبيلة ولهم بالغريب حفاوة وأى حفاوة فهم يتهالكون على خدمته والاجتهاد فى مرضاته من غير أن تكون لهم غاية مافى ديناره وخلاصة القول انى عهدت فيهم تلك السجايا البدوية العربيـة الفاضلة التى تتجلى مظاهرها فى الارياف والخلوات أكثر منها فى المدائن والامصار وهذا ماحدانى على إطالة المكث بلنجوثلن أكثر مما تستحق فى الحقيقه وخصوصا ان الفندق الذى نزلت فيه وهو (هاند هوتل Hand Hotel) قد قام أهله بخدمتى فوق اللازم ويسروا لى جميع المطالب بما كتب لهم على صحيفة فؤادى آيات من الشكر لايمحوها الدهر ولقد وطنت نفسى على الذهاب الى هذه المدينـة اذا ساعـدتنى العناية بالقدوم الى أوروبا مرة ثانية

نساء الغال

وقد رأيت النساء فى بلاد الغال يفـقن أضرابهن فى بلاد انجلترة الحقيقيـة فيما هو من مميزات الجنس اللطيف مع ماهن عليه من البساطة التى تستوجبها المعيشة الخلوية وبعـدهن عن التأنق الذى يضطر اليه أترابهن حينما يطلعن فى سماء الامصار وللسيدات فى لنجوثلن جمعية خاصة بهن فى دار هى فى الحقيقـة

تحفة للناظرين وطرفة للقادمين فقد حوت من آثار الصناعة وبدائع الاعمال مالا يمكنني المقام من استيفائه الآن فانها كلها من الخشب القديم المشغول شغلا دقيا على يد أمهر الصناع وفيها طرائف قديمة ومجموعات نفيسة من حلى وجواهر ومتاع فاخر وصور ومناظر وأسلحة ونقوش وأشكال وأوانى يليق بها ان تعرض فى أهم المتاحف المعتبرة وفيها رجام قبر من الرخام مكتوب عليه عبارة باللغة التركية

معامل الصوف

وفى هذه المدينة الصغيرة أكثر من اثنى عشر معملا لغزل الصوف ونسجه يديرها التيار والبخار وقد تفرجت على بعضها ورأيت الصوف كيف يفرز ثم ينظف ثم يغزل ثم ينسج ثم يغسل ثم يكوى ثم يلف وكل ذلك بواسطة الآلات وتحت مراقبة شرذمة من الغلمان وثلة من البنات

منبع الدى

ولا أعلم كيف استولت على الرغبة فى التوجه الى منبع نهر الدى ورؤيته وهو يخرج من البحيرة التى تتجمع فيها المياه المتساقطة من الجبال فجهزنى أهل الفندق بما يلزم وأحضروا لى ترجمانا صاحبنى فى ذهابى بالسكة الحديدية الى مدينة بالا Bala وسرت مسافة ساعة حول بحيرتها ورأيت الجداول تنساب من قلل الصخور القريبة منها وتنهال فى حياضها ثم تجرى الى الوادى فيتكون منها نهر الدى

وصف مناجم الفحم الحجرى

كل ذلك والمطر متوال لا ينقطع الا مقدار خمس دقائق تطلع فيها الغزالة ثم لا تلبث ان تختبئ وراء حجاب السحاب يكتنفها قوس قزح مزدوجا بل قد لا تمهلها الامطار ريثما تختفى عن الانظار ولقد طاب لى المقام فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة مع ما فيها من التغيرات الجوية التى لا تخطر على بال من تعود اقليمنا ولكنى ما قدمت فى الحقيقة الى بلاد الغال الا طمعا فى رؤية مناجم الفحم الحجرى اس الصناعة وينبوع الثروة ومحور العمران فى هذا الزمان ذلك المعدن النفيس الذى يجدر بنا أن نسميه الحجر الكريم والا كسير الصحيح فانه فضلا عن فوائده المتعارفة قد استخرج منه علماء الكيمياء اصباغا باهية متنوعة واعطارا أذكى من جميع الاصناف المعروفة وسكرا يباع فى الصيدليات والدرهم منه يوازى أكثر من ثلاثين من أجود أنواع السكر المعتاد وقد أثبتوا أن حجر الماس من الكربون وبذلك يجوز لاهل البيان أن يقولوا ان الماس من الفحم فى الحقيقة والمجاز (وسبحان من يفتق النور من رتق الظلمات ويخرج الاحياء من الاموات) وفيه غير ذلك من الجواهر والمنافع والمزايا التى ربما أتعرض لشرحها عند الكلام على المنجم الذى زرته بالتدقيق والتفصيل فانى قمت من لنجوثلن يصحبنى ابن ربة النزل حتى وصلت الى مدينة شيرك Chirk

على طريق يشبه السكك الزراعية فى بلادنا وانعطفت منها الى منجم بقربها

وما تمكنت من زيارته الا بعد عناء شديد لان القوم حسبونى فى أول الامر رائدا من طرف أصحاب المناجم الالمانية جئت أسترق أسرارهم وأقف على طرائقهم الى غير ذلك مما يخشاه أهل الفن الواحد من بعضهم ولكن المدير لما عرف صفتى ووطنى واطلع على رقعة زيارتى فتح لى الابواب ومهد امامى الطرق وأتحفنى بكافة المعلومات وأعطانى نسخا من التقارير الرسمية والرسائل الفنية لاستعين بها على الاشباع فى هذا الموضوع ثم قام بنفسه وطاف معى جميع الاماكن وأحاطنى بكيفية العمل ثم أمر وكيله ان ينزل معى داخل المنجم بعد آن ألبسنى رداء قصيرا من الجوخ الغليظ الخشن وسلمنى هراوة أتوكأ عليها وأستعين بها على التلمس فى السير داخل هوة النفق الحالكة وأعطانى مصباحا من مصابيح الامان اهتدى به فى السير واستعين به على النظر ثم قدم لى شيأ من المرطبات وقال لى (قد صرت الآن من عمالنا فاخضع لنواميسنا فبادر بالعمل بلا مهل) فامتثلت وانحنيت مع الوكيل فى أحد الصناديق الموضوعة على المركبة المعدة

لاخراج الفحم من جوف الارض الى وجهها فهوت بنا المصعدة (Asceneur) وكان سطح الصندوق الاسفل يفر من تحت أقدامى بمناسبة سرعة الآلة فى النزول حتى رست بنا على بعد ثمانمائة متر عن سطح البسيطة فاستلمنا أحد العمال وفتش جيوبنا لئلا يكون معنا شيء من الدخان أو الكبريت أو المواد القابلة للانفجار ثم فحص المصباح الذى معنا (وكان الوكيل نفسه خاضعا قبلى لهذا الاختبار) وبعد ذلك سمح لنا فى المرور فسرنا من سرداب الى سرداب صاعدين هابطين مقبلين مدبرين بالتواء وانعطاف بحسب اتجاه عرق الفحم فى بطن الارض وكنا نمر على سكك حديدية عليها قطارات مختلفة الاتجاهات بحسب دفع البخار وجذبه بواسطة السلاسل الحديدية وفى الجهات المطمئنة رأينا خيولا تجر العربات مشحونة بالفحم وتتركها بجانب المصعدة فترفعها الى وجه الارض ولهذه الخيول التى لاتنقص عن الثلاثين اصطبلات فى السراديب فيها كل ماتحتاجه من المؤونة والراحة وفى السراديب حنفيات للمياه وتنانير للنيران وآلات للبخار وفوهة كبيرة عليها آلة عظيمة تدخل الهواء بكثرة زائدة الى هذه الهاويات العميقة وهذا المنجم مركب من دورين أحدهما فوق الآخر فالاول تحت سطح الارض بمسافة ثلثمائة متر والثانى تحته

بخمسمائة متر وقد طفت فيهما ثلاث ساعات ولم يتيسر لى أن أسلك فى كل طرقاتهما لان ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة

ولكننى استعضت عن ذلك بالتوجه الى أقصى ناحية وصل اليها العمال واقتنعت بذلك ودخلت الى أبعد نقطة فى كليهما حيث رأيت العمال يقيمون الاخشاب لاسناد السقف حتى لا ينهار عليهم و وقفت حينئذ معجبا باقتدار الانسان واذا بفكر مظلم تولانى فاقشعر منه جسدى ووقف له شعر رأسى اذ مرّ على ذاكرتى كالسهم الخاطف تاريخ تلك الكوارث والقوارع الكثيرة الوقوع فى المناجم وتذكرت أحدثها وهو ما كنت قرأته بالجرائد الافرنكية فى مصرفى شهر مارس الماضى من الانفجار الذريع الذى حصل بأحد المعادن فى بلاد البلجيكا حتى انه لشدة الرجة التى أحدثها جعل أهل البلاد البعيدة عن موقع هذه الطامة بمسافة خمسة كيلو مترات يتخيلون حصول زلزال عنيف ومالبث الخبر أن انتشر حتى توافد الناس أفواجا الى محل الوقعة الفظيعة وأخصهم أهالى العملة وعيالهم واشتغل أهل الاقدام والجراءة بترتيب وسائل استنقاذ الارواح من هذا الموت الزؤام ولكن اجتهادهم ذهب ادراج الرياح وضاعت مساعيهم سدى فقد كتب الله أن تكون هذه الطامة عامة فانهم شعروا بتزعزع جديد فى

بواطن الارض أعقبه صياح رنان (النار النار) وأبصروا الشرر
يتطاير فى الهواء من بئر التهوية يحيط به دخان كثيف كان يتسارع
الى وجه الارض نذيرا باعتراك العناصر فى احشائها واجتماعها
على اهلاك من فيها من العملة المساكين بشر أنواع العذاب المبين
ثم انهار أحد جدران بئر التهوية فساعد على اشتداد النيران وقطع
حبال الرجاء فى الانقاذ والفداء وكان الناس وهم فى حالة اليأس
يسمعون زئيرا شديدا يخرج من الاعماق و يشعرون باضطراب
وارتجاج وفى بعض الاحيان كانت تهب عليهم روائح خصوصية
وتهاجهم أبخرة كبريتية فتعلمهم باشتداد الكرب وتوالى الخطب
وتنبئهم بان الحريق آخذ فى الازدياد وانه لامطمع فى استخلاص
ضحايا النار حتى اصفرت الوجوه وذهبت العقول وضاع الصواب
فأقبل كثير من الحاضرين وفيهم جم غفير من النساء يترامون
على البئر وقد أحاط به الجند ولم ينجحوا فى صد المعتوهين عن
اللحوق بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأقربائهم لانقاذهم من مخالب
النار الا بعد أن أشهروا السيف البتار وتكاثفت جموعهم
فزحزحوا الناس بقوة السلاح وهم ينظرون اليهم بعيون زائغة
تنظر ولا ترى وأفواه تصطك أسنانها وقد انعقد لسانها ووجوه تولاها
الذهول واعتراها الخبال فصاروا كالاشباح بلا أرواح ولا أتذكر

الآن بالضبط عدد الذين ذهبوا فريسة هذه القارعة ولكني أذكر انه يبلغ المائتين وهذه حادثة واحدة من كثير دونها تاريخ المناجم وكنت أفتكر فيها كلها ولم يخرجني من هذا الحال الا تناجي العمال بلسان الغال فانني لو كنت من البارعين في فن المفارقات لقلت انه يتركب بحسب هذا البيان (أي النسخة باعتبار بعض المصريين)

قيراط

٨ ألماني

٢ انكليزي

١٠ لاوندي

٢ يوناني

١ سرياني

١ عربي وعبري

٢٤ ممزوجة مع بعضها ينشأ عنها اللسان الغالي

وحينئذ بادرت بالخروج الى وجه الارض وشكرت افضال المدير وان ارتجف من هول الخطر الذي ألقيت بنفسي في تهلكته ولكنني قلت في نفسي ان الذي يجيء بلاد الانكليز ولا يرى معادن الفحم الحجري فلا يصح له أن يقول انه كان في انجلتره أوزار هذه الجزيرة

ثم انطلقت من هذه المدينة (شيرك) الى مدينة أخرى

تفرجت فيها على معمل اصطناع الطوب المطبوخ (الآجر) بواسطة البخار وهو معمل كبير يأخذ الطين اللازم من تل كبير مجاور له ثم انتقلت الى مدينة أخرى قريبة منها ورأيت فيها العملة يلعبون بعد خروجهم من المعادن بالكرة بأقدامهم (الفوت بول) وهو لعب رياضي خاص بالانكليز ولهم فيه مهارة غريبة

ومن هنا ركبت القطار راجعا الى شستر وهي فيما بين بلاد الغال و بلاد الانكليز ولكنها تعتبر من الثانية ومع ذلك فأذكر عليها الآن تفصيلا قليلا

مدينة شستر هذه المدينة قديمة أسسها الرمانيون على مصب نهر الدى الذى يمر على لنجوثلن وعدد سكانها ٣٦٧٩٤ نفسا ولايزال فيها كثير من بقايا الرومان وأبراجهم وأسوارهم التى هى كشوارع معلقة فى المدينة اعتاد الاهالى على النزهة والرياضة فيها و يبلغ طولها ميلين ومن الامور التى انفردت بها ان برازيق الطريق يكون عليها حوانيت وخلفها ممشى فيها دكاكين أخرى وفوق الحوانيت الامامية يرتفع الدور الاول من المنازل فيكون الشارع عليه من الجانبين صفان من المخازن وخلف كل منهما ممشى فسيح موازٍ للشارع وعليه دكاكين أخرى وسقفه هو أرضية الطبقة الاولى من المساكن وفيها كنائس عتيقة بعضها مشيد بالطوب

الاحمر وفيها ميدان فسيح تتسابق فيه الخيول فى بعض أيام السنة وخلاصة القول أن لها منظرا انفردت به دون المدائن التى مررت عليها ببلاد المشرق وأوروبا وقد اشتهرت بصناعة الجبن وان لم يكن من طبيعـة أهلهـا فقد بيضوا صـفحات تاريخهـم بالذود عن حياضها أيام كانت بـلاد الانكليز منقسمة الى ممـالك صـغيرة كثيرة فى عراك مستديم وحروب مستمرة

والى هنا أستوقف اليراع عن الافاضة فى شرح ماعندى من المعلقات والمفكرات فان ماذكرته عن بلاد الغال قليل فى جانب مااستحصلت عليـه من الفوائد والمعلومات ولـكن القليـل دليل على الكثير

الرسالة الثالثة عشرة

العودة الى لوندرة

(وفيها ايماء بايجاز الى نهر التيمس وقناطره والانفاق التى تحت الارض والحدائق والكنائس والقصور وبنك انجلتره ودار الضرب وبرج لوندرة ومحلات البر والاحسان ومؤنة المدينة ومیناها وتنويرها ومطافئها وشربها ومصارفها وضواحيها (رشمنـد ببساتينها ووندسور بقصر الملكة ورياضها) ومعرض « مصر القديمة » فى لوندرة والصناعة الشرقية العربية فيه واستنهاض الهمم اليها)

رجعت من بلاد الغال الزاهرة التى هى فى انجلترة بمثابة سويسرة بما يتجلى فيها من محاسن الطبيعة ونضرة الخلوات ونزلت ثانية بعاصمة الانكليز ورأيت فيها مارأيت مما قصصت بعضه فى رسائتى الاولى عليها وهى وان طالت بقدر ماطالت فليست فى الحقيقة بالنسبة لهذه المدينة الا كالبعوضة بجانب الطود الشامخ ولايطاوعنى قلمى على الانتقال منها الى غيرها ولكنى لايتسنى لى بأى حال من الاحوال ان افيض فى شرح الكلام على التيمس وقناطره الاربعة عشرة وأرصفته المنضودة الممدودة على جانبيه أوالانفاق التى تمر تحت قاعه كأن

الآلاف المؤلفة من العربات المختلفة الانواع وقطارات البخار والترامواى والزوارق التى تجرى على وجه النهر كعدد النمل كلها غير وافية بحاجات أهل هذه المدينة للانتقال من شاطئ الى شاطئ فقادهم ميلهم للاختصار وتوفير الزمن وتسهيل العمل الى احداث هذه الاعمال الشاقة فان أحدها (تيمس تونل) يبلغ طوله ٣٦٦ مترا وهو عبارة عن ممشيين معقودتين متصلتين ببواكى واساطين على مسافات متساوية ويمر تحت قاع الماء بخمسة أمتار وقد بلغت نفقاته ١٥,٣٥٠,٠٠٠ فرنك وكان فى أول الأمر مخصصا لافراد الناس ينزلون اليه من سلم مظلم منزلق ارتفاعه ١٩ مترا ولكنه لم يحز من الخلائق اقبالا مع كون أجرة المرور كانت زهيدة جدا وهى بنس واحد (٤ مليمات) فاشترته شركة خصوصية فى سنة ١٨٧٢ ومدت فيه خطوطا حديدية تجرى عليها القطارات وتتصل بسكة حديد العاصمة وقد كان انشاؤه فى سنة ١٨٢٥ وأما النَفَق الثانى فهو بجانب برج لوندرة واسمه (تور سبوى) وهو عبارة عن قناة من حديد الزهر قطرها متران وطولها ٣٧٥ مترا ينزل اليه من سلمين حلزونيين على ٩٦ درجة موضوعين على كل من ضفتى النهر (واجرة المرور نصف بنس أى مليمان) وكان البدء فيه فى شهر فبراير سنة

١٨٦٩ واتمامه فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ ولم تزد نفقاته عن ٤٥٠٫٠٠٠ فرنك

وأما الثالث فقد انشأته شركة السكة الحديدية الكهربائية وقد احتفل البرنس دوغال بافتتاحه فى ٤ نوفبر سنة ١٨٩٠

ثم انى خصصت هذه الرسالة لذكر بعض آثار لوندرة وعمائرها وقدمها وضواحيها ولكنى لاأجد متسعا للقول على حدائقها العشرة التى يضرب بها المثل فى العالم كله ولاعلى بستان البنات وما فيه من غرائب الحيوانات ولاعلى كنائسها المهمة مثل القديس بولس ودير وستمينستر والهيكل والكنائس الانكليزية والبيع المنشقة عنها والبيع الكاثوليكية والاجنبية فان عددها فى المدينة وارباضها يناهز الالف ونصف الالف ولليهود فيها ٦٠ كنيسا الى غير ذلك من أماكن العبادة العديدة التى أقامتها طوائف دينية لايحصيها الا الله . وكيف يتسنى لى أو لغيرى تلخيص شئ وجيز فى مثل هذه العجالة عن قصور تلك المدينة مثل دار الندوة (البرلمان) وقصر سان جمس وقصر بوكنجهم والويت هول (وقد كان فيه اعدام الملك تشارلس الاول) وقصر مارلبورو وقصر كنسنتن وقصر لمبث (وهو مقر رئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية) وقد رأيت فيه مصحفا بخط أحد سلاطين مصر

موضوعا فى الكنيسة بجانب الانجيل وغير ذلك من قصور الملوك والامراء أو المخصصة للنوادى والاجتماعات وبمثل ذلك أعترف بانه ليس فى وسعى أن آتى بلمع يسيرة عن الأماكن المدنية والعمائر العمومية مثل جلد هول (الذى هو دار أمانة المدينة) وفى أحد قاعاتها تمثالان عظيمان من الخشب المجوف يمثلان يأجوج ومأجوج وتسع هذه القاعة ٧ آلاف نفس وفيها مكتبة حرة فيها سبعون ألف مجلد وفيها متحف للآثار والمخلفات الباقية من لوندرة القديمة وقد عرضوا فيها امضاء شاعرهم شكسبير على عقد مبايعة اشتروه للمتحف بمبلغ لا يقل عن ١٤٥ جنيها وفى الدار تلك العربة التى يركب عليها اللورد أمين المدينة فى التاسع من شهر نوفمبر يوم الاحتفال بتثبيته وتبلغ النفقات اللازمة لترميمها ٢٥٠ جنيها فى كل سنة منذ انشائها فى سنة ١٧٥٧ أو المنشن هوس (هو القصر الذى يسكن فيه اللورد أمين المدينة مدة سنة انتخابه) أو البنك (ويرد اليه فى كل يوم ٥٠ ألف ورقة قيمتها مليون جنيه فيمزقون أحد أطرافها و يحفظونها مدة ١٠ سنوات و يصدرون غيرها للتعامل وفيه مطابع كثيرة كل واحدة تخرج فى اليوم الواحد ١٦ ألف ورقة مختلفة القيمة وقد بلغ عدد الورق الذى أرجع الى البنك فى يوم ٨ اكتوبر سنة ٩٢ ٦٧٤١٧ وقيمتها ٤٥٠٧٢٧٥

جنيها ورأيت فيه ورقة قيمتها مليون جنيه ولا ثانية لها ورأيت ورقة تداولتها الايدى مده ١١١ سنة وبلغت أرباحها المركبة ٦٠٠٠ جنيه وفيه ٤٩ مكتبا ويخفره بالليل قره قول فيه ٣٤ عسكريا وضابط واحد وهو غير قابل للاحتراق وفيه سبائك كثيرة من الذهب الابريز والفضة الخالصة وفيه آلة لوزن الجنيهات تلقى بالجنيهات الصحيحة فى مكان و بالتى نقصت بالمداولة والمعاملة فى مكان آخر وتزن فى الدقيقة الواحدة ٣٣ جنيها وفى كل يوم من ٦٠ ألف الى ٧٠ ألف جنيه وقد كان رأس مال البنك فى أول الامر ١٢٠٠٠٠٠ جنيه وصار الآن ١٤٥٥٣٠٠٠ جنيه انكليزى وقد بلغ عدد الورق الذى صدره البنك فى خمس سنوات ثم عاد اليه ودفع قيمته ٧٧٧٤٥٠٠٠ ورقه بنك نوت تملأ ١٣٤٠٠ علبة واذا وضعت هذه العلب بجانب بعضها بلغ طولها ميلين اثنين وثلث ميل ولو وضعت هذه الاوراق فوق بعضها لكان ارتفاعها خمسة أميال وثلثى ميل ولو صفت الى جانب بعضها طرفا لطرف لتكوّن منها شريط طوله ١٢٤٥٥ ولو حسبنا مسطحها لوجدناه يساوى مسطح حديقة الهايد بارك (ومعلوم ان سطحها ١٦٠ هيكتارا) وقد كانت قيمتها الاصلية عبارة عن ١٧٥٠٦٢٦٦٠٠ جنيها انكليزيا وثقلها ٩٠ طونولاطة وثلثا طونولاطة

ولأذكر الآن شيأ عن البورصة وأعمالها ودار البوسطة والتلغراف والكمرك ودار الضرب (ويبلغ عدد العملة التى تصطنعها فى الاربعة وعشرين ساعة ٥٠٠٠٠ جنيه انكليزى) وكيف يتسنى لى التلميح بكلمتين الى برج لوندرة وما فيه من الاسلحة الفاخرة والحلى المجوهرة أو المتحف البريطانى وقد طار صيته فى الآفاق بكثرة مافيه من الذخائر والاعلاق وتنوع النفائس واختلاف المخلفات مما يجعله فى مقدمة متاحف الدنيا حتى ان غرفة المطالعة فيه لامثيل لها فى العالم كله بل ان مجرد المرور على مافيه من المحفوظات يستغرق نحو الاسبوع بالتمام بل ان برنامجاته وفهارسه هى عبارة عن مجلدات ضخام ويجىء بعده غيره من المتاحف الكثيرة المتنوعة ومعارض الصور والرسوم والفنون والعلوم

وماذا عسانى أقول الآن على نظام البلدية فى هذه المدينة الواسعة أو على ترتيب الشرطة الذين يزيد عددهم عن ١٤٩٠٠ رجل أو على محاكمها الكثيرة العدد المتنوعة الاختصاصات أو على مدارس الحقوق الاربعة أو على محلات البر والاحسان ودور النقاهة والجمعيات الخيرية المخصصة لتربية أبناء الفقراء فان عددها يتجاوز الالف ومقدار المبالغ التى تنفقها بما فيها التبرعات

والهبات (والنقوط التى تجمع فى الكنائس) تزيد عن سبعة ملايين من الجنيهات والمستشفيات فيها على أنواع فمنها ماهو عمومى ومنها ماهو مخصص لبعض الامراض مثـل مداواة الطواعين والوقاية منها وعلل الصـدر والربو والرمد وادواء العـين وغـير ذلك من الآفات والعاهات ومنها ماهو للمجاذيب (وعددهم فى بعضها ٥٠٠ ولاغرابة) ومنها ماهو للاطفال أو للنساء أو للولادة هـذا بصرف النظر عن الاجزاخانات العديدة التى توزع الادوية احتسابا لوجه الله وعدد الاسرة فى هذه المستشفيات يزيد عن ٩٠٠٠ ويدخل بها فى السنة أكثر من ٨٠,٠٠٠ مريض وهى توزع الادوية مجانا على أكثر من ١,٢٣٠,٠٠٠ نفس وفى بعضها مـدارس للطب والتشريح أو الاقرباذين أو غـير ذلك مـن فروع الطب وفيها كتبخانات معتبرة ومتاحف متنوعة ومعامل كيماوية وغرف للطبيعة وبساتين للنبات ومجاميع باتولوجيـه وغـير ذلك وفيهـا مرابى للايتام قد يزيد عددهم فى بعضها عن ٤٦٠ وقد كان أحد الماهرين فى صناعة الموسيقى يجىء فيها ويقرع أرغنا فى غاية الاتقان أهداه له (وهو فيـه الى الآن) وكانت الخلائق تتهافت على هـذا المكان من كل فج لسماع هـذا المطرب الفريد وقد تحصل من أجرة دخولهم مبلغ يزيد على ١٠٠٠٠ جنيه خصصه

للمربى ومن فيه من الايتام ولم يأخذ منه بارة واحدة وفى لوندرة فضلا عن ذلك كثير من الاماكن الخيرية وجمعيات البرّ ومساعدة العملة والسعى فى نفع بنى الانسان وفيها كثير من التكايا التى يجبر المتكففون على الدخول فيها والاشتغال بما هم أهل له وفوق ذلك ترى هنالك كثيرا من المستشفيات المختلفة الانواع لاجل الجنود البرية والبحرية الذين أصابتهم العاهات

وما ذا أقول على المؤنة فى مدينة يزيد عدد السكان فيها عن الخمسة ملايين ونصف مليون وكلهم لابد لهم من الطعام فيها أربع مرات تقريبا فى كل يوم حتى ان ماتستهلكه فى العام الواحد يبلغ هذه المقادير

٨٠٠,٠٠٠ ثور

٤٠٠,٠٠٠ رأس من الضأن والعجول والخنازير

(وقد أثبت علماء الاحصاء ان متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكانها فى اليوم الواحد يزيد عن ١٤٠ جراما من اللحم)

٩,٠٠٠,٠٠٠ من الطيور وحيوانات الصيد

(أما الاسماك مثل سمك المرجان المعروف فى كتب العرب باسم طرستوج وعند اليونان طريفلا وعند عوام

الاندلس المول . ثم السلباج المعروف بالمارماهيج وبالنون وبالانقليس وبثعبان البحر . ثم التن (واسمه كذلك فى كتب العربية) . ثم السردين واسمه عند العرب العرم .

ثم ومحصولات البحر من الحيوانات الرخوة مثل الجندفلى والقرقله والاستردیا والمحار بانواعه والسرطان الكبير وأبو جلمبو وأبو تكنى والبضالينس وبراغيث البحر وبلحه والحلزون والسرطان وقنفذ البحر المعروف عند أهل الاسكندرية الآن باسم رتسا ويسمى عندهم أيضا قنشد (ولاشك عندى ان هذه اللفظة محرفة عن كلمة قنفذ) وغير ذلك من الاصناف العديدة التى لا أعرف أسماءها فانها تنهال على المدينة بمقادير هائلة لا يتصورها العقل يشهد لذلك ان هنالك آلافا وآلافا من الزوارق والقوارب لا حرفة لها سوى نقل هذه الحيوانات الرخوة القوقعية والروبيان هى المعروف عند الفرنساوية باسم هومار (Homard) وقال ابن البيطار (ان المصريين يسمونه قرندس وان أهل الاندلس كانوا يسمونه قرون)

١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ هيكتولتر من اللبن

٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة

١٠٠٠٠٠٠٠ كيلوجرام من السمن والزبدة
٢٠٠٠٠٠٠٠ كيلوجرام من الجبن
٤٥٠٠٠٠ طونولاطه من أصناف الخضروات المهمة ومنها نبات الحرف فقط (وهو المعروف عند العرب أيضا بالرشاد وعند الفرنساوية بالكرسون (Cresson) مامقداره من ثمانمائة الى تسعمائة طونولاطة
٥٠٠٠٠ طونولاطه من أنواع الفاكهة
وغــــيرذلك وغير ذلك وغير ذلك

أما السوائل التى يستهلكونها فلا تقل عن ذلك بل هى أيضا بنسبة هــذه المقادير الهائلة فانها تتجاوز ١٨٠ مليون لستر فى الاربعة آلاف خمارة والسبعمائة ألف بيت خصوصى ويمكن تقدير المشروبات الروحيــة بثمانية عشر مليونا من اللترات واذا قابلنا بين النبيذ وبين الجعة (البيرة) وجدناه شيأ لايذكر بجانبها اذ لايشربه الا الاواسط والاغنياء ومع ذلك فكمية استهلاكه فى العام الواحد لاتقل عن ٣١ مليونا من اللترات أما الفحم الحجرى فيجىء منــه فى كل عام كميات تزيد على ١١ مليون طونولاطــة وثلاثة ارباع المقادير الجسيمة ترد عن طريق النهر والباقى فى السكة الحديدية

وأهم أسواقها (وهو سوق سميثفلد) يشغل مسطحا قدره ٣٧ ألف متر وفيها سوق آخر (اسمه سوق البهائم) قد يسع فى آن واحد ٧٠٠٠ ثور و ٣٠٠٠ عجل و ٣٥٠٠٠ شاة و ٤٠٠ خنزير وقد يكون فى بعض الايام مخصصا لبيع الخيول وفيها سوق آخر للسمك والقواقع ليس الا وآخر للاطيار فقط وآخر للخضار والاثمار والازهار دون ماعداها وآخر للخيل وحدها الى غير ذلك مما يطول شرحه

أما التجارة والصناعة والمينا وأحواضها ومخازنها فهى عالم كبير مستقل بنفسه ولا أعلم ماذا أقول عنها الآن بعد أن تحققت ان ميناءها هى أهم موانى العالم وأكثرها محطا للسفائن اذ آن متوسط مايرد عليها سنويا يبلغ ٧٠٠٠٠ سفنية مجموع حمولتها ١٢٠٠٠٠٠٠ طونولاطة وقيمة مافيها من البضائع والارزاق يزيد على مائة وعشرين مليونا من الجنيهات الانكليزية أما الاحواض ومخازن التجارة فمن أهم مناظر لوندرة وأبدعها تجعل للناظر (خصوصا اذا وقف على قنطرة لوندرة - لندن بريدج -) فكرة فى أهمية العاصمة الانكليزية وجسامتها واتساع نطاقها بما فيها من المراكب المتراكبة والبضائع المتراكمة والخلائق المتزاحمة ولا يسمح لى المقام بتفصيل قليل عن حركتها الهائلة

وفى المدينة ثلاث شركات متعهدة باضاءتها بالغاز وقد قدره أهل المعرفة بمبلغ ٥٦٠ مليونا من الامتار المربعة وتستهلك للحصول عليه مليونى طونولاطه من الفحم الحجرى وغازالاستصباح هذا يجرى فى قنوات مجموع طولها ٤ مليون كيلومتر وتزيد النفقات السنوية عن ٣٦٠٠٠٠٠ جنيه مع ان المبالغ اللازمة لسقى المدينة بالمياه لاتصل الى نصف هذا المبلغ الجسيم وهنالك شركات كثيرة تألفت للاضاءة بالنور الكهربائى وكان قبل هذه السنة قاصرا على منازل الافراد ومخازنهم ولكنه فى أول هذا العام صار استخدامه فى بعض الشوارع المهمة والميادين الاصلية

ويجرنى الكلام على النور الى الحديث على النار فقد كان رجال المطافئ قبل سنة ١٨٣٣ تحت ادارة شركات خصوصية تجارية أو تابعين لبعض فروع الادارة البلدية وكانت نتيجة هذا الافتراق وقوع أضرار بالغة لانهم فى أغلب الاحيان كانوا يتركون النار تفعل أفاعيلها وتلتهم المنازل التى لم تكن مؤمنة عندهم أو تابعة لهم ولكن هذه الشركات اجتمعت كلها فى تلك السنة واتحدت وامتزجت ببعضها فألفت شركة عمومية واحدة لمقاومة الحرائق واعلم ان لعمالها مهارة لايناظرهم فيها أحد فى الكون الا ماعلمته عن رجال المطافئ فى أمريكا ويستخدمون فى مصلحتهم

١٨ سلكا تلغـرافيا و ٧٥ سلكا تلفونيا يجمع بينها وبين بعضها ٥٥ مكتبا اداريا فاذا شبت النار فى بعض المواضع تيسر لهم أن يستحضروا من الآلات والاجهزة كل مايلزم فى بضـعة دقائق وتتصل مراكز رجال المطافئ بدواوين النظارات والمصالح العمومية والمتاحف والمعارض وغير ذلك من المبانى الاميرية بواسطة ٣٨٥ منولة استغاثة وعدد رجال المطافئ ٧٠٠ ولهم زى مخصوص معروف وعندهم ٤٧ طلمبة بخارية و ٩ طلمبات بخارية عوامة و ٢٢٤ سلم للاستنقاذ من مخالب الحريق وغير ذلك من الاجهزة الكثيرة المتفرقة فى كافة أنحاء المدينة وقد أطفؤا فى سنة ١٨٩٠ حرائق بلغ عددها ٢٥٥٥ منها ١٥٣ ذات أهمية عظيمة ومات فى هذه الحرائق ٤٤ شخصا

وبعـد الكلام على النار يجىء بالطبع الكلام عـلى الماء فاعلم ان المياه اللازمـة للشرب فى لوندرة ليست من نهر التيمس بل قد تأسست شركات عديدة لجلبها من غدران ونهيرات أخرى فى قنوات هائلة مرفوعة على عمدان عظيمة وقباب جسيمة (مثل الدواميس المعروفة بالعيون التى كانت تستقى بها قلعة الجبـل فى الزمان السابق ولاتزال آثارها باقية الى الآن) ثم تنصب المياه فى أحواض واسعة ثم ترشح من قاعها بمرورها على أحجار هشة

تعلوها طبقات من الرمل الغليظ والحصى الدقيق وتبلغ كمية المياه الواردة الى المدينة فى كل يوم بالتعديل المتوسط ٦٧١،٠٠٠،٠٠٠ لترا منها ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ يستعملها الاهالى فى قضاء حوائجهم ولوازم منازلهم فيكون متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكان لوندرة ١١٧ لترا من الماء فى كل يوم

وأستطرد بهذه المناسبة الي الاشارة الى مصارف لوندرة وبالوعاتها فقد كانت كلها تصب فى أول الامر فى نهر التمس حتى جعلته مقرا للاقذار ومنبعا للجراثيم القتالة وأصلا فى تسميم الهواء وسببا فى ازدياد الامراض واتلاف صحة السكان وفتك الموت بهم فتكاذريعا فان متوسط المواد العفنية التى كانت تنساق اليه فى كل يوم يبلغ ٤٠٠،٠٠٠ متر مكعب وفى سنة ١٨٥٥ اجتهد مجلس شورى العاصمة (البلدية) بدفع هذه المضار ودرس مشروعا للمصارف يصرف عن المدينة هذه المخاوف ويلقى بهذه القاذورات الى ماتحت لوندرة بستة وعشرين ميلا فى النهر الى البحر بواسطة طلمبات بخارية قوتها ١٠٠٠ حصان بخارى ولكن هذه العملية لاتحصل الا فى وقت الجزر أى عند نزول مياه النهر فى البحر فيأخذ التيار هذه القاذورات وهذه العفونات بعيدا عن المدينة ويذهب بأضرارها ادراج الرياح وتبلغ كمية المواد البرازية الملقاة بهذه الكيفية فى النهر ٣٢٣٧٣٤ مترا مكعبا فى كل يوم

وليس هذا كله شيأ فى جانب مايمكن أن يقال على لوندرة لكن لابد من الانتقال الى ذكر طرف وجيز على بعض ضواحيها مثل رشمند فانها مدينة صغيرة تختال فى حلل الجمال واقعة على الضفة اليمنى لنهر التيمس وعلى منحدر تلال بهيجة فيها غابات ومنازل خلوية تبتهج العين برؤيتها وفيها قنطرة بديعة وآثار قصر قديم وهى مشهورة بصناعة فطير بجبن يسمونه (بنات الشرف) لان وصائف مليكة الانكليز هن اللاتى اخترعنه وأشهر مافى هذه المدينة هو روضها الاريض الكائن على هضبة فسيحة وفى وسطه برك كثيرة تبدو منها للناظر مشاهد تروق النواظر ويخرج القوم الى هذا الروض للرياضة فى فصل الصيف واستنشاق النسيم الصحيح العليل وخلاصة القول ان وجودها على مقربة من لوندرة نعمة كبرى للنازلين بها والمقيمين فيها بل برهان جديد على ان الانكليز ينتقلون من الطرف الى الطرف ولا يعرفون الوسط

وأما وندسور فهى مدينة تبعد عن لوندرة ٢٢ ميلا تقريبا وعدد سكانها ١٢٢٧٨ وأهم مافيها هو قصر الملكة المعروف باسمها وهو عبارة عن قلعة حصينة ولايشبه قصور الملوك الا بما حواه من بعض الزخرفة والرسوم ولكنه فى نظرى لايضاهى أقل قصر من القصور الملوكية التى شاهدتها بايطاليا بل إن أفخم

مدخنة للاصطلاء فيه هى أقل من أقل مدخنة فى قصور الجيرة والجزيرة ونحوهما مع عدم لزومها فى بلادنا وشدة احتياجهم لها فى انجلترة وقد زرت الاصطبلات والعربخانات الملوكية ولكنى أستغرب كيف ان نفقاتها بلغت ٧٠,٠٠٠ جنيه انكليزى ثم انهم لم يطلعونا على عربات التشريفة الخاصة بالملكة ولكن عربات معيتها وحاشيتها يمكننى أن أقول انها أقل من نظائرها فى المعية السنية وكذلك الخيول فانها وان كانت من الاصائل البالغة فى القوة والجمال ولكنى (وانلم أكن من أهل هذا الفن) أقدر أن أقول انها أقل من الجياد الاصائل التى عند سعادة على باشا شريف وأما بناء الاصطبلات نفسه فأقول ولا أخشى تكذيبا انه أقل زخرفة واتقانا من الاصطبل الجميل الجليل الذى ابتناه حضرة عزت بك القاضى بالمحكمة المختلطة فى سرايه التى بجانب السراى المنيرة وان كان هذا صغيرا جدا فى جانب جسامة تلك

أما الحدائق التى فى القصر وحواليه فهى من أبهى مايراه الانسان وأجمل منها تلك الغابة البعيدة عن مدينة وندسور قليلا المعروفة باسم (ڤرچينيا ووتر) والذى يزيد فى بهجتها انها كانت فى أول الامر عبارة عن مستنقعات تبعث بالعفونة الى الهواء وبجراثيم الامراض الى ماحولها من الجهات فحولوها ونظموها

ودبروا تصريف الماء منها واليها حتى أصبحت جنة تسر الناظرين وسبحان من يغير ولا يتغير تبارك الله رب العالمين

وقبل أن أختم هذه الرسالة أرى من الواجب على ذكر معرض أقامه بعض الافراد فى مدينة لوندرة وسماه (نياجارا هول) ولكنه يفرج الزائرين فيه الآن على مدينة منف عاصمة الفراعنة أيام مجدها وعظمتها ولا أقدر أن أوفى صانع الرسم حقه من المدح على تصوير القصور والاشجار والاصنام والمعابد والنيل والاهرام وأبى الهول والاسرائيليين حين خروجهم من مصر وغير ذلك فانه أبدع كل الابداع حتى ان الرائى يتخيلها مجسمة للعيان بعيدة عن بعضها كما فى الطبيعة بأحسن شكل وأكمل اسلوب وكل ذلك على قطعة كبيرة من القماش تحيط بالمكان الذى يقف فيه المتفرج معجبا بهذه الدقة فى العمل وهذا التناهى فى الاتقان وسأشرح الكلام عليها فى الرحلة ان شاء الله فقد رحب بى صاحب المكان ترحيبا خصوصيا لكونى من المصريين ولكونه من اعضاء المؤتمر وأتحفنى بجميع الاستعلامات اللازمة وأطلعنى على جميع التفاصيل التى لا يطلع عليها الجمهور بما استوجب جزيل شكرانى وجليل امتنانى وأغرب ما رأيته فى ملحقات هذا المكان رجل من اخواننا أبناء الشرق واسمه المعلم الياس ليان حلوة قد برع فى أعمال

النقش على الخشب بالطرق الشرقية القديمة التى كادت تندثر فى هذا الزمان وقد رأيت له من الاعمال ماأدهشنى اتقانها ونظامها وتناسقها مما جعل أهل الفن من الاوروباويين الذين يقدمون الى هذا المكان يعترفون له بالبراعة والاقتدار وقال لى انه يعد جميع هذه المصنوعات لمعرض أمريكا القادم تشريفا للشرق وبنيه ورأيت فيه من العواطف القومية والاحساسات الوطنية مازادنى اعجابى به وفوق ذلك فهو خبير بلعب السيف والنقر على آلات الطرب وقد تأثرت حينما رأيته محافظا على محبة ملته ودولته وعادات أهله وبلدته ووددت لو أن أهل الشرق يلتفتون لصنائعهم ويشجعون القائمين بها لكيلا تزول وتصبح أثرا بعد عين خصوصا لما رأيت أمم الغرب يتفاخرون بصناعاتهم الخاصة بهم وبراعتهم فيها على من عداهم وحكوماتهم تساعدهم على الارتقاء والتفنن فيها حتى يفوقوا أمثالهم فتكتسب بذلك أوطانهم حسا ومعنى مكاسب لاتقدر ووددت أيضا لو كانت ظروف الاحوال تساعدنى على مساعدة هذا الرجل وأمثاله من أهل بلادنا حتى يكون لها بهم وبأمثالهم شأن رفيع فى سوق الحضارة ومعرض العمران الذى سيقوم فى شيكاجو وعسى أن يكون لهذا النداء صدى فى الاوطان لما وراءه من المنافع التى لاتنكر والله يهدى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

الرسالة الرابعة عشرة

السفر من انجلتره الى فرنسا
عن طريق دوفر وكالة
وذكر اميان

مبارحة لوندرة

لقد احترت والله حينما اخترت الانتقال من الكلام على لوندرة بعد الاطالة فى الكتابة عليها والتوسع فى القول عنها بمقدار ماوصلت اليه يدى فى الرسالتين الخاصتين بها فانى لاأزال أجد للشرح مجالا يستغرق رسائل ضافية الذيول بل مجلدات تملأ المكاتب وتشحن الاذهان بالغرائب وتذكر من يتذكر بما يمكن الانسان أن يصل اليه بالاجتهاد بمفرده أو مع استعانته بابناء جنسه وتجلو على أبصار أولى البصائر بعض ماأودعته القدرة الالهية فى العوالم الطبيعية من القوى التى يتوصل العقل لاستكناه خباياها واستكشاف أسرارها ولكنى أرى بالرغم عنى وجوب الانتقال من هذا الموضوع مع ماأتيته فيه من التقصير مضافا الى مافى ذهنى من القصور

التعصب المطلق والتساهل المطلق

على أنى لاأرى لى مندوحة فى إغفال حادثة خطيرة وقعت بالمدينة قبيل مبارحتى لها فلا بدلى من ذكرها فى هذا المقام ولولتأييد ماقلته عن هذه الامة من ميلها للاطراف وغرامها بالتناقض فى كل الاحوال الادبية بل والمادية فقد سبق لى اثناء الكلام على دياناتهم

انهم يحترمون جميع المذاهب والعقائد ولكنهم يبغضون المذهب الكاثوليكى بغضا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف وانهم يكرهون البابا كراهة التحريم فاسمع الآن ما حصل اثناء انتخاب اللوردامين المدينة

اجتمع رؤساء الطوائف وأكابر التجّار لانتخاب شيخ لهم فكان المختار هو المسترستوارت كيلّ فقام البرتستانت واعترضوا وصخبوا ولجوا بالسخط وهاجوا وماجوا وكتبوا استرحامات كثيرة وقع عليها الالوف والالوف من أهالى لوندرة يسألون فيها الملكة ان لاتوافق على هذا التعيين وتصدر أمرها باعادة الانتخاب فانعقدت جمعية لفصل الخلاف فقال قائل منهم مانالت لندرة حريتها وما تمتعت بامتيازاتها الا بعد ان أهرق البروتستانت دماءهم فى هذا السبيل فمن العار على العاصمة أن يكون شيخ مشائخها منتميا الى الكرسى البابوى وعضده فى هذا الرأى كثيرون من المجتمعين ولكن المعتدلين فازوا بالغلبة بعد أن طالت المشاحات وتعارضت المشاحنات فانهم قالوا قد امتازت انجلترة بحب الحرية فى العمل وان لوندرة مدينة الحرية الدينية وهذه المشاجرات لاتليق بامثالهم فقد سبق أن كان شيخ مشائخ لوندرة اسرائيليا فكيف يجوز ذلك ولايصح فى شرع المنصفين أن يكون كاثوليكيا فالزمتهم الحجة وتقررت الرئاسة للرجل ثم اذا نظرنا الى

المختار نفسه نراه أشد تعصبا من خصومه فقد قرر أنه لايعترف الا بالبابا ثم بالملكة وهى كلمة لم يجسر على التفوه بها من قبله انسان ولذلك رفض الحضور الى كثير من الاجتماعات الدينية جرت العادة بان يحضرها اللورد امين المدينة منذ القديم وقد أبى أن يذهب بموجب وظيفته الرسمية الى الكنيسة الفلانية والمعبد الفلانى وقد أصر فى عدم الذهاب بنفسه وفى ارسال مندوب من قبله فانه اشترط عليهم ان لايكون له معاون ينوب عنه فى هذه الامور الرسمية فهلا ترى من أغرب الغرائب شدة تمسك أولئك وعدم تنازل هذا الى هذه الدرجة حتى كان كل من الفريقين على طرفى نقيض بحيث يكاد الانسان يثبت الحق للبروتستانت فى اعتراضهم على نصب شيخ يأبى ان يسايرهم الى هذا الحد فى شعائرهم الدينية ولو حرمة للعادات القديمة والاصول المرعية

نفقات أمين مدينة لوندرة

ولما كنت فى باريس وافتنى الجرائد فى ١٠ نوفمبر منبئة بانه فى اليوم الماضى قدتم الاحتفال بتثبيت اللورد أمين المدينة فى هذه السنة ولكون الرجل من الكاثوليكيين وهذه أول مرة انتخب فيها كاثوليكى للقيام بهذه الوظيفة المهمة عقيب الانشقاق الذى جعل للمذهب البروتستانتى السيطرة فى انجلتره كان للاحتفال أهمية خصوصية وقد بلغت اكلافه ٢٥٠٠٠ فرنك وهذا

الرجل (ستوارت كيل) من الثروة والغنى والعلم بمكان ولكنه مهما كان ايراده لايمكنه أن يقوم بالمصاريف الباهظة التي يستوجبها مركزه اذا لم تساعده لجان الطوائف الحرفية والصناعية فى لوندرة والدليل على ذلك أن سلفه فى السنة الماضية صرف ٣٠٠٠٠ فرنك فى أمور متنوعة وقد بلغت ولائم الغداء والعشاء التى أقامها احتفالا باللجان الرئيسية لمدينة لوندرة ١٠٠٠٠٠ فرنك وبلغت نفقات الوليمة التى أعدها احياء لعيد الملكة ٣٧٥٠٠ فرنك وأما المأدبة التى أقامها ابتهاجا بنجاة البرنس دوغال من المرض فقد بلغت مبلغا يفوق حساب الحاسبين فانها أوجبت عليه صرف ٦٧٥٠٠ فرنك مع ان مرتب الوظيفة فى السنة هو ١٠,٠٠٠ جنيه انكليزى ليس الا

هذا وقد قمت من لوندرة فى مساء ١١ اكتوبر وركبت القطار بالليل كما جرت عادتى للاستكثار من الوقت وعدم ضياع الفرص هباء منثورا فوصلت مدينة دوفر فى منتصف الليل وكان فى امكانى ركوب متن البحار والتوجه توا الى فرنسا ولكننى آثرت رؤية دوفر وتمضية نصف نهار بها كى أودع فيها انجلترة بعد أن أشاهد ماخلفه الرومان فى هذه المدينة الساحلية من الآثار وما أحدثه الانكليز من موجبات التحصين والدفاع فعولت على النزول بها وما افتر ثغر الصباح حتى تجولت

فى المدينة وطفت انحاءها مع دليـل من أهلها واليـك ماوقفت عليه فيها بالاجمال

عموميات على دوفر

هذه المدينة لايزيد عدد سكانها عن ٣٠٢٧٠ من النفوس وهى ذات موقع معجب فى نهايته واد رائق وتعلوها أجراف عالية من الصخور تحيط بها من كل الجهات وكان أول شئ عنيت به بعد التجوال فى طرقاتها وميادينها انى صعدت على جبـل عال فوقه قلعـة حصينة ترتفع عن مستوى سطح البحر بثلاثة وتسعين مترا ورأيت فيهـا كثيرا من المبانى القديمة الرومانيـة ممتزجة بصروح أقامها الانكليز لتكميل وسائل الدفاع فى هـذه النقطة الحربية المهمة وأقدم جزء فى هذه القلعة الممتدة بغير انتظام على مسافة ١٤ هيكتارا هو البرج الرومانى وارتفاعـه ١٢ مترا وشكله ثمانى من الخارج مربع من الداخل وليس فيه سلالم تسمح بالصعود الى قمتـه وقد وضعوا فيـه ناقوس الكنيسة العسكرية التى الى شرقيـه وربما كان الرومان يستخدمونه فى ارسال النور الى المراكب القادمة بالليل وفى المخابرة معها برايات الاشارات حينما يكون قدومها بالنهار أما الكنيسة فان أساسها يدل على انها من صنع السكسونيين (قـدماء الانجليز) وهى من أقـدم العمائر

الدينية التى فى بلاد انجلتره وأما المبانى النورماندية فهى كثيرة جدا وأهمها صرح يرى على مسافة بعيدة فى البحر وقد كانت الشمس طالعة فتيسر لى رؤية شطوط فرنسا بارشاد الدليل قبل منتهى الافق بقليل وقد توجهت الى قشلاق هنالك ورأيت العساكر فى حالة التعلم والتمرن على الحركات ولم أستنكف من زيارة المطبخ بل اننى عجبت بنظافته واتقانه وجودة المأكولات المخصصة للعساكر الانفار مما يغبطهم أو يحسدهم عليه آلاف وآلاف من أهل انجلتره الذين يموتون جوعا ثم زرت خزانة السلاح وما فيها من المخلفات الحربية والغنائم التى أخذها الانجليز من أعدائهم فى ساحات الوغى البرية والبحرية ورأيت فيما بين المدافع الكبيرة مدفعا طويلا أرسلته احدى ملكات هولاندة (الفلمنك) هدية لانكلترة وعليه أشعار منظومة على لسان حاله بمعنى انه يرسل القلل الى الاعداء فيردهم على أعقابهم خاسرين ويبعث بمقذوفاته الى القلاع والحصون فيتلقها عن آخرها ثم نزلت من طوابى هذه الروابى الى أهم ميدان فى المدينة فرأيت موسيقى تصدح فى ضحى النهار وعلمت أن مجلس البلدية هو القائم بنفقاتها لايجاد الطرب والانشراح فى المدينة على الدوام

حال المفارق وطنه والقادم عليه ومن لايزال بعيدا عنه

ولكننى لم يسمح لى وقتى بتشنيف آذانى الشرقية بنغماتها الغريبة لان القطار حضر من لوندرة وفيه جماعة المسافرين الى قارة أوروبا فلحقت بهم واتبعت خطواتهم حتى وصلنا السفينة وتبوأ القوم مقعدهم منها وأخذت أطوف جوانبها وأعلو ظهرها لرؤية المناظر وتعهد ماحولى من المعاهد وما هو الان أبحرت (أو أبخرت) حتى رأيت أغلب الحاضرين قد انقسموا قسمين بقى بعضهم فى مؤخرها وذهب الآخرون الى مقدمها وكان الفريق الاول يطيل النظر الى المدينة وأطرافها وابراجها والفريق الثانى يحدق النظر والنظارات الى الامام والى أقاصى الافق وبقيتُ أطوف ذات اليمين وذات اليسار وأدفع بخطواتى الى الامام ثم أكر راجعا الى الخلف الى أن أدركت بعد سماع تلاغى الفريقين ان أهل الخلف من أبناء الجزيرة يحيون بلادهم ويتزودون منها بنظرة أخيرة وان أهل الامام اشتد بهم الهيام للتعجيل برؤية بقاعهم ولكن الضباب يصحبه السحاب انتشر بأقرب من لمح البصر فكان يحول دون ادراكهم الوطر غير انه لم يثن عزيمتهم عن التكرار فى اطالة الانظار وانشاد الاغانى والاشعار والترنح لقرب الوصول من الديار واستمر الطرفان على هذا الشان حتى انتصف الطريق فتبدت صخور فرنسا

وشطوطها كأنها أشباح تتظاهر فى ظلال الجبال وحينئذ أخذ
الانكليز يقتربون من أواخر السفينة بقدر ما أمكنهم مستعينين
بآلات التقريب كأنهم يسألون تلك الجزيرة بل الام الحنونة
ان تبقى محافظة عليهم مراعية لهم فى غربتهم ناشرة لواء حمايتها
عليهم أينما حلوا وأينما ساروا وأما أنا فكنت فى هذه الحال
أرسل اشعة القلب وانظار الفؤاد الى ديار ألفتها وربوع نبت بها
وأقوام ترعرعت بينهم قد شبوا على المكرمات واستقوا من نيل
الكمالات فحييتهم على البعاد تحية ممزوجة بخالص الوداد والاخلاص
وكافت النسيم بالتسليم على خير أمة أخرجت للناس

منظر المطر فى البحر

ولما اقتربنا من شطوط فرانسا رأيت فى الافق شيأ يشبه
الاحبال والاسلاك قد وصلت بين الارض والسماء وبعد تحقيق
النظر علمت انه المطر فبقيت أتأمل فيه وأسبح مرسله ومنشيه
حتى ألقت السفينة مرساها وقد كان باسم الله مجراها ومرساها
فان البحر كان برا بنا ولم يمسسنا بأدنى أذى والحمد لله

دخول فرنسا

ولما نزلت بكاله فضلت التعريج على أميان على التوجه الى
باريس لكى أزور كنيستها الجامعة التى طارصيتها فى الآفاق
فأمضيت الليلة بها ولما جاءت كتائب النور برزت فى طليعتها

وطفت المدينة ومتاحفها ومكاتبها وآثارها مما لا أجد مندوحة
عن الاشارة اليه بالايجاز فى هذه الرسالة كما سيأتى

عموميات على أميان

هذه المدينة متقادمة فى العهد بحيث لايتيسر لاهل التاريخ
تعيين الوقت الذى ظهرت فيه ولا معرفة الذين وضعوا قواعدها
ورفعوا معالمها واهالى تاريخ فرانسا الحربى نخر أثيل وذكر جميل
وقد توجه أهلها فى الزمان العتيق لمحاربة انطيوخوس ملك الشام
ورجعوا حاملين ألوية التمدن مما اكتسبوه فى آسيا من العرفان -
وعدد سكانها الآن ٨٣٦٤٩ نفسا وفيها جمعية للفنون الادبية
وبستان للتجارب ومدرسة زراعية عملية وفيها ادارة تلتقط الاطفال
والايتام والمعتوهين الفقراء وتقوم بلوازمهم وفيها برج قديم مظلم
اسمه بفروا قد التهمته النيران فى كثير من الاحيان وهو حبس
للبلدية وفيه ربيئة يقيم به على الدوام للانذار بما يقع فى المدينة
من الحرائق فاذا رأى آثار النار فى احدى الديار دق جرسا زنته
١١٠٠ كيلو جرام فيبادر رجال المطافئ لاخماد أنفاسها وتلافى
اتلافها وهم يستخدمون هذا الجرس أيضا فى المواسم والاحتفالات
وفيه ساعة كبيرة جدا لتعيين الوقت بصفة رسمية وقد صعدت الى
قمته ولكن ظلمته الداخلية أحدثت فى انزعاجا لايمكنى أن أصفه
الآن مع ان شكله من الخارج أنيق ومنظر المدينة من أعلاه

رشيق فلله هذا البرج قد جمع بين الانذار بالشرور والتبشير بالسرور وجوفه مستودع للظلام وجسمه محفوف بالنور وأما المكتبة العمومية المعروفة بمكتبة الخط (بضم الخاء) فان أهميتها تزيد عن حاجات المدينة اذ فيها ٥٠٠ كتاب بخط اليد وأكثر من ٨٠٠٠ مجلد مطبوع ومما يستحق الذكر فيها ان أرملة الكونت روليسكاكير (وهو من أبناء المدينة) تبرعت للمكتبة بجميع الكتب التى خلفها زوجها (وقدرها ١٠٠٠٠ مجلد) مع مايتبعها من الدواليب والادراج والتحف القديمة والصور الثمينة وأغلبها له علاقة بالرموز النصرانية والمخلفات الدينية العتيقة والقسم المهم من هذه الكتب هو عبارة عن مجموعة للسياحات فى الارض المقدسة وفى الكتبخانة تماثيل كثيرة لأهم رجال المدينة الذين خدموها وأخص بالذكر منهم تمثال الموسيو بوفيلالى وسأتكلم عليه بعد قليل وقد رأيت فى الحديقة العمومية بهذه المدينة جذع شجرة نخرة عليها بعض أغصان نضرة وفيها تجاويف كما يشاهد فى الاشجار العتيقة التى نزل بها البلى وما زالت فيها قوة الحياة ولكن هذا الجذع وهذه الاغصان ليست الآمن الصاج والاسمنت اصطنعها بعض المتفننين بناءعلى اختبار جعلت له المدينة مكافأة عينتها وقد رأيت فى دار بعض الافراد تمثالا

نخيما من المرمر الناصع يمثل وجهاء المدينة وعظماءها الذين فاقوا غيرهم فى فنون الرسم والعمارة والتصوير اصطنعه ذلك الرجل على نفقته بقصد وضعه فى الميدان العام ولكن المجلس البلدى رأى من المحذورات مايمنعه عن قبول هذه الهدية النفيسة فوضعها الرجل فى داره بحيث يراها المارة

وقد رأيت فيها ملعبا للخيول والحيوانات المستأنسة (سيرك) وكان مبنى بالآجر ولكنه مكسو بطبقات من الاسمنت بحيث تمثل للناظر انه مشيد كله بأحجار النحت والدستور والرخام وهو من الاهمية بمكان عظيم ينطق بما لمهندسيه من المهارة والجراءة والاقدام فانهم نظموه بحيث يمكن بسهولة وقتية تحويله الى قاعة فسيحة مثل القاعات التى فى قهاوى الملاهى والمغانى وتسع ٣٥٠٠ متفرج وأما زخرفة الجدران فحدث عنها ولا حرج وأما تراكيب الحديد المستند عليها السقف من غير ارتكاز على الارض فى قاعة بهذا الاتساع فانها تدهش الناظر بل تخيفه وتلزمه الاقرار بابداع الصانع وهى مرتبة بحيث يمكن للجمهور الخروج منها فى برهة قصيرة اذا وقع اضطراب أو حدث طارئ وهى تضاء بالليل بالنور الكهربائى ترسله اليها آلات موضوعة تحت الارض فى غاية النظام والاحكام

ودخلت فى ملعب آخر أقامه بعض الافراد لعرض الحيوانات المفترسة وتسخيرها فى الالعاب امام الجمهور وانما أردت بهذه الاشارة تنبيه الاذهان الى صاحب هذا الملعب فانى سأشرح الكلام عليه فى الرحلة وأبين ماناله بالجد من المجد حتى صار شيأ مذكورا ونال الرعاية من الملوك والامراء بعد ان كان فقيرا معدما ويتيما مهملا

وقد استخدمت السكة الحديدية بعض الخنادق التى كانت حول المدينة لمسير قسم من طريق القطارات فيها والبعض الآخر نظموه سككا ودروبات سلطانية كما فى باريس وأغلب مدائن فرنسا

تجارة أميان وصناعتها

وتدور تجارة المدينة وصناعتها على الاقمشة من جميع الاشكال والانواع والقطيفة الخاصة باللباس وبالاثاث وغير ذلك وفيها مغازل للكتان يشتغل فيها نحو ٣٠٠٠ من العمال وأما مغازل الصوف فيشتغل فيها ١٢٠٠ عامل وفيها غير ذلك من أنواع التجارة وأصناف الصناعة مما لاحاجة لذكره

التعليم باميان

وفيها أماكن لتعليم الالمانية والانكليزية للرجال والنساء مجانا فى ساعات معينة وأيضا لتعليم الميكانيكا التطبيقية ورسم صور الآلات وقانون التجارة وفن التشريع الصناعى وفن امساك الدفاتر فى الصنائع والجغرافيا الصناعية والنسيج بالنظريات والنسيج العملى

وتطبيق الكيمياء على الصباغة وفن الصباغة ومعالجة الاصباغ والموسيقى وفن تفصيل القطيفة وغير ذلك مثل الرسم الابتدائى والتصوير بالجبس ونقش الاحجار والرسم التقليدى والتشريح وتاريخ الفنون والرسم العملى والرياضيات وفن الرسم (لاجل البنات) الخ وليس على الطالب الآن يشعر كاتب أسرار أمين المدينة لنوال تذكرة يكون دخوله بمقتضاها فى الاوقات المعينة — وفى المدينة مدارس منتظمة للعلمين والمدرسين (بدرجاتها الثلاث) وللفنون الصناعية والحرفية وفيها ١٦ مدرسة ابتدائية للصبيان و ١٧ للبنات و ١٠١ مدرسة للامهات ومدرسة لتعليم الصنائع الخاصة بالحديد والاخشاب وأخرى للطب والصيدلية وأخرى للموسيقى وأخرى للفنون المنزلية الخ

عموميات على أميان

وفى اميان كثير من التكايا المخصصة للطاعنين فى السن من الذكور والاناث والايتام والاطفال الذين يتركهم أهلهم بعد الولادة وللمصابين بالادواء العقيمة العضالة وللمعدمين من الجنسين وكفيفى البصر أو المصابين بأمراض فى عيونهم وغير ذلك

وفيها بستان للنبات يحتوى على قاعات للتاريخ الطبيعى وعنابر لتربية نباتات البلاد الحارة وتعطى فيه دروس عمومية فى علم النبات

وفى المدينة ٥ جرائد يومية و ٧ أسبوعية منها واحدة نصف أسبوعية وواحدة دينية وواحدة زراعية وفيها غير ذلك من المنشورات الدورية شئ كثير وفيها ثلاث متاحف أحدها عام للفنون والصنائع والثانى خاص بالاطيار والثالث للتاريخ الطبيعى وسأتكلم عليها فى الرحلة ان شاء الله

وفى المدينة خمسون قنطرة تصل أطرافها ببعضها لان نهر السوم يشقها من أولها لآخرها وأهمها سبعة

تكية المجاذيب والعميان

ومن أهم ماينبغى ذكره ورؤيته فى هذه المدينة دار المجاذيب وتكية العميان فان المسيو بوفللى أوصى عند موته بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لتشييد البيمارستان وبمثله لانشاء تكية للعميان يكون فيها أقسام للمتزوجين وأخرى للعزاب والارامل من الجنسين ومدرسة للبنات وأخرى للصبيان وقدزرت تكية العميان بنوع خصوصى لانتشار الرمد فى بلادنا وتفقدت كل مافيها من الترتيب والنظام بارشاد حضرة ناظرها فانه هش للقائى ورحب بى وقدم لى كل ماطلبته منه من البيانات ولكن لايسمح لى المقام بسردها الآن فادخرها الى مابعد وأتكلم على الكنيسة الجامعة وبها تكون خاتمة رسالتى هذه

الكنيسة الجامعة بأميان

أول من أدخل الديانة النصرانية الى هذه المدينة رجل اسمه القديس فيرمان فى سنة ٣٠١ ثم حكم عليه بضرب عنقه فى سنة ٣٠٣ فى قصر قديم من بناء الرومان وبعد ذلك دفنت جثته خارج المدينة وهو أول أساقفة أميان ثم توالت الايام وتناسى الناس خبر ذلك الذى جاء مبشرا بالانجيل حتى ظهرت كرامات على مايرويه القوم وتتناقله الافواه فاستدل بها الاسقف التاسع واسمه القديس سوق على قبر القديس فيرمان ولذلك تبرع أهل أميان والمدن المجاورة لها بهدايا كثيرة وتحف نفيسة لبناء كنيسة جامعة من الخشب داخل المدينة باسم القديس فيرمان فجاء النرمانديون (ويعرفون عند عرب الاندلس باسم المجوس) فى سنة ٨٨١ وأحرقوها فأعادها أهلها ثم التهمتها النيران واستمر الامر على هذا الحال من تعمير وتدمير حتى كانت سنة ١٢١٨ فاحترقت عن آخرها ولم يبق لها أثر فى الوجود فلم تمض سنتان حتى شرع القوم فى وضع الحجر الاول من الكنيسة الحالية وفى سنة ١٢٥٨ حصل حريق أتلف بعض أجزائها ووقعت الصاعقة فى سنة ١٥٢٧ على ناقوسها فحطمته تحطيما ولكن أهلها رمموا ذلك وأصلحوا ما أفسده الدهر ومسطح الارض التى تشغلها الآن عبارة عن ٨٠٠٠ متر وسهمها يرتفع عن أعلى نقطة من سطحها ٤٤ مترا ونصف متر وفوقه صليب من الحديد

ارتفاعه تسعة أمتار وفيها من الداخل ١٢٦ سارية تتكئ عليها قبابها وعقودها وأما شبابيك الزجاج ففيها تصاوير وألوان تدهش الانسان وكذلك الارغن والوردات الزجاجية الهائلة التى تمثل الفصول الاربعة وفيها كثير من قبور المشاهير وتماثيل القديسين وأما منبر الوعظ والخوروس فهما اعجوبة من أعاجيب الصناعة بما فيهما من التفنن فى النقش على الخشب فانهما يصوّران للناظر جميع ماجاء فى العهد العتيق من الحكايات والوقائع تمثيلا باتقان واحكام ومن أغرب مارأيته فى هذا الخشب الغريب ان النقاشين تركوا فيه بعض قطع طويلة متصلة به من الطرفين وهى فى هيئة الاوتار فاذا غمزها الانسان باصبعه أخرجت صوتا مطربا لطيفا واذا نقر عليها الماهر فى صناعة الموسيقى ربما أمكنه ابراز بعض الانغام بايقاع متناسق متناسب كما هو فى الآلات المعدة لذلك وكل هذا الخشب من الجودة والمتانة بمكان عظيم وقد كانت أجرة الصناع فيه من ٤ الى ٩ مليم فى اليوم الواحد ويخيل للناظر اليه أن الغبار مخيم عليه ولكنه بعيد من ذلك بل انه نظيف جدا واذا لمسه الانسان لايتلوّث أصبعه بشئ من السواد وقد قال لنا الخادم ان ذلك الشئ الشبيه بالغبار له سبب فى التاريخ وذلك انه لما وقعت احدى الثورات بفرنسا خشى أسقف الكنيسة

على هـذه المصنوعات الجميلة من أن تتطاول اليها أيدى العوام فيبددونها ويهشمونها فأحضر كثيرا من الهشيم والبرسيم وشحن به الكنيسة من أولها الى آخرها وبقيت مخزنا بهذه الكيفيـة مدة طويلة من الزمان أوجبت تداخـل الغبار فى جزيئات الخشب واكتسابه هذا اللون الباهت الذى يشاهد عليها الآن وخلاصة القول ان هذه الكنيسة من أجل وأبدع وأكمل وأبرع مارأيته للآن فى سـياحتى بل هى فى هذه المدينة كدرة يتيمة تحسـدها عليها رومة وفى هذه الكلمة من مدحها مايفى بالمرام لمن شاهد أوعلم جمال الكنائس فى عاصمة النصرانية والسلام

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

من لى بباحث فى أخلاق الانسان يكون قد وقف نفسه على درس الحيرة والاضطراب وتحقيق تأثيرهما وتعرّف تنوعاتهما وقد حضرنى حينما عوّلت على كتابة هذه الحروف وأعددت القلم والقرطاس واستفتحت بتحرير ديباجة العنوان ثم أبقيت يدى معلقة فى الفضاء والقلم بين أصابعى فى الهواء وأعينى شاخصة تنظر ولا ترى وأسنانى تصطك اصطكاكا متواترا وشفاهى يتلاعب بها الاختلاج من غير انتظام ثم تقع السفلى منها بين الاسنان فينبهنى الالم فأضع القلم وأرفع يدى الى جبينى كأنى أعصره عصرا لاستخرج التبيان منه قسرا ثم أسكن بها فكرى طورا وأرجع لحالتى الاولى من امساك اليراع وامساك الذهن حتى كدت أعافى نفسى من الخوض فى هذا الموضوع لولا سبوق الوعد فى الرسالة الثامنة بتلخيص وجيز على باريز يعرف القارئ بها ويصف له بعض أحوالها ويقص عليه شذورا من أنبائها

وما مصدر هذه الحيرة وحقك عجز عن التسطير أو احجام فى ميدان التحرير والتحبير ولكن هى المواضيع انهالت علىّ انهيالا

هالني وتزاحمت تزاحما تراخت معه عزائمي حتى أشبهت (هي) أقواما احتشدوا في دار شبت بها النار فطفقوا يتسارعون للخروج من باب ليس لهم سواه وصاروا يتدافعون ولا يعلمون انهم يتمانعون وأنهم عما قليل هالكون فقام فيهم شيخ فطين ونبههم الى هذا الخطر المبين وحثهم على التؤدة والسكينة للنجاة من هذه المصيبة العظيمة فأراعوه السمع وسلموا كلهم من الروع وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

فعن لي حينئذ أن أقتدي بهم وأذكر الحيرة في الابتداء ثم التوصل للاهتداء بقسمة المواضيع الى مطالب أتكلم فيها على باريس من جملة وجوه بحسب ما وصل اليه جهدي ووقفت عليه بنفسي

كلمتان على باريس

يقول أهل هذه المدينة انها الآن وستكون على مدى الازمان حاضرة الحضارة والعمران ومدينة المدنية في كل ميدان لا يضيرها اضطراب السياسة فيها أو انشقاق الاحزاب بين أهاليها وأن الاجانب يفدون اليها وسيتقاطرون عليها اذ ليس في العالم الا باريس واحدة (وأنت تعلم أن في احدى الواحات المصرية قرية حقيرة تسمى باريس - فيالله من هذا التناقض) وأن من

أقصى أماني الاغراب ان يتمتعوا أنظارهم بمجالى محاسنها ولاسيما أهل الارياف والاقاليم فى فرنسا فانهم يرون وجوب المجيء اليها خصوصا بعد الزواج ليقضوا بها (هلال العسل) وليس ذلك الا لانها تفردت عما سواها وفاقت على ماعداها بما جمعت من أسباب اللهو ووسائل الانشراح وازاحة الخاطر وتمضية اويقات الصفاء والهناء وخلاصة القول انها مركز للجذب العام وفتنة لجميع الانام

هذه المدينة يشقها نهر السين الى نصفين يكادان يكونان متعادلين وهى منقسمة الى ثمانين خطا (بضم الخاء) فى عشرين قسما على رأس كل قسم رئيس يعرف بامين المدينة (شيخ البلد) وثلاثة مساعدين وعلى رأس الجميع موظف عال لتبعه مأمور ضبطية السين وعليه القيام بوظيفة الامين العام (شيخ عموم البلد)

وعدد سكانها ٢,٤٢٢,٦٦٩ نفسا ومسطح البقعة التى تشغلها من الارض فيما بين الحصون التى حولها عبارة عن ٨٠٠٠ هيكتار وطول محيطها ٣٤ كيلومترا والحصون عبارة دائرة مزدوجة طولها ٣٤ كيلومترا و ٥٣٠ مترا وفيها ٥٦ بابا للمدينة و ٩ معابر تمر منها السكة الحديدية ومعبران لنهر السين وآخران لترعتين . وطول الطرقات العمومية فيها هو ٨٨٨,٠٠٠ متر ومسطحها عبارة عن ١٥٣٢ هيكتارا وفيها

أكثر من ٨٢٫٠٠٠ دار . وميزانيتها فى السنة تبلغ ٢٨٠ مليونا من الفرنكات (١٧٦٩٣٨ جنيها مصريا تقريبا)

ولما كانت الكوليرة ضاربة اطنابها بها فى الصيف الماضى تكبدت المدينة نفقات باهظة فى رش السوائل المطهرة فى الطرق العمومية ولغسل أماكن القاذورات والمباول فى كل يوم من أيام الوباء حتى بلغت المصاريف ٤٫٣٠٠ فرنك فى اليوم الواحد وقد بلغت مصاريف التطهير وتنقية الهواء فى المدارس التابعة للمدينة ٨٫٠٠٠ فرنك وقد كان مجموع المصاريف التى أنفقت بهذا السبب فى فترة اجتماع المجلس البلدى ٥٧٫٠٤٦٫٦٧ من الفرنكات

متاحف باريس

أول شئ تنساق اليه اقدام السائح الذى يقصد الاطلاع على الغرائب ومشاهدة الطرائف انما هو المتاحف واحقها بالتقديم هو متحف اللوفر فانه يحتوى على أكمل مجموعة فى العالم من حيث الفنون الصناعية وقد كان انشاؤه فى قصر اللوفر فى سنة ١٧٩١ بأمر من الجمعية الاهلية فجعلوه مقرا لجميع الاعمال الغريبة التى كانت متفرقة فى قصور الملوك ثم جاء اساتذة الفنون المتقنين وحلوه

برسوماتهم ونقوشهم وكثر المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الاشكال حتى أصبح من أكمل وأجمل متاحف الدنيا وانى أشير الآن بالاجمال الى ما فيه من الاقسام فان التفصيل يكاد يكون من المستحيل - فيه قسم للتماثيل والانصاب من الرخام (ومنها الزهرة إلهة الجمال لميلو ثمنها ٦٠٠ ألف فرنك) ومن النحاس من صنع الاقدمين أو محاكاة لهم وفيه نقوش دينية على المرمر وأبواب هياكل ومعابد ثم نقوش وكتابات رومانية بارزة وفي احدى قاعاته إناآن كل واحد منهما من حجر واحد ومتباعدين عن بعضهما نحو ٣٠ مترا واذا تكلم الانسان فى احدهما سمعه صاحبه من الثانى وهذا من غرائب الصدى وليس لهما من مثيل الا فى أمريكا وفيه قاعات لاوانى الفخار وللوح الرسم والتصوير مما وراء العقول ولا تسلنى الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف وفيه متحف للجزائر وآسيا الصغرى وخلاصة القول انه فى باريس كالدرة اليتيمة فى القلادة الثمينة - وفى الدور الثانى منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وادواته عند جميع الامم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومداثنه اهداها له دولسبس وفيه متحف

صينى - أما أثمان الاعمال التى فيه وزخرفة القصر فهى من قبيل ماورد فى ألف ليلة وليلة

أما متحف لكسمبرج فهو مخصص لحفظ رسوم المتفننين العصريين ونقوشهم وعلى بابه تمثال بهيئة فرنسا وهى تقدم أكاليل الفخار الى الهتى النقش والتصوير وفيه كثير من النقوش فى الحجر والرخام والرسوم على القماش مما يقضى بالعجب العجاب

أما متحف الحامات ودار كلونى فيمتاز عن السابقين بانه مخصص لكثير من المجموعات المحتوية على آثار الاقدمين ومخلفاتهم النفيسة من كل نوع ومن أعمال أمم مختلفة - وقصر الحامات هو أقدم العمائر فى هذه المدينة حتى اننى حينما شاهدته تنكرت اننى فى باريس وتصورت أننى فى رومة خصوصا عندما دخلت فى قاعته الكبيرة الباقية الى الآن فى غاية الحفظ والصيانة تحت قبتها العتيقة الفسيحة ويقول بعض المؤرخين ان يوليان المرتد نودى به امبراطورا رومانيا فى هذه القاعة (سنة ٣٦٠ ق م) وفى المتحف الآن أكثر من ١٢٠٠٠ قطعة معروضة على الانظار وكلها من الفائدة والاهمية بمكان اذ تحتوى على كثير من أمتعة القدماء وأبسطتهم ومنسوجاتهم وعلى عربات مذهبة كان يستعملها الملوك فى القرون الوسطى وبعضها يجره الجياد وبعضها مما يحمله الرجال

على الاعناق ولا أظن ان فى متاحف المدائن الاخرى مجموعة تعادلها وفى الدور الاول من هذا المتحف مجموعة من الاسلحة والدروع والدرق والمجنات والخوذ للقاتلين وللخيول ومن الاوانى المعدنية ثم مجموعة من الاوانى الخزفية (وفيها مجموعة من صناعة رودس وأخرى أندلسية) والمينا والخشب المنقوش المحلى بالصور الباهية ومجموعة من الاقداح والاكواب والقازوزات والقارورات وفى هذا المتحف غرفة تحتوى على مجموعة من المصنوعات العبرانية أهدتها البارونة ناتالى دوروتشيلد من ضمن ما فيها تمثال لتابوت العهد على هيئة دولاب وشمعدانات ذات سبعة فروع وثمانية وتسعة وكلها من الخشب المنقوش والفضة الخالصة والنحاس الصافى وفى المتحف خلاف ذلك من صناديق القدماء وأسرة الملوك والاوانى المتخذة من خشب الابنوس وسن الفيل ورقع الشطرنج والبلور الصخرى والساعات ومفارم الدخان والمفاتيح والسكردانات والمناقد وكرة أرضية من نحاس مذهب والاقفال والاغلاق والدرابيس والمصاغات مثل تيجان الملوك القوطيين وأكاليل الابريز الخالص الاصم المحلاة باحجار الصفير والدر العديم النظير ومذبح (من أقسام الكنيسة) من النضار الدقيق المطروق بصناعة واتقان والاساور

والخواتم وورد من الذهب وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه وتحار الافكار من مشاهدته منضودا محفوظا كما كان وكأحسن ما يكون .

أما قصر الحمامات فقد كان بناؤه فى سنة ٣٠٠ ميلادية بامر الامبراطور الرومانى كونستانس كلود ثم اتخذه ملوك فرنسا فيما بعد سكنا لهم مدة من الزمان ولما تركوه اشترى أطلاله أحد القساوسة وبعد ذلك اشترته مدينة باريس واحاطته بحديقة لطيفة وجعلته مقرا للتماثيل الرخامية والحجرية التى أقيمت فى باريس فى العصر الذى شيد فيه القصر وأطلق عليه اسم قصر الحمامات إذ لم يبق من معالمه سوى قاعة الاستحمام وفى البستان كثير من الانصاب والعمدان أغلبها كانت فى القصر أيام كان يسكنه القسيسون ومن أهم مافيها صليب من الحديد انتزعه الفرنساوية من كنيسة سان والدمير بمدينة سبا ستبول وغير ذلك

وأما متحف الآلات والفنون الصناعية (ويسمى أيضا بالحفظ الاهلى للفنون والصنائع) فقد أقيم فى مكان كنيسة قديمة وأضيف اليها جملة قاعات كثيرة وعلى بوابته تمثالا العلم والصناعة وفيه مكتبة تحتوى على ٣٠٠٠٠ مجلد خاصة بتطبيق العلوم والفنون على الصناعة وفى احدى غرفه رسم بعض المجيدين فى

التصوير تماثيل الصناعة والرسم والتصوير من جهة والعلم والطبيعة والكيمياء من جهة أخرى وفيه معامل للكيمياء والطبيعة وتعطى فيه دروس ليلية فى العلوم وتطبيقها على الصنائع مجانا لكل طالب يقوم بها رجال من أشهر النابغين فى هذه الفروع

وهو يحتوى على جميع أصناف المحاريث وآلات متنوعة للتقطير وتكرير السكر ومثال معمل للعربات وأدوات الخراطة والخياطة والنسيج والغزل وبعض عينات من المنسوجات والآلات الخاصة بنظريات الحركة والانتقال وآلات تحويل الحركة وتوليدها وآلات العدد والتلغراف الكهربائى وغير الكهربائى والتلفون وآلات الصوت والجلوانوبلاستيا والموازين والاثقال وآلات علم الطبيعة وأدوات استخدام حرارة الشمس وجهازات كهربائية متنوعة وآلات علم الآثار العلوية وآلات تقييد الارصاد وآلات استخراج غاز الاستصباح وجهازات الاستضاءة وآلات الورق وآلات الطباعة والنقش والتصوير الشمسى ثم المتحصلات الكيماوية وآلات طبع الالوان والاصباغ على الاقمشة وتماثيل معامل حمض الكبريتيك ثم كيفيات اصطناع الخزف والفخار والمينا والزجاج والبلور وغير ذلك مما تتعذر الاحاطة به ويستدعى المشاهدة وتمضية الوقت النفيس وأهم ما استوقف انظارى تماثيل

استخراج الفحم الحجرى وأدواته وآلاته وجهازاته وآباره وسبر اغواره والمعادن التى تخرج معه والاصباغ والروائح والاعطار التى تستخرج منه وغير ذلك وقد رأيت فى نموذجات المنسوجات قطعة من شغل مصر اهداها الخديو الاسبق الى هذا المتحف وفيها اشعار عربية مكتوبة باحرف من القصب ومزركشة بذوق وحذق بحيث انها تجعل لصناعة بلادنا مقاما محمودا بين مايجاورها من منسوجات الامم الاخرى

وفى تياترو الاوبرا متحف ومكتبة للتشخيص والتمثيل والروايات وفن الالحان ولكن المتحف ليس من الاهمية بحسب مايتصوره الذى يسمع عنه وبعكس ذلك المكتبة

أما متحف فنون الزخرفة والتزويق فالغاية منه المساعدة على توسيع نطاق أعمال المشتغلين بتطبيق العلوم على الصنائع اذيرون فيها نموذجات لاتحصى من صنع الاقدمين والمحدثين فتتربى بذلك ملكتهم ويقتدرون على الاختراع والتنويع فانها تحتوى على مجاميع متعددة فيها تصاوير على القماش ونقوش على الاخشاب والاحجار والمعادن ومصنوعات شرقية مثل الانسجة والعاج والابسطة والخزف والزجاج من صنع فارس وغيرها وفيها أيضا تصاوير بالالوان وأقمشة قديمة وحديثة وأثاثات المنازل ثم طريق

التزويق بحسب العصور قديما وحديثا وغير ذلك مما يطول شرحه

أما متحف تطبيق فن النحت فهو فى قصر التروكاديرو ويحتوى على نموذجات بالجبس من أهم أعمال المبانى فى مشارق الارض ومغاربها فى العصور السالفة ومن بوّابات وعمدان وجدران وعقود وقبور ونقوش بارزة فى الحجر وغير ذلك مما يطلق عليه لفظة آثار وهى مرتبة بحسب تاريخ أوقاتها و بيان الاماكن التى فيها الآثار الاصلية وماهية الموضوع بالايجاز وأول مايراه الانسان فيها هو نقوش قدماء المصريين وغيرهم من الامم القديمة حتى ينتهى الى القرن الثامن عشر فيرى غرفة فيها أعمال من جميع الامم كأنها فهرست للغرف التى سبقتها أو بيان اجمالى لما رآه الانسان قبلها

وأما متحف طبائع الامم وأحوالها فهو فى الدور الاول من قصر التروكاديرو أيضا و يحتوى على ٤٠,٠٠٠ قطعة تمثل أصناف الامم وكيفية معيشتهم وتغذيتهم ولباسهم وسلاحهم بالاقدار الطبيعية التى تصورهم للانسان كانه يراهم كما هم بالتمام فى أقاليم استراليا والاوقيانوسية وغيرها مثل ملبوس الرؤساء وشباك الصيد فى البحر وحبائل القنص فى البر والمساكن وصورة المتوحشين وغير ذلك مما يتعلق بامم أفريقية وامريكا وأوروبا وآسيا ويرى الانسان فيها الزوارق

والنقوش والاكواخ والمنسوجات والاسلحة والمصنوعات الزجاجية والفخارية والاطلال الدارسة وسارية من حجر واحد تشبه شكل الآدمى فى تكوينها الطبيعى (واردة من بلاد المكسيك) والمحاريب والمعابد والهياكل وبعض موميات واردة من أمريكا وجهازات الجنائز والاحتفالات بالاموات وكل ذلك مما يتعلق بالقبائل المتوحشة والبدوية والمتمدنة والحضرية سواء كانت تسكن عند القطب الشمالى أو بجانب الخط الاستوائى أو فيما بينهما - وفيه غرفة مخصصة لبيان أهل فرنسا بحسب أقاليمها وتنوع معيشتهم ومساكنهم واخلاقهم وغير ذلك

أما متحف التربية فيحتوى على مكتبة مركزية خاصة بالتعليم الابتدائى فيها الكتب المؤلفة فى فن التربية واساليب التعليم ورسوم واشكال وخرائط ومجاميع وكتب مطالعة وغير ذلك مما يلزم الدارسين والمدرسين وفيه زيادة على ذلك مكتبة متنقلة تعير الكتب الى القائمين بوظائف التعليم فى سائر انحاء فرنسا وفيه آلات التعليم وأدواته وأجهزته وجملة مجاميع للتاريخ الطبيعى ولتعليم الرسم والتصوير فى المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس المعلمين وفيه تماثيل للمبانى الدراسية لبيان أوفقها للصحة والتعليم من حيث التهوئة الاضاءة وغير ذلك من المرافق - وهذا

المتحف المفيد يحتوى على قاعة كبيرة فيها كلها خرائط جغرافية فقط وغرف أخرى للرسم ومعامل للكيمياء والطبيعة والاشغال اليدوية وأخرى تحتوى على أثاث المدارس وأدوات الدراسة ونموذجات تصور المدارس الغير فرنساوية وفى الدور الاول مكتبة التربية الفرنساوية والاجنبية وأهم قسم فيها هو مكتبة للموسيو رابو تحتوى على ٦٨٤٨ مجلدا خاصة بهذا الفرع من التعليم وقد اشترتها الدولة بعد وفاته باسم هذا المتحف وبعض الكتب الموجودة فى هذه المجموعة قد صارت الآن اندر من الكبريت الاحمر وفيها أيضا مجموعة تحتوى على كتب التعاليم فى القرن السادس عشر وفى الدور الاول مجموعة علمية ومعامل للعلوم الطبيعية وأثاثات مدرسية وشرائح فرنساوية وأجنبية خاصة بالمدارس — وقد ترتب على انشاء هذا المتحف فوائد كثيرة خصوصا المكتبة المتنقلة فانه قد يتفق وجود بعض من المترشحين لوظائف التدريس أو للترقى الى وظائف سامية ولا يكون فى وسعهم الاستحصال على الكتب الدراسية اللازمة لبعدهم عن المدن الكبيرة ولضيق ذات يدهم فانشأت الدولة هذا المتحف ليعيرهم الكتب اللازمة بناء على طلبهم فيرسلها لهم خالصة أجرة البريد فى صناديق محكمة من الخشب مدة شهر أو شهرين

بحسب ماير يدون ولهم الحق فى تمديد الاجـل المحدود وسأشرح الـكلام فى الرحـلة على هـذا المتحف بنوع خصوصى لماله من المزايا الـكبيرة

أما متحف جيمى أو متحف الاديان الاهـلى فانه يتضمن كل ماجمعه الموسيو اميل جيمى E. Guimet اثناء سياحاته فى بلاد المشرق ثم انه تبرع بهذه المجموعة النفيسة التى تبلغ قيمتها أكثر من ٤ ملايين من الفرنكات لمدينة باريس لاجل افادة ابناء وطنه والغاية منها درس الاديان القديمة وعقائد المشرق بحسب الرسوم الصحيحة والتماثيل والكتب والتصاوير الاصلية الصادرة عن نفس المتعبدين وهى مرتبة بحسب المذاهب والاعتقادات والاوقات ثم ان هذا الرجل الكريم فضلا عن هذه الهبة السنية تبرع بنصف المصاريف اللازمة لبناء دار المتحف وقد بلغنى من ثقة ان رجلا من اغنياء الانكليز عرض عليه مبلغا وافرا من النقود لمشترى جزء زهيد من المجموعة فأجابه بما معناه (انما تعبت وجمعت ماترى لافادة ابناء بلادى وللاعانة على رفع شأن وطنى وذلك أثمن وأغلى مما تعرضه على الآن بما لايقدر بأى حال) فهكذا تكون الشهامة والمروءة فى محبة الوطن والسعى فى اعلاء كلمته وتمجيد ذكره ومن أهم مافى هذا المتحف مكتبة تحتوى على

كتب كثيرة بخط اليد و ١٤٠٠٠ مجلد فى مواضيع متنوعة و ٧٫٠٠٠ مجلد صيني وياباني ومصري قديم وهو يحتوى على مصنوعات من الخزف خاصة بديانة الصين واليابان وقدماء اليونان وإيطاليا وفرنسا وقبائل افريقية والاوقيانوسية وآلهتهم وتعبداتهم وهياكلهم ومعابدهم وفيه هياكل كثيرة منها هيكل يسمى بالمندرة يحتوى على ١٩ إلها (والمندرة هى المعبد الذى يجتمع فيه جميع الالهة عند اليابان مثل البانتيون عند اليونان والكعبة عند الجاهلية وأقدم هذه المنادر هى مندرة سين جون وكان فيها ١٫٠٦٠ إلها) وآلهة الهيكل المحفوظ بهذا المتحف تنقسم الى ثلاثة أقسام لتدبير الكون وهى الكمال فى الاعتقاد البوذى ثم التجسد لخلاص الارواح بطريق الاقناع ثم التحول لجذب النفوس بالوعيد والتهديد — وهنالك أيضا آثار كثيرة مما يتعلق بديانة الفراعنة وكيفية معيشتهم فى هذه الدنيا ونعيمهم فى الحياة الاخرى وفى ضمنها تماثيل آلهة وتمائم وأوراق بردى ومذابح وهياكل وأحجار مقدسة وغير ذلك — وفى هذا المتحف غرف للتدريس والعمل وجميع جدرانه مغشاة برسوم وأشكال تناسب الاشياء المعروضة فى كل غرفة أو تكملها بحيث ان الناظر الدقيق يقف تمام الوقوف على كيفية التعبد والتدين عند كل قبيلة

من هـذه القبائل - وقد رأيت فى فناء المتحف عنـبرا لتربية النباتات المجـلوبة الى فرنسا من البـلاد الحارة وفى أقصى الفناء قاعة يصعد اليها بسلم وفيها مجموعة من الاحجار المختلفة وشواهد القبور القـديمة عنى بجمعها اثناء سياحته فى آسيا جناب الموسيو دومرجان الذى هو مدير المتحف المصرى الآن - وقد تقرر اثناء أقامتى فى باريس ان تلامذة المدارس العالية وتلامذة المدارس الحرفية فى هذه العاصمة يذهبون الى هـذا المتحف فى كل يومين مرة بالمناوبة مع بعضهما لاجـل الوقوف على كيفيات اصطناع الخزف والطقوس الدينية بارشاد الموكلين بحفظ المتحف أوالموسيو جيمى نفسه

أما متحف والنتـين هاوى فقد سمى باسم أول من أسس مدارس العميان وهو وان كان صغير الآن لكنه جدير بالنظر اذ يحتوى على الآلات والادوات الخاصة باعمال العميان وعلى كثير من مصنوعاتهم فى جميع البلاد وقد كان دليلى فيه أحدهم وهو الموسيو جيلبو أحـد اساتذة مدرسة العميـان وأطلعنى على جميع ما فيـه قطعة قطعة بارشاد وثبات ومعرفـة بمواضع كل شئ حتى انبهرت من هذا الدليل المـاهر فانه له معرفة بالغزل والنسيج وكثير من الصنائع اليدوية وأخص معلوماته الجغرافية والتاريخ والفنون

الادبية وقد احتفى ببعض من مؤلفاته وفيها ديوان شعر يعبر فيه عن عواطف العميان وأحساساتهم وكيف يقدرون الاشياء وله كتب أخرى كثيرة تدل على فضله وسعة اطلاعه وهو الذى سعى فى تأسيس هذا المتحف على نفقته ثم أمدته الجمعيات والمدارس فى البلاد الاوروباوية والامريكانية بتحف أخرى ولايزال يدفع ايجار المنزل من ايراده

وفى باريس متاحف أخرى كثيرة لايجوز لى ان أتكلم عليها لانى لم أزرها وقد جرت عادتى انى لاأذكر الا ماعرفته بنفسى ولكنى أشير الى اسماء بعضها مثل متحف الطوبجية والاثاث الاهلى والطب ومقابلة التشريح والمعادن وآلات الموسيقى والرصدخانة والنقود والمحفوظات (الدفترخانة) والمتحف التاريخى لمدينة باريس (وبه مكتبة فيها نحو ٩٠,٠٠٠ مجلد) ومتحف المجموعات الفنية لمدينة باريس ومتحف كاين وقد أسست زوجة كاين ومتحف جاليرا ومتحف الغشاشين (ويوجد له نظير فى كرك الاسكندرية) وفوق ذلك فان لاغلب المدارس والجمعيات العملية والفنية متاحف خاصة بها

قصور باريس

هذه بلد القصور حيثما قلب الانسان ناظره رأى قصرا شاهقا وبنيانا شامخا واتقانا زائدا ولكنى لا أتكلم الآن الا على بعض القصور المهمة واترك الباقى لفرصة أخرى

فمن أفخرها قصر التويلرى يدل على ذلك مابقى منه بعد الحريقة التى التهمته اثناء ثورة الكومون فى شهرمايو سنة ١٨٧١ كانت بنايته فى سنة ١٥٦٤ وقد أقيمت فى مكانه الآن حديقة أنيقة مزدانه بأنواع الازهار تتخللها تماثيل رمزية وفساقى تدفع الماء الى حيضان بهجة بكيفيات رشيقة تسر الناظرين

أماقصر اللوفر فقد شيد فى عام ١٥٤١ على اطلال قلعة عثر القوم على بعض بقاياها تحت الارض فى سنة ١٨٨٣ وسكنه كثيرمن ملوك فرنسا قبل أن يكمل تماما حتى جاء الامبراطور نابليون الاول فشدد الاوامر باتمامه ولكنه لم يساعده الزمان على بلوغ الغاية فى هذا الامر الجليل فلما كان الامبراطور نابليون الثالث أتمه على الوجه المرغوب واحتفل بافتتاحه فى سنة ١٨٥٧ وقد بلغت اكلافه ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٧٥ مليون فرنك) وفيه رسوم ونقوش وتصاوير وتماثيل وزخرفة وتزويق فى الجبس والحجر والرخام والخشب وعلى وجهاته وعقوده وجدرانه

وسقوفه ونوافذه ومطلاته وافنائه ورحبانه تسلب العقول وتخلب الالباب وواجهته الاصلية مركبة من عمد مستنده على عمد تمثيلا لاجمل وأعظم هيأ كل العبادة عند قدماء اليونان وخلاصة القول انه اليوم تحفة حوت متاحف واعجوبة جمعت عجائب

ومما يلحق بهذا القصر ميدان الكاروسل وهو من أجمل ميادين باريس ويبتدئ بقوس فخار هائل تحيط به البساتين الناضرة ويحف به من اليمين والشمال تمثالان رمزان للحرية والشريعة ومن هذا المكان يمتد النظر الى بستان التويلري والمسلة المصرية وقصر الشانزلزي وقوس فخار الكوكب وينتهي الميدان المذكور بحدائق اللوفر وفيه تجاه قوس فخار الكاروسل عمود أثري أقيم لتخليد ذكر غامبتا المشهور وهذا العمود يتركب من كتلة حجرية عظيمة تحيط بها تماثيل من البرونز (الشبهان) تصور الحقيقة والقوة والحرية والمساواة وفوق هذه القاعدة منشور هرمي من الصوان يبرز منه تمثال الرجل واقفا ومائلا برأسه الى الخلف قليلا وباسطا ذراعه الايمن بشهامة وهو يرشد أبناء وطنه الى الواجب والشرف وتحت أقدامه الذائدون عن حياض الوطن يرعاهم ملاك فرنسا وقد ارتفع بأجنحته الى عنان السماء فقاموا من سقطتهم ونفضوا ماعليهم من الغبار وجمعوا أسلحتهم المتكسرة وعلى الواجهات

الاخرى من المنشور جمل مقتطفة من المقالات الرنانة التى ألقاها
هذا الخطيب على قومه يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم الى آخر
نقطة من حياتهم وغير ذلك وفوق قمة هذا الاثر تمثال رمزى
للديمقراطية (أى حكومة الاهالى بأنفسهم) وقد فازت وعلت كلمتها
فامتطت صهوة غضنفر ذى أجنحة - وقد أقيم هذا التمثال فى
١٣ يوليو سنة ١٨٨٨ بنقود جمعها القوم من اكتتاب عام
اشترك فيه أبناء فرنسا المقيمين فى حومتها والبعيدين عنها

وأما قصر البورصة فهو على شكل معبد يونانى بمانى واجهته
وحوله وفى داخله من السوارى والاساطين وطوله ٦٩ مترا وعرضه
٤١ وفى أركانه من الخارج تماثيل أربعة للتجارة والعدالة
القنصلية والصناعة والزراعة وفى داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية
تسع ألفى شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة فى الاتقان بحيث
يخالها الناظر نقوشا بارزة وهى عبارة عن الاحتفال بافتتاح
البورصة على يد شارل التاسع وفرنسا وهى تستقبل الاتاوة من
أقسام الدنيا الخمسة واتحاد التجارة والعلوم والصنائع وأهم المدائن
فى فرنسا - وقد زرت هذا القصر ولكننى أعترف بأنى لم يتيسر
لى أن أدرك شيأ من أحواله أو أقف على نزر من تفاصيل
ماجرياته حتى كنت أتحف بها القراء وغاية مارأيته فيه جلبة

وضوضاء وصياح وصخاب وتماوج وتدافع وأيدى ترفع وأرجل تهرول وأقوام يخرجون و آخرون يدخلون وفى يد كل واحد قرطاس وقلم من الرصاص وصكوك مختلفة الالوان ولا أدرى كيف يتفاهمون فى بابلهم هذه وان كانوا كلهم بلغة واحدة يتخاطبون - وفى هذا القصر مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وبارومتر كبير وسكردان يتناولون فيه غداءهم من غير أن يبتعدوا عن الميدان

أما قصر الانواليد (لعساكر السقط) فقد شاده الملك لويز الرابع عشر فى سنة ١٦٧٠ فان هذا الملك العظيم أراد أن يضمن حياة طيبة للعساكر الذين تبتر بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض العاهات ولا يكون لهم وسيلة للتعيش بعد ان وخط الشيب رؤسهم وهم فى سلك النظام ولكن الذى نظم هذا القصر حقيقة وأجاد ترتيبه انما هو نابليون - ومسطح الارض التى يشغلها هذا القصر عبارة عن ١٢٦٩٨٥ مترا مربعا وهو معد فى الاصل لسكن ٥٠٠٠ نفس ولكنه اليوم لا يحتوى الا على ربع خمس هذا العدد لان قدماء الجهادية فى هذا الزمان يفضلون تمضية ما بقى من عمرهم فى استقلال وحرية وانفاق المعاش الذى يخوله لهم القانون بحسب ما يريدون - أما النازلون به فتعتنى الدولة عناية تامة

بمسكنهم ومطعمهم وملبسهم وتدفئتهم وكل مايلزم لهم

وامام هذا القصر رحبة فسيحة طولها ٥٠٠ متر وعرضها ٢٥٠ وفيها صنوف كثيرة من الاشجار

وبعد هذه الرحبة فناء خارجي تحف به الخنادق من كل جانب ويحدق به من اليمين والشمال بطارية مدافع اغتنمها الجيش الفرنساوى فى حروبه وهى التى تستخدم فى انباء الباريسيين بالحوادث الكبيرة مثل الانتصارات والمواسم وغير ذلك وحول هذه المدافع مدافع أخرى من طرازات متنوعة وعيارات مختلفة وفى خلال صفوفها مماشى يتنزه فيها قدماء الجنود النازلين بالقصر - أما واجهة هذه البناء الفخيم فتحدث فى النفس جلالة وفى الفكر اجلالا وطولها ٢١٠ أمتار وفيها ١٣٣ شباكا وعلى يمين الباب تمثال إله الحرب وعلى يساره إله الحكمة وفى الدهاليز تمثيل بعض الوقائع التى انتصرفيها الفرنساويون وفى الفناء الداخلى تماثيل كثيرمن قوادهم وشجعانهم وأهم مااستوقف انظارى فى نفس القصر هو المكتبة التى أسسها نابليون وهى تحتوى على ٣٠ ألف مجلد تقريبا ولايجوز الدخول والشغل فيها الا للعساكر السقط ومن ملحقاتها قاعة تحتوى على صور جميع مارشالات فرنسا ومديرى هذا القصر وتصغير يمثل للرائى

عمود وندوم المشهور والقنبلة التى قتلت تورين فى سنة ١٦٧٥ وهو من أفرس ابطالهم ومثال من الجبس لتمثاله فوق فرسه وبعض المخلفات التى تركها نابليون فى جزيرة سنت هيلانة منفاة جمعها بعض المغرمين بجده مثل اغصان من الشجرة التى كان يستظل بها وقطرات من الينبوع الذى كان يستقى منه وقبضه من التراب الذى وطئه بقدمه وقصة من شعره وقطعة من ورقه وما أشبه ذلك وضعها بعض المجيدين فى لوحة تأخذ بالابصار لما أودعه فيها من الابداع وهنالك أيضا أشياء كثيرة من التى كان يستخدمها الامبراطور فى منفاه

وفى هذا القصر كنيسة باسم القديس سان لويس وليست ذات أهمية بالنسبة لبنائها بل لانها مخصصة لدفن المارشالات ومديرى القصر ولانها تحتوى على كثير من الآثار التى تحيي ذكر ابطالهم المعدودين وفى قبتها كثير من الرايات التى اغتنمها القوم فى مواقع القتال فى افريقية والقريم وايطاليا والصين والمكسيك والتونكين وفى احدى جهاتها صورة لسيدنا عيسى عليه السلام مرسومة على القماش ولكن الناظر اليها يخال انها مجسمة بكل انتظام

وخلف هذه الكنيسة قبر الامبراطور فى قبة هى أجمل أثر دينى مصنوع فى فرنسا بحسب الطرز اليونانى ولا يدخل القوم اليها الا بعد ان يرفعوا قبعاتهم تعظيما وتفخيما وفيها بيعة تحتوى على بقايا جيروم شقيق الامبراطور وبقايا ابنه البكرى وبيعة أخرى فيها قبر توربن ذلك البطل العظيم وامامها بيعة فيها اعظام ووبان Vauban وبجانبها ناووس فاخر يحتوى على بقايا شقيق آخر للامبراطور

أما قبر الامبراطور نفسه فهو فى ناووس من الصوان الاحمر لم ير الراؤون مثله فى البهجة والفخامة وهو فى وسط القبة فى حفرة عميقة مكشوفة للانظار ومبلطة بالفسيفساء وهنالك من التصاوير الهائلة وقبور المخلصين لهذا الرجل وتماثيل انتصاراته وغير ذلك مما يدهش الابصار ويقضى على الانسان بالاعظام والاكبار ويجعل خطواته مقرونة بالتحسب والهوينا ويذكره بان هذا العالم مصيره الفناء وان نهايات المجد الزوال ويتذكر قول القائل ﴿ألا كل شئ ماخلا الله باطل﴾ خصوصا عند مايقرأ هذه العبارة التى أوصى بها نابليون (أتمنى أن تدفن عظامى على ضفاف نهر السين فى وسط هذه الامة التى أحببتها حبا جما) فيخرج المتفرج وهو يقول الملك لله والدوام لله سبحان الحى الذى لايموت انا لله وانا اليه راجعون

وأما قصر الفنون المستظرفة - فقد أقيم على اطلال دير وتم تشييده فى سنة ١٨٣٩ وفيه مدرسة لتعليم الرسم والنحت والعمارة والنقش بانواعه وذلك التعليم نظرى وعملى ولهذا القصر فناآن وضعت فى أولهما أبواب قصور قديمة وأعمدة متقنة باشكال مختلفة وتماثيل للماهرين من الصانعين وغير ذلك وفى وسطه عمود من المرمر الاحمر مشوب بالشب وفوقه تمثال الخصب وأما الفناء الثانى ففيه مجاميع من تماثيل وقطع تماثيل من أيام القرون المتوسطة الى عصرنا هذا وفى وسطه فسقية من قطعة واحدة من الحجر كانت امام قاعة الطعام فى أحد الديور لاجل غسل الايدى وعلى الواجهة الاصلية لهذا القصر هذه الكلمات الثلاث (رسم عمارة نحت) منقوشة بعناية واتقان وتفنن وابداع وعلى اليمين والشمال اسماء الاساتذة الذين نبغوا فى هذه الفنون وفى دهاليز القصر وغرفه أمثلة لتماثيل قديمة ومعابد وثنية ومصنوعات فى النحاس وتصاوير رفائيل فى قصر الفاتيكان وأشهر العمائر فى فرنسا وغيرها وصور أعضاء جمعية الرسم والنحت وبعض أساتذة المدرسة وفيها مكتبة تحتوى على ١٢ ألف مجلد ونحو مليون من النقوش وفيه مجموعة للصور التى تحوز الطبقة الاولى فى امتحان رومة وهى أعلى درجة يمكن للمصور الماهر أن يتوصل اليها

وخلاصة القول انها حوت من طرائف الفنون ما يثبت فى تلامذتها قوة التصور وابراز الافكار على القرطاس أو الاحجار .

أما قصر لكسمبورج - فهو الآن مستقر لمجلس السناتو (شيوخ فرانسا) وقد زرته أربعة مرات بواسطة حضرة الفاضل الكامل الموسيو پوليا (M. Pauliat) أحد اعضائه الموقرين وهو قد وقف نفســه على خدمة ابناء العرب فى الجزائر وتونس والذب عن حقوقهم ورفع الاذى عنهم وللمسلمين فى قلبه محبـة شديدة و بواسطته تمكنت من الحضور فى الجلسات أربع مرات ووقفت عـلى اساليب المذاكرة والمـداولة والمناظرة والمناضـلة ولو شئت حضور الجلسات أكثر من ذلك لتمكنت بواسطته جزاه الله خيرا - هذا القصر أمرت بتشييده مارى دومدسيس زوجة هنرى الرابع على مثال القصر الذى تربت فيـه فى فلورانسـة ثم تقلبت عليـه الاحوال فبعد ان كان سكنا للملوك أصبح سجنا فى أيام الثورة الفرنساوية ثم مقرا لمجلس المشـيخة ثم للقنصلية ثم للسناتو ثم لنبلاء فرنسا ثم لمحافظة السين (دار أمانة المدينة) ثم للسناتو فى هذا الزمان وفيه مكتبة تحتوى على أكثر من ٥٠٠٠٠ مجلد وفوقها قبـة مغشاة باشكال ناضرة فاخرة - وفى القصر تماثيل نصفية لبارات فرنسا (Pair de France) وشيوخها قديما

وهو من أجمل القصور وأكثرها زخرفة وتزويقا وقاعة الجلسات فيه عبارة عن نصفي دائرة متقابلين يجلس الاعضاء باحزابهم وانشقاقاتهم وتنوعاتهم فى النصف الاكبر وأما الرئيس واعضاء الادارة ففى النصف الآخر وعند ما تفتح الجلسة لايتم الانتظام بل يستمر الاعضاء الذين يدخلون على التسامر فيما بينهم وعدم الالتفات للخطباء ولا للرئيس وترى الموكلين بالخدمة يتصايحون بهذه العبارة (صهايها السادات) ويردونها جملة مرات فتذهب فى الهواء تتردد من جدار يدفعها الى جدار من غير أن يكون لها تأثير على الحضار وترى بعض القوم يخرجون وآخرون يدخلون والرئيس يدق الجرس فى كل نفس فلا يؤثر أكثر من صياح الجرس حتى اذا جاءت مواضيع المذاكرة الحقيقية وقام الخطيب الذى عليه الدور أخذ الانتظام حده وصار القوم يرمقونه ويتفهمون كلامه ومنهم من يجيبه بالتفنيد وآخر يؤيده بالتأكيد وفريق يصفق له استحسانا وآخرون يهزون الاكتاف استهجانا وبعضهم يقاطعه فى الكلام وغيرهم يساعده على الاتمام والرئيس يدعو الجميع الى ملازمة النظام وهكذا حتى ينتهى الخطيب مما ندب نفسه اليه فيحتل مكانه أحد المتحزبين له أو عليه ويصعد الوزير لتأييد سياسة الحكومة وتزكية مساعيها

اولبيان مايطلبه الاعضاء من الافصاح عن حالة البلاد فى الداخل
أوالخارج ولايزال القوم فى أخذ وعطاء و بيع وشراء واستفهام عن
ابهام وافصاح بقول صراح حتى تنفض الجلسة ويفيض الاعضاء من
حيث أفاض الناس ولا يصبح الصباح الاوقد طبعت أعمال الجلسة
وماقيل فيها كلمة كلمة وحرفا حرفا بالتمام والكمال اذفى خدمة المجلس
كتاب مختذلون Sténographes ينقلون بالاشارات المختصرة كل
مايلقيه الخطيب من البيانات أو يرد عليه من الاعتراضات أو يقع
من الاضطرابات أويظهر من الاشارات ثم يرسلونها للمطبعة بعد كل
عشرة دقائق وهناك يصير نقلها أوترجمتها للكتابة العادية وجمعها
واعدادها للطبع فلا يجىء نصف الليل الا وقد تم طبع الجريدة
الرسمية وفيها حوادث الجلسة بالتفصيل الذى ليس بعده تفصيل
مع ان الجلسة لاتفتح الا فى الساعة الثالثة ونصف من بعدالظهر
وقد تنتهى فيما بين الساعة الخامسة والسادسة أوبعد هذه
بقليل

وأما قصر بوربون - فهو مقر مجلس النواب وله واجهتان
احداهما تطل على نهر السين والاخرى على ميدان باسم القصر
والاولى هى الواجهة الاصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا
وفى يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون

والفصاحة والصناعة والتجارة وقاعة الجلسات كلها من المرمر وحولها عمدان منضودة وهى على شكل نصف دائرة تسع ٥٨٤ نائبا ونظام الجلسات فيها يشبهه فى السناتو سوى ان اللغط فيها أكثر والعراك أظهر والخصام أقرب من حبل الوريد والدعوة الى المبارزة ليست بالامر الجديد بل قد تحصل فى كل لحظة عقيب أقل لفظة وقد رأيت فى كلا المجلسين ان بعض الخطباء لا يوفق الى نوال القبول من عموم الحاضرين فيعطف بمناسبة حيثما اتفق الى ذكر الوطن وشرفه ومجده وفخره ووجوب التفانى فى اعلاء مقامه وبذل المهج لاعزازه ثم يحيى القائمين بنصرته الذائدين عن حومته ويترحم على وفاة من وفاه حقه وعرف واجبه وهكذا من الاساليب الخطابية فيخلب الالباب ويسحر العقول ويستجذب القبول فيجاوبه السامعون بالتصفيق وعلامات الاستحسان وكلمات الاعجاب خصوصا اذا كان قوالا سيالا وخطيبا مصقعا يعرف كيف يقرن الاشارات بالكلمات وكيف يكون توقيع الالفاظ ليكون لها وقع فى الفؤاد — وقد اتفق فى الجلسة التى حضرتها فى مجلس النواب حصول مطر بغير سحاب استبدلت فيه الامواه بالاوراق فكانت تتناثر على الاعضاء من غير افتراق وذلك ان رجلا اسمه الكساندر هوليه تربص فرصة مناسبة فقذف عليهم

بكراريس مطبوعة عنوانها (هتك ستر الطرارين) ولكن الجنود قبضوا عليه فى الحال وأودعوه السجن تحت المحاكمة وقد قالت بعض الجرائد انه يعنى بذلك مسألة بناما فكتب الرجل الى الجرائد انه لم يحم حول هذا المقصد ولا أعلم الآن ماذا تم فى أمره

وأما قصر الصناعة - فهو معد للمعارض السنوية والجزئية وقد أقيم فى سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة وله فناء مستطيل طوله ٢٥٠ مترا وعرضه ١١٠ أمتار ومسطحه ٣٢٠٠٠ متر وعلى بابه تمثال كبير يمثل فرنسا وهى توزع أكاليل الفخار من الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت اقدامها وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا فى العلوم والفنون والصناعة مرقومة بحروف من الابريز وقد جعلوه بعد سنة ١٨٥٥ مقرا للمعارض السنوية للرسم والنحت والعمل والصناعة وفن الحدائق ومعارض الخيول والحيوانات والاطيار الخ وقد كان فيه اثناء مقامى بباريس معرض اشغال النساء فكان فيه جميع أصناف ملبوساتهن بحسب الازياء وتنوعها فى كل عصر وعند كل أمة قديمة أو حديثة نسقوها على شكل معجب مطرب وخصوصا قبعاتهن وأشكالها المختلفة وتفننهن فيها بما يجذب

الابصار و يسلب الالباب وليس هـذا مقام الشرح عليها فاترك وصفها الى فرصة أخرى

وخلف هذا القصر بناء من الحديد واللبن يسمى كشك مدينة باريس وهو معـد لجملة معارض متنوعة وكان به أيام مقامى فى هذا البلد معرض الصنائع المتعلقة بلحم الخنزير وكانت الدولة ترسل اليه الموسيقى العسكرية تصدح فيه بالحانها الشجية

واختم الكلام فى هذا الموضوع الطويل العريض بخلاصة قصيرة على قصر التروكاديرو فقد بنى على رابية بمناسبة المعرض العام الذى أقيم فى سـنة ١٨٧٨ وقد اشـتركت فيـه حكومتنا المصرية وأصابت حظا وافرا من الفضل والفخار وهو يشتمل على أحاسن أساليب البناء وطرازات العمارة وفوقه تمثال الشهرة وفى فيها بوق تنفخ فيه وفيـه قاعة المواسم والاحتفالات مزخرفـة بنقوش وتصاوير وفى هـذه القاعـة مكان للموسيقيين يسع ٤٠٠ نفر منهم بآلاتهم وأما القاعة نفسها فيمكن ان يجلس بها ٥٠٠٠ متفرج بالراحة وتحته حوض لاسماك المياه العـذبة موضوعة فى مغارات فسيحة تتجدد فيها المياه على الدوام ومنظر هـذا القصر وعمدانه وابراجه وأروقتـه وأجنحته وحديقته وفسقيته مما يفتن العقول ويستغرق الزمان فى التأمل والامعان

وفى باريس غير ذلك عدد كثير من القصور العمومية والخصوصية ولا أتكلم عليها لانى لم أدخلها

معامل باريس

مثل هذه المدينة العظيمة لايخلو من المعامل المتناهية فى الاتقان ولكنى لا أتكلم الآن الاعلى معامل الجبلين (بضم الجيم وسكون الباء وكسر اللام) ومعامل الدخان

فأما الاول فقد كان انشاؤه فى سنة ١٦٠٣ على يد الملك هنرى الرابع وبعد أن دار الشغل فيه نحو خمسين عاما اشتراه لويز الرابع عشر وجعله معملا للامتعة والاثاثات الملوكية بناء على اشارة وزيره كولبير فكان يشتغل العمال فيه بالطنافس والستائر المشهورة التى لانظير لها فى الكون وباشغال الفص والفسيفساء وبتلقيم العاج وتطعيم الابنوس وبصياغة الحلى والجواهر وباصطناع التماثيل المخصصة لقصر فرساى وبعد حكم هذا الملك اقتصر المعمل على اصطناع الطنافس والستائر وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٧١ أحرق ثوار الكومون بفرنسا جزأ منه فالتهمت النار كثيرا من نفائس الطنافس وسائر الستائر وقد أبدع هذا المعمل فى تقليد الرسيم وألوانه بالنسيج فى انواله على منواله مع الدقة والرقة

حتى ان الملوك والامراء يزخرفون قصورهم ومتاحفهم بمصنوعاته التي سارت بحسنها الركبان وفيه متحف حوى شيئا كثيرا من غرائب منسوجاته ومنسوجات الامم الاخرى وقد رأيت قباطى مصر المشهورة فى كتب العرب مع انى من بلادها ولم أرها فيها وربما تكلمت على هذا المعمل الجليل بما يستحقه من التفصيل اذا ساعدت العناية فى فرصة أخرى

وأما المعمل الثانى أى معمل الدخان فهو فى بناء كبير يبلغ مسطحه هكتاران ونصف وله خمسة أدوار ويشتغل فيه ١٩٠٠ عامل أكثرهم من النساء وقد رأيت فيه من جميع أصناف الدخان وكيفية تهيئته بعد عرضه لعمليات متعددة واعداده سجائر سائغة للشاربين ويبلغ مقدار الدخان الذى يبيعه فى السنة الواحدة ٧,٦٥٠,٠٠٠ كيلوجراما وقد علمت من مديره ان قيمة الربح الصافى الذى يصيب الخزينة من معامل الدخان فى السنة هو ٣٥٠ مليون فرنك (١٤ مليون جنيه انكليزى) مع ان جميع المستخدمين به لهم معاش كامل من غير ان يخصم منهم يوم احتياطى

ولوجود هذه المعامل فى كل أوربا منفعة أخرى أعم وأهم وهى ان الذين يشربون الدخان فى هذه البلاد موقنون بجودة الصنف

وانه ليس مشوبا بورق الخس والقلقاس وخوص النخل وغير ذلك
مما تتولد منه بعض الامراض الصدرية التى لا يشفى منها صاحبها
كما انه يتعذر أو يتعسر شفاؤه من معاقرة هذا النوع من الشراب
ولما كانت هذه المسئلة ذات أهمية عمومية عظيمة فقد اتفقت
مع حضرة المدير المشار اليه على ان يتحفنى بما يلزم من المعلومات
والبيانات لانشرها بين قومى عسى أن يكون لها بعض الفائدة
وقد بلغ مجموع استهلاك الدخان فى فرنسا فى سنة ١٨٩١
٣٥٨١٣٨٥٤ كيلوجراما منها ٢٩١١٠٠٩٢ كيلوجراما من
الدخان المعد للتدخين و ٥٤٥٧٤١٣ من الدخان المعد للنشوق
و ١٢٤٦٣٤٩ من الدخان المعد للمضغ واليك جدول الاستهلاك
بالكيلوجرام فى جملة سنين لمعرفة زيادة انتشار هذه العادة
أو الآفة

سنة	دخان التدخين	دخان النشوق	دخان المضغ	مجموع الكميات المباعة
١٨٦٩	٢٢٦١٩٠٧٩	٨١٦٨٤٥٠	١٢٤٥٢٢٩	٣٢٠٣٢٧٥٨
١٨٧٤	٢١٣٤٨٣٢٢	٦٥٧٣٦٤٤	٠٩٦٢٥٩٥	٢٨٨٨٤٥٦١
١٨٧٩	٢٤٣٠٣٩٤٢	٦٨٢٧٦١٤	١١٦٥٦٨٢	٣٢٢٩٧٢٣٨
١٨٨٤	٢٨٠٥٠١٩٩	٦٧٠٢٦٥٩	١١٨٠٩٥٧	٣٥٩٣٤٧١٥
١٨٨٩	٢٨٧٨٤٦٦٠	٥٨٣٤٣٩٠	١٢٠٠٢٦٢	٣٥٨١٩٣١٢
١٨٩١	٢٩١١٠٠٩٢	٥٤٥٧٤١٣	١٢٤٦٣٤٩	٣٥٨١٣٨٥٤

ولاجل أن تكون المقارنة صحيحة ينبغى التنبيه على وجوب تنزيل نحو مليونى كيلوجرام من المقادير الخاصة بسنة ١٨٦٩ وذلك فى نظير استهلاك أهل مقاطعتى الالزاس واللورين فانهما انفصلتا من فرنسا بعد حرب السبعين ومن هذا الجدول يتضح ان مجموع استهلاك الدخان لم يتغير تغيرا محسوسا منذ سنة ١٨٨٤ وان استهلاك دخان التدخين قد ازداد بالتدريج بنحو مليون من الكيلوجرامات ومثله دخان المضغ ولكن النشوق أخذ فى النزول بنسبة ٢٠ فى المائة

وقد بلغت كميات الدخان المستهلك فى مقاطعة السين وحدها (وهى التى بندرها باريس) فى سنة ١٨٩١ نحو ٤,١٦٤,٧٩٠ كيلوجراما (منها ٣,٥٣٧,٧٧٨ للتدخين و ٣٧,١٥٧ للنشوق و ٨٩,٨٥٥ للمضغ) يقابلها فى سنة ١٨٦٩ ٣,٦٩٨,٠٠٠ (منها ٢,٨٥٠,٣٧٧ للتدخين و ٧٥٣,٠٢٨ للنشوق و ٩٤,٨٣٥ للمضغ)

خزائن الكتب بباريس

اشتهرت هذه المدينة بالفوقان على غيرها فى ميدان الخلاعة والجد فانها مقر الملاهى والبدع والمبتدعات ومركز المعارف والمعالى والمخترعات فلا يخلو أقل بيت فيها من خزانة كتب بحسب

حالة صاحبه وذوقه فكل أهاليها يقرؤن و يكتبون حتى ان سائق العربة بل والكناس اذالم يكونا مشغولين بالسوق والكناسة يكونان منكبين على القراءة والدراسة وبهذه النسبة يقاس ولوع القوم بتثقيف العقول وتنوير الاذهان كلما صعدنا فى سلم الارتقاء الى أعلى الطبقات ولاأدعى الاقتدار على استيفاء الكلام فى هذا المطلب على خزائن الكتب فى باريس ولكنى أذكر لمعايسيرة عنها بغاية الايجاز حتى يتصور القارئ ماهيتها فيتمكن من الحكم عليها

فان وجود الكتبخانات من اسمى الدلائل على ارتقاءالمدنية وضخامة العمران ومن أوجب الاعمال لتخليد الذكر وحسن الاحدوثة حتى لقد سعى الملوك فى جميع الاعصار فى جمع الكتب والعناية بها لينوه التاريخ بذكرهم فى جملة المساعدين على نشر المعارف وتوسيع دائرة العلوم أما الآن وقد اتسع نطاق العرفان وساغت موارد التعليم للطالبين فقد صارت العناية بالكتب فرض عين على جميع الحكومات المتمدنة

المكتبة الاهلية - هذه المكتبة يكاد لايكون لها مثيل فى العالم وأول من عنى بتأسيسها شارل الخامس ملك فرنسا فى

سنة ١٣٧٥ فانه جمع ١٢ ألف مجلد وجعلها بقصر اللوفر ثم انها نقلت منه فيما بعد الى جهات أخرى

ولما جاء الملك فرنسوا الاول اهتم بها اهتماما خصوصيا وزاد فى عددها لغرامه بالمعارف وولوعه بالعلوم حتى انه نقلها الى قصره فى فونتنبلو لتكون على مقربة منه ثم ان الملك شارل التاسع أعادها الى باريس ولكن ازديادها فى كل يوم كان يوجب نقلها من مكان الى آخر على انها مع كل هذه العناية لم تزد عن خمسة آلاف مجلد فى أول عهد الملك لويز الرابع عشر فاهتم حينئذ وزيراه كولبير ولوفوا بشأنها وتقدمها اهتماما لايزال مستمرا الى يومنا هذا ثم توالت عليها الهدايا والوصايا من كتب بخط اليد ومداليات وأحجار منقوشة ونقود ومبصومات وغير ذلك ولقد بلغت المطبوعات فيها فى سنة ١٧٨٩ ثلاثمائة ألف مجلد (٣٠٠٠٠٠) ثم ازداد هذا العدد زيادة كلية فى أيام الثورة الفرنساوية بما توارد عليها من الكتب التى انتزعت من الاديرة ومن قصور المهاجرين حتى انه صار من المستحيل عمل فهرست أو برنامج للمكتبة واكتفى القوم بوضع الكتب المستجدة فى أقسامها الخاصة بها باعتبار الحروف الهجائية لاسم المؤلف

ومما يستحق الذكر انها صارت فى دفعتين عرضة لمصيبة

من أعظم المصائب ولم تنج منها الا بما بذله مستخدموها من شدة العناية وصادق الاخلاص فان البروسيانيين لما حاضروا باريس فى سنة ١٨٧٠ كانت المكتبة مهددة بالحريق فى كل لحظة اذلو وقعت عليها قنبلة لكانت أعدمت هذه الكنوز الثمينة الى أبد الآبدين فلذلك كان أغلب مستخدميها يذهبون بالنهار الى الحصون والقلاع للدفاع عن المدينة ومتى جن الليل يرجعون الى المكتبة و يطوفون حوالها خفراء عليها و بعضهم يصعد على أسطحتها للوقاية من هذا العدوّ المبين وهو النار ولما دخل البروسيانيون باريس اجتهد عمال المكتبة فى اخفاء أهم مافيها من الكتب التى بخط اليد حتى لاتطمح اليها أنظار الفاتحين

ولما تم عقد الصلح وعادت السكينة الى ربوع فرنسا جاء خطر جديد لم يكن فى الحسبان وهو ثورة الكومون وذلك انه لما زحف الثائرون من فرساى على باريس ودخلوها كانت النار تهدد الكتبخانة من كل جانب ولكن الله سلم

ولما عادت المياه الى مجاريها واشتغل الناس بالعلوم والمعارف اكتسبت المكتبة أهمية فوق العادة حتى لقد بلغ عدد الكتب التى وردت اليها فى سنة ١٨٩٠ وحدها ٧٠٠٠٠ مجلد

وعدد مافيها من الكتب الآن يبلغ مليونين ونصف مليون

واذا أضفنا الى ذلك العدد ما هنالك من المجاميع والكتب المكررة لبلغ العـدد ثلاثة ملايين بالتقريب

ولا شك ان هذه الكنوز المتعددة تستوجب تحرير فهرست واف ببيان محتوياتها وقد راعت ذلك الجمعية التشريعية فأصدرت بهذا المعنى أمرا عاليا فى ٢ يناير سنة ١٧٩٢

ولكن كثرة الوارد حالت دون كل نظام غير ان عمالها قد ابتدؤا فى سنة ١٨٥٢ بتحرير أوراق منعزلة بالبيان الكافى عن كل كتاب ورد للكتبخانة وقد كاد الفهرست العمومى يتم اليوم واعلم ان المبلغ المخصص للطبع هو قليل جدا بالنسبة لجسامة العمل فانه عبارة عن ١٠ آلاف أو ١٢ ألف فرنك فقط مع ان المتحف البريطانى بلوندرة ينفق فى مثل هذا السبيل ٢٠٦١٢٥ فرنكا وفى غرفة المطالعـة ٧٥٠٠ مجلد ويقابلها فى مثلها فى المتحف البريطانى ٥٠٠٠٠ ولكن المانع الوحيد هو ضيق المحل فى باريس

وكانت متصلة بعمائر ومساكن لبعض الافراد فقرر البرلمان مبلغ ١٦٦٥٠٠٠٠ فرنك لعزلها عنها فاجتهدت الدولة حينئذ حتى اشترت هذه المبانى واضافتها الى المكتبة لتوسيع نطاقها وعزلها عما يجاورها بحيث أصبحت فى سنة ١٨٨٢ كجزيرة تحيط بها شوارع أربعة

من الجهات الاربع وتلك العناية بقصد الوقاية من اتصال الحريق اليها مما يجاورها وفيها مركز لرجال المطافئ وهي على أربعة أقسام أولها قسم المطبوعات والخرائط والمجموعات الجغرافية وثانيها قسم الكتب المخطوطة (التي بخط اليد) والنظامات السياسية والاجازات أي الدبلومات وثالثها قسم الميداليات والاحجار المنقوشة والقديمة ورابعها قسم المبصومات . وفي الخزانة غرفة للمطالعة تفتح في كل يوم من الاسبوع حتى في أيام الاحد من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة الرابعة والخامسة أو السادسة الافرنكية من المساء بحسب اختلاف الفصول وفيها غرفة أخرى للاشتغال بالكتب ومراجعتها

فأما قسم المطبوعات فهو فريد في أوروبا يزيد على جميع مكاتبها بكثرة ما فيه من الكتب النادرة المعدومة فانه وحده يحتوي على ٢,٥٠٠,٠٠٠ مجلد من ضمنها الكتب التي ظهرت أيام نشأة المطبعة أو التي طبعت في أشهر المطابع القديمة

وأما غرفة المطالعة ففيها طاولات عظيمة يجلس حواليها ١٠٠ مطالع بالراحة. وفيها نحو ٢٥,٠٠٠ مجلد من مجموعات دورية وعلمية وموسوعات ومعاجم وأشهر الكتب المتداولة في الآداب والعلوم والصنائع وغير ذلك وعلى عقود هذه الغرفة اسماء أشهر الطباعين والمشتغلين بفن الكتب

وأما غرفة الشغل فمساحتها ١١٥٥ مترا مربعا ويمكن أن يجلس فيها ٣٤٤ شخصا بكمال السعة والراحة وسقفها عبارة عن ٩ قباب مغشاة من الداخل بالقيشانى ومتكئة على أساتيد مقربصة من الحديد قائمة على ١٦ عمودا من الزهر ارتفاع كل عمود منها ١٠ أمتار وحوالى هذه الغرفة دواليب فيها نحو ١٠,٠٠٠ مجلد من معاجم ومجاميع وغير ذلك وهى متصلة بخزانة الكتب الخاصة بها وفيها أكثر من ١,٢٠٠,٠٠٠ مجلد ويتصل بهذا القسم المجموعة الجغرافية ولانظير لها فى أوربا كلها اذ جمعت فيها الدولة الفرنساوية خرائط جغرافية للممالك والبقاع والبلدان وأغلبها مصنوع بالجبس وفيه خرائط فرنساوية وأجنبية من جميع اللغات ويبلغ عددها ٢٥٠,٠٠٠ خرطة

أما القسم الثانى ففيه أوراق وكتب من جميع اللغات ومجموعها ٩٠,١١٩ مجلد منها نحو ٨,٠٠٠ مزينة باشكال وتصاوير وحروف مذهبة ومزوقة ويتبعه مجموعة من أوراق البردى المصرى والاغريقى واللطينى وتعليمات شارلمان والعهود والعقود من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٤٣٥ ومنشورين من البابا على ورق من البردى تاريخه سنة ٩٩٩ وغيرذلك وفيه حجرة قد وضعت فيها جميع مؤلفات ڤولتير فيلسوفهم وشاعرهم وأديبهم ومؤرخهم المشهور وفيه أيضا صناديق مغطاة بالواح من الزجاج

تحتوى على أندر مايوجد من المطبوعات والمخطوطات ذات القيمة الغالية تدل على أصول المطبعة والتجليد وغير ذلك وفيها كتب بخط اليد يونانية وشرقية وأمريكانية وكتب كانت ملكا للملوك والسلاطين وتجليد عجيب بالعاج والباغة وأوراق بردى ورق غزال وغيره وخطوط بعض المشاهير

أما القسم الثالث فأول من أسسه لويز الرابع عشر وهو من أهم المجموعات المماثلة له فى العالم فانه يحتوى على أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ ميدالية وفى الدهليز الموصل اليه منطقة فلك البروج التى كانت بدندرة ومجلس أجداد تحوتمس الثالث وكلاهما أتى بهما الفرنساوية من مدينة طيبة بالصعيد ويوجد به أيضا ألواح قديمة من أحجار متنوعة عليها نقوش بلغات شتى مهجورة وفيها أحجار دقيقة كريمة منقوشة أومحفورة بالتجويف أو بالتبريز ونقود اسلامية وغير اسلامية وغير ذلك مما يطول شرحه

وأما القسم الرابع ففيه أكثر من ٢،٢٠٠،٠٠٠ قطعة مجموعة فى ١٤٠٠٠ مجلد و ٤٠٠ لوح من الورق المتين المعروف بالكرتون وفيها مبصومات تدل على تاريخ الفنون فى فرنسا من ابتداء القرن الخامس عشر الى عصرنا هذا وغير ذلك

(ونعنى بالمبصومات تلك الرسوم المصنوعة بالريشة أو بالقلم

الرصاص لكى تكون قاعدة فى الطبع وهى بالنسبة لالواح الصور الزيتية كالترجمة للاصل

ولنتكلم الآن على ميزانيتها اظهارا لمزيد أهميتها فقد كانت فى سنة ٩٢ ٧٨٨٠٠٠ فرنك منها ٤٣٦ ألف للمستخدمين و ٢٧٢ ألف للادوات والمهمات و ٨٠٠٠٠ للفهرست والمخصص للمشترى من هذه المبالغ هو ٨٠ ألف فرنك وللتجليد ٢٥٠٠٠ فرنك

أما ميزانية المتحف البريطانى فانها تزيد على ٥٠ ألف جنيه أى ١٢٥٠٠٠٠ فرنك نصفها للماهيات والنصف الآخر لمشترى الكتب وتجليدها وغير ذلك ثم ان المتحف البريطانى فيه كثير من المجاميع العلمية غير الكتب والآثار والمخلفات القديمة ولذلك ينبغى لنا المقابلة بين قسم المطبوعات فى كل منهما

ففى باريس ٦٠ مستخدم وعامل وفى مثله فى لوندرة ١٢٢ مستخدما وعاملا مرتبهم ٤٩٦٠٥٠ فرنكا وهذا جدول مقابلة الماهيات

(مكتبة باريس)

١	مدير عام	١٥٠٠٠	فرنك
١	سكرتر وصراف	٧٠٠٠	«
٤	امناء	١٠٠٠٠	«
٦	مساعدو أمناء	٧٠٠٠	«
٥٠	كتبخانجى ووكلاء وتحت التمرين	١٨٠٠ الى ٦٠٠٠	«

وغيرهم من أصحاب اليومية والكتبة

(المتحف البريطاني)

	حافظ		١٨٧٥٠		فرنك
٤	مساعدون	من	١٢٥٠٠	الى	١٥٠٠٠
١٣	معاون درجة أولى	«	٦٢٥٠	«	١١٢٥٠
٢٢	« « ثانية	«	٣٧٥٠	«	١٠٢٥٠
٣٦	« « ثالثة	«	٢٧٥٠	«	٣٠٠٠
٤٦	فراش	«	١٠٠٠	«	٢٥٠٠

وكانت ميزانية المكتبة الاهلية فى أيام لويز الخامس عشر عبارة عن ٦٨٠٠٠ ليره أى فرنك منها ٤٦٤٦٩ للمستخدمين و ٢١٥٣١ لمشترى الكتب والادوات وفى سنة ١٧٧٨ بلغت ٧٣٠٠٠ ليره ثم ازدادت فى أواخر حكم الملك لويز السادس عشر مبلغا جسيما جدا بالنسبة لذلك الوقت وهو ١٦٩٢٢٠ ليره وعشرة صلدى منها ٦٣٠٠٠ للمشتروات

كتبخانة سنت جنفياف (بفاىن فارسيتين) - تحتوى على ٢٠٠ ألف مجلد منها أربعة آلاف بخط اليد وفيها زيادة على ذلك ٢٥ ألف لوحة مزدانة بنقوش بديعة وفيها خرائط قديمة كثيرة ومبصومات وفيها غرفة مطالعة خصوصية تحتوى على أغرب

مافيها من مجاميع وكتب بخط اليد ومطبوعة ونقوش وفيها تمثال أرلرمش چيرنج أول من أدخل فن الطباعة الى باريس فى سنة ١٤٧٠ وغيره من المشاهير وفيها غرفة مطالعة عمومية تسع ٤٢٠ شخصا وحواليها ستائر من صنع الجُبلين تمثل المطالعة وقد دهمها الليل وهو رمز الى الشغل النهارى والليلى فى هذه الغرفة

كتبخانة مازارين - وهى فى جمعية المعارف وفيها ٢٥٠ ألف مجلد منها ٦ آلاف بخط اليد

هذه هى أشهر المكاتب العمومية وفى المدينة مما يقاربها مكتبة متحف الفنون والصنائع وقد قلنا انها تحتوى على ٣٠ ألف مجلد ومكتبة مدرسة فرنسا الجامعة وفيها ٤٣ ألف مجلد ومكتبة مدرسة الفنون المستظرفة وقد قلنا ان عدد كتبها ١٢ ألف ومكتبة المجموعات التاريخية لمدينة باريس وفيها ٩٠ ألف مجلد و ٧٠ ألف مبصوم ومكتبة مدرسة المعادن وفيها ٦ آلاف مجلد ومكتبة بستان النبات وفيها ٨٠٠٠٠ مجلد ومكتبة الاوبرا وفيها ١٥ ألف مجلد وكراسة و ٦٠ ألف مبصوم وفيها كثير من الرسوم والتصاوير والتماثيل الخاصة بفن التشخيص والموسيقى

والقيان والقينات وقد ذكرنا كتبخانات أخرى فى الفصل المتقدم

واعلم ان لكل جمعية مهما كانت غايتها ومذهبها ومشربها فى السياسة والصناعة والعلوم مكتبة خاصة بها تعد المجلدات فيها بالالوف وعشرات الالوف وكذلك الشركات والمدارس والمكاتب العمومية ولاغلب الكتبخانات فترة معينة فى السنة تقفل فيها

العمائر الدينية فى باريس

يوجد بهذه المدينة ٧٠ كنيسة (ذات أبرشية) غير البيع الصغيرة التى قد لايخلو بعضها من الاهمية والسائح الذى يريد أن يقف على الدقائق و يكون له بعض احاطة عمومية باحوال البلاد التى يجوبها لايصح له أن يغض الطرف عنها ولكنى أقتصر فى هذه الخلاصة على بعض اشارات خفيفة وأقوال وجيزة

كنيسة نوتردام - كان البدء فى بنايتها سنة ١١٦٥ ثم توالى عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت على ماهى عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥ وطولها ١٣٣ مترا

وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣٫٧٧ مترا فى المتوسط ولم يحصل تكريسها الا فى سنة ١٨٦٤ وهى من أجل العمائر التى فى فرنسا على الطرز القوطى المتفرد بالشكل البيضاوى ويحف بواجهتها برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات وغيرهم وملوك وأمراء وفيها جرس زنته ١٣ ألف كيلوجرام وجرس مأخوذ من سباستبول حينما تحالف الفرنساوية والانكليز وسرادنيا مع الدولة العلية أيدها الله على الروسية ولم يغلبوا الروس الا على سباستبول وفيها وردة من الزجاج عرضها ٩ أمتار و ٦٠ سنتى تمثل باشكالها وألوانها الحواريين الاثنى عشر وهم مجتمعون فى مكان واحد وفوقها سهم من خشب البلوط مغشى بالرصاص مركب من ثلاثة أدوار أفرغ صانعه جهده فى تنسيقها وتزويقها وهذه الادوار على شكل هرمى ويرتفع السهم عن الارض بخمسة وتسعين مترا وثقله ٧٥٫٠٠٠ كيلوجرام منها ٥٠٠٫٠٠٠ من الخشب و ٢٥٠٫٠٠٠ من الرصاص وفى داخل الكنيسة ٣٧ بيعة ومنابر متناهية فى الجمال يعظ فيها القساوسة الناس وفى الخوروس أشغال فى الخشب تبهر الانظار خصوصا التراكيب والترابيع المعروفة بالعربية التى هى عبارة عن خطوط متشابكة متلابكة متداخلة فى بعضها على طريقة أهل المشرق والاندلس

وفيها أرغن من أكبر أمثاله فى فرنسا وأكملها يحتوى على ٦٠٠٠ قصبة لاخراج الهواء وتوقيع الانغام — وأهم مافيها بصرف النظر عن ضخامة البناء واتساع الارجاء وانتظام العقود وارتفاع القباب انما هو خزينة الذخائر فانها تحتوى على مخلفات ثمينة مصنوعة من الفضة الخالصة والذهب الصافى ومرصعة بالاحجار الكريمة وأوانى مقدسة ومباخر والعباءة التى تردى بها نابليون حينما كرسه البابا امبراطورا على فرنسا والتحف النفيسة التى أهداها الامبراطرة والملوك والملكة مارية انطوانيت وتمثال من الفضة للسيدة مريم عليها السلام وصور وتماثيل رؤساء الاساقفة فى باريس ومجموعة من الاحجار الكريمة محفورا فيها صور جميع الباباوات الماضين وجملة صلبان وكؤس وجامات وشمعدانات وغير ذلك من الحلى والملابس المزركشة المرصعة التى تستخدم فى الاحتفالات الدينية الكبيرة وفى بعض الايام يعرضون على الجماعات المتقاطرة الى الكنيسة صندوقا فيه اكليل الشوك وبعض المسامير التى يقال انها استخدمت فى صلب كلمة الله (عليه السلام) ويعرضون قطعة من خشب الصليب أحضرها هى والاكاليل والمسامير القديس لويس من بلاد المشرق أيام الحروب الصليبية

وخلف هذه الكنيسة منتزه بديع يفضى الى مكان مربع

تنقبض له النفوس وتصم من ذكره الآذان وهو المعروف عندهم بالمورج تعرض الحكومة فيه الاموات الذين لايعرف أهلهم حتى اذا استدل عليهم أحد من العموم أرشد جهات الادارة عنهم وقد زرته ورأيتهم يحفظون الغرقى والمقتولين والمشنوقين وغيرهم مع العناية المتناهيــة والاحتراسات الواقية فلا تخرج منهم رائحــة مطلقا وليس منظرهم بشعا مشوها بل تراهم كانهم نيام لابســين ملابس لائقة ولايظهر منهم الا وجوههم

البيعة المقدسة — بنيت فى سنة ١٢٤٢ وتمت بعد ذلك بخمس سـنين وهى فى باريس كالدرة اليتيمة فى العقد النفيس خصوصا سهمها الذى لم ير الراؤن أبدع منه فى الحسن والجمال وهى أقدم وأجل مافى باريس من العمائر القوطية بناها الملك لويس التاسع القديس ليضع بهـا الاكليـل الشوكى والمسامير وقطعة الخشب التى سبق لنـا الكلام عليها بعد أن اشـتراها من بودوين الثانى ملك القسطنطينية وقـد اسـتخدمت حينا من الدهر كمسـتودع للمحفوظات القضائيــة ولكنهـم رمموها الآن كما ينبغى واقتضت العمارة فيها ثلاثين سـنة من الزمان وبظاهر وجهتها تمثال الملك لويس وشـقيقه لويس الاسـقف وفوقهما تمثال العـذراء عليها السلام والبيعة من الداخل تتلألأ بالزخرفة الفاتنــة والنقوش

المذهبة وهى على شكل بيعتين احداهما فوق الاخرى فأما السفلى فلا تستعمل الآن فى تعبداتهم الدينية وأما العليا فيحصل فيها القداس فى يوم ١٦ اكتوبر وقد كان القضاة بالمحاكم ملزمين بحضوره قبل هذا الزمان و بجانب سواريها تماثيل الحواريين الاثنى عشر وفيها من الشبابيك مايبهر الابصار وتحار فيه الافكار من انسجام ألوان الزجاج وتناهى بهائه وصفائه مع الاحكام فى التنسيق والاجادة فى التزويق وفوق البوابة وردة من قطع الزجاج تقر لرؤيتها العيون وتعترف بجمالها العقول

كنيسة سنت أوستاش — أحسن الاوقات لزيارة هذه الكنيسة المتناهية فى الضخامة يوم الاحد اذ يكون فيها تلحين الآلات الموسيقية وتوقيع النغمات الصوتية بكيفية تطرب لها الاسماع وهى شبيهة ببعض القصور العربية من ان خارجها لاينبئ بشئ عما فى داخلها من الزخرفة والاتقان فان واجهتها وجهاتها من الخارج حقيرة بالنسبة لما يكنه داخلها من متانة الصناعة وجسامة المقادير وضخامة الاحجار وارتفاع العقود ارتفاعا متطاولا واتساع الاقواس اتساعا هائلا حتى ان الانسان ليخال له انها أعدت للتحصن والاعتقال وكان البدء فى تشييدها فى سنة ١٥٣٢ وتمت فى سنة ١٦٤١ ولذلك فهى ليست على مثال واحد أومن

طرز متجانس من الطرازات المتعارفة فى فن العمارة ولكنها من أجمل كنائس باريس وأكثرها زخرفة وتزويقا وطالما مررت عليها ولم تكن نفسى تحدثنى بضياع الوقت فى الدخول اليها ولما شاهدتها رأيت أنها بعكس خضراء الدمن ظاهر قبيح وباطن مليح ولا أرى من حاجة للكلام الآن على مافيها من المصنوعات والتحف والنقوش فى الرخام والمعادن والاحجار أو البيع الكثيرة المشحونة بالزخارف والطرائف أو زجاج الشبابيك أومنابر الوعظ أومفاتيح العقود التى تربط الاقواس والحنايا ولكنى أقول ان الضياء فيها أكثر منه فى أمثالها كما أن هواءها أجود وأخف على الروح وقد دفن بها كثير من مشاهير الفرنساوية مثل كولبير وزير لويز الرابع عشر والقصصى لافونتين الطائر الصيت المخلد الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والادب والحسب

كنيسة سنت جرمان لوكسروا - هى فى ميدان اللوفر بنيت فى القرن السادس للميلاد وكان ملوك فرنسا يحضرون القداس فيها ثم توالت عليها الايام واتفق ان النورمانديين اعتقلوا بها فى سنة ٨٨٥ ثم جعلوا عاليها سافلها فأقام القوم بناءها فى أوائل القرن الحادى عشر ثم شرعوا فى تجديد معالمها وتغيير أوضاعها ولم يتم

تشييدها في هـذه المرة الثالثة الا بعـد مضى ثلاثة قرون من الزمان وانما ذكرت هذه الكنيسة لشهرتها في التاريخ اذ انه في ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ (وهو اليوم المشهور بواقعة سنت بارتلمى التى قتل فيها الكاثوليكيون البروتسانتيين قتلا ذريعا) اتفق المتحالفون المتمالئون على ان يبتدؤا في العمـل حينما يدق ناقوس هـذه الكنيسة للايذان بقداس الصباح وفي يوم ١٣ فبراير سـنة ١٨٣١ أقيم فيها احتفال جنائزى عن نفس دولك دو برى ولكن احزاب الثورة التى حصلت في يوليو أولوا هـذا الاحتفال تأويلا فاسـدا واتخذوا ذلك ذريعـة للتشنيع على الكنيسة فباغتها العوام والطغام ونهبوا كل مافيها من النفائس والاعلاق ثم أقفلت الكنيسة وجعلت مقرا لدار أمانة المدينة مدة سبع سنين فانها في ١٣ مايو سـنة ١٨٣٧ أعيدت الى وظيفتها الاولى

أما داخلها وبيعها فمثل الكنائس الاخرى ولكن احدى هذه البيع تمتاز بكثرة الزخرفة على الطراز القوطى وفيها بيعـة أخرى تحاكى برسومها وزجاجها البيعة المقدسة التى ذكرناها

كنيسـة سان سولبيس - هى عبارة عن عمارة بالغـة في الجمال متناهيـة في الاتساع كان وضع الحجر الاول فيها بحضور

الملكة انه دوتريش Anne d'Autriche فى سنة ١٦٤٦ وواجهتها
عبارة عن سوارى قائمة على بعضها بشكل يروق الانظار فيما بين
البرجين الشامخين وفى دائرها من الداخل بواكى واسعة تعلوها أساطين
متقنة وبيع متعددة تزيد فى بهجتها وفوقها قبة مزخرفة بصور
ونقوش من صنع بعض الماهرين فى هذه الفنون وفى وسط صحنها
مسلة من المرمر يمر عليها خط من النحاس للدلالة على الاتجاه الشمالى
وفيها منبر للوعظ فى غاية مايكون من الحسن أمر بصنعه المارشال
ريشليو وفيها عدا ذلك أشياء كثيرة لاتستحق الذكر الآن سوى
الارغن فانه من أكمل وأجمل مايوجد من هذا القبيل والقوقعتان
العظيمتان اللتان يوضع فيهما الماء المقدس وهما هدية من جمهورية
البندقيــة الى فرانسوا الاول وسبيل فاخر محاط بتماثيل بوسوييه
وفنلون وماسيليون وفليشيه وهم من أهم وعاظ الكنيسة وادباء
الفرنساوية فى عصر لويز الرابع عشر

البانتيون - مجرد ذكر هذا الاسم يشعر بالعظمة والجلال
و يبعث فى النفس هيبة ووقارا وفى الفؤاد اجلالا واكبارا كيف
لاوهو مستودع لبقايا الذين خدموا العلوم والفنون وسعوا فى تعزيز
وطنهم وترقية بلادهم حتى جعلوا لهاتين الامم مقاما محمودا وفضلا
مشهودا ولا يدخله انسان الا وتداخله السكينة والتؤدة فيسير

فيــه على أطراف الاقدام ملازما الصمت التام بل تكاد تخرج من فيــه ألفاظ التحيــة والســلام على عظام هــؤلاء العظام (والپانتيون كلمة يونانية من پاس أى جميع وثيوس أى اله ومعناها المعبد المخصص لجميع الآلهة مثل الكعبة فى أيام الجاهلية وكثيرا ماتستعمل للدلالة على التعظيم والاجلال اللذين يقوم بهما الخلق فى حق المشاهير وأهل الفضل فيقولون ان فلانا له مقام معين فى پانتيون التاريخ وهكذا)

بنى هذا المكان فى سنة ١٧٦٤ وجعل كنيسة باسم القديسة سنت جنڤياف (بجيم وفاء بن فارسيتين) راعية باريس وحاميتها ثم جاءت الحكومة الاتفاقية فى ســنة ١٧٩١ فغيرت ماوضع له ومنعت العبادة منــه وأطلقت عليه اسم الپانتيون وكتبت على واجهته هذه العبارة الوجيزة فى الكلمات البليغة فى المعانى والدلالات

(لعظماء الرجال شكر الاوطان)

(Auxgrands hommes,lapatrie reconnaissante.)

فلما آل الامر والسلطان لعائلة بوربون ورجعت الحكومة الملوكية أعيد الپانتيون الى أصله حتى كانت الثورة فى سنة ١٨٣٠ فسمى الپانتيون مرة ثانية واستمر كذلك مدة ٣١ سنة الى أن جاء الامبراطور نابليون الثالث فاصدر تقليدا ملوكيا يقضى باعادته للديانة باسم سنت

جنڤياف ولكن الحكومة الجمهورية الحالية أصدرت أمرا عاليا
فى يوم ٢٣ مايو سنة ١٨٨٥ عقيب وفاة ڤيكتور هوجو مباشرة
باعادة اسم البانتيون للمرة الثالثة وبعد صدور هذا الامر بأيام
قليلة احتفل الفرنساويون قاطبة بنقل جثة هذا الشاعر العظيم
الى البانتيون ودفنوها بجانب مقبرة چان چاك روسو وفولتير
وميرابو وكان هذا الاحتفال بالغا فى العظمة بحيث لم يسبق له
مثال وقد اشتركت فيه الدولة بصفة رسمية والامة باجمعها ممن فى
فرنسا وفى الخارج واعلم ان واجهة هذا الهيكل قائمة على اثنتين
وعشرين اسطوانة وفوقها نقوش بارزة تمثل الوطن واقفا بين
الحرية والتاريخ وهو يوزع أكاليل المجد وشارات الفخار
على عظماء الرجال مثل بونابرت من جهة اليمين ومن جهة اليسار
روسو وفولتير وميرابو ودافيد وغيرهم من رجال فرنسا المعدودين
وطول هذه العمارة الفخيمة ١١٣ مترا وعرضها ٨٥ مترا
وفوقها قبة (قطرها ٨٣ مترا)

أما داخله ففيه كثير من التماثيل والصور الدينية والتاريخية
التى لها علاقة بالمدينة ولا حاجة لتفصيلها الآن أما القبة فهى
عبارة عن ثلاثة قباب فوق بعضها وفيها كلها نقوش لا يستحق

الذكر منها الا ما يستجلب الانظار فى القبة الثانية من الرسوم التى
تصور الموت والوطن والعدل والمجد وعلى العمدان التى تستند
عليها القبة يرى الانسان ألواحا مزدانة باسماء أبناء الوطن الذين
ماتوا فى سبيل الدفاع عن القوانين والحرية فى ٢٧ و ٢٨ و ٢٩
يوليو سنة ١٨٣١ وسأتكلم عليهم بمناسبة العمود الذى أقيم
لاحياء ذكرهم ومما ينبغى تنبيه الشرقى اليه من الرسوم الكثيرة
المزدانة بها جدران هذا الهيكل الصورة التى تمثل الامبراطور
شارلمان وهو يعيد العلوم والآداب بعد اندراسها ويفتح المدارس
ويؤسس المكاتب ويستقبل وفود الخليفة هارون الرشيد ومعهم
من قبل أمير المؤمنين مفاتيح القبر المقدس هدية منه لهذا
الملك العظيم الشأن وهنالك طنفسان من ستائر الجبلين قيمتهما
١٠٠,٠٠٠ فرنك (أربعة آلاف جنيه انكليزى تقريبا)

ومن صعد الى أعلى قمة القبة رأى أبهج المناظر وأحسن
المرائى اذ يكون مشرفا على باريس وطرقاتها وقصورها وحركتها

أما الدور الذى تحت الارض فهو عبارة عن جملة مغاير
منقسمة الى أروقة منتظمة يتردد فيها الصدى بكيفية تقرب مما
رأيته بل سمعته فى رومة وبيشة وكنيسة القديس بولس
بلوندرة واللوفر ومحفظ الفنون والصنائع بباريس وغير ذلك وفيه

قبور كثير من عظماء فرنسا الذين يتفاخر بهم ابناؤها اذا جمعتهم المحافل .

وقد كان رجوعي الى باريس عقيب وفاة رنان ببضعة أيام وكانت الجرائد ورجال السياسة مشتغلين بمسئلة نقله الى البانتيون وكثر حديث القوم بهذا الشأن الى درجة لا يمكن تصورها وجرت مسئلة رنان الى التحدث بنقل غيره من مشاهيرهم أيضا فقدم وزير المعارف مشروع قانون لمجلس النواب لكى يصادق عليه حتى يكون نقل بقايا رنان بمقتضاه وقد قال الوزير فى تقريره ما معناه (ان حكومة الجمهورية تقترح على المجلس اشراك ميشليه وكينيه مع رنان فى هذا الاجلال والتعظيم فانهم وان اختلفت ملكاتهم وتباينت أفكارهم ومصنفاتهم فلا تزال بينهم رابطة لا يمحوها مرور الزمان اذ كانوا كلهم اساتذة فى مدرسة فرنسا وقد أنشأها مؤسسها لخدمة المعارف الحرة وهم كلهم قد جاهدوا لتأييد الاستقلال فيما يتعلق بابداء الافكار وكلهم احتملوا الشدائد وقاسوا المصاعب فى هذا السبيل)

ولكن الجرائد وبعض اعضاء مجلس النواب شطوا فى الطلب وتغالوا فى نقل عظام بعض المشاهير الى البانتيون وكثير منهم أخذ فى التهزيء والتهكم وفريق آخر فى نحت كلمات مستنفرة

من لفظة بانتيون وهكذا مما هو شأن الجرائد فى هذه البلاد عند حلول أى حادث يستلفت الانظار فقام جماعة بطلب نقل عظام بعض البارعين فى توقيع الانغام وآخرون منتصرون لنقل بعض المؤرخين أورجال السياسة أو المعارف أو النظم أو الادب أو التصوير أو الطب أو نشر الكتب أو الكيمياء أو الاقتصاد أو اللغات أو أعضاء مجلس النواب أوغير ذلك وقام بعض النواب يطلب نقل بقايا تيارس المشهور فردت عليه أخت زوجته بكتاب أرسلته الى كافة الجرائد ترجوه فيه العدول عن هذا الطلب لان زوج شقيقتها كان على الدوام يعرب عن رغبته فى أن تدفن عظامه بجانب أهله وقالت له فى ختامه (انى أسألك ان تتكرم بالكف عن اقتراحك وأن تترك الموسيو تيارس بعيدا عن اضطرابات السياسة فى مكان الراحة والسلام الذى اختاره أهله له) وبمثل ذلك أجاب بعض ورثة الشاعر المشهور لامرتين والمؤرخ ميشليه برفض نقلهما الى البانتيون وغيرهما وغيرهما ورأيت كثيرا من الجرائد المعتبرة والثانوية اتخذت هذه الحوادث فرصة لاستعمال الفاظ الطيش والخفة فيقولون

❀ عقود البانتيون الباردة — خباياه المظلمة — زواياه المحزنة — هيكل الملل — مدفن عظماء الرجال الذين يؤدى لهم الوطن

ماعليه من دين الشكران بشح وتقتير - ان هذه العمارة التى اجترمتها يدافلان (كان انشاءهذا البانتيون جريمة لاتغتفر) اراها لاتحتوى على شئ من الاجلال الذى يتصور القوم اتحاف عظام العظماء به بعد وفاتهم - ان دانت الشاعر الطليانى الذى كتب على الجحيم لواطلع على هذه الاروقة الصاقعة لجعلها فى سقر وبئس المستقر ﴿ وأمثال ذلك من عبارات السخرية التى لاأتذكرها

وبمناسبة هذا البانتيون أذكر خلاصة موجزة على العمائر المشاكلة له فى بعض البلاد التى مررت عليها فانى رأيت فى معظم الكنائس التى تفرجت عليها ان لم أقل كلها قبورا لمشاهير أبناء الوطن ومن أهم مايستوقف أنظار المتسوح فى أوروبا عند قدومه الى ايطاليا البانتيون الرومانى القديم وفيه الآن قبر الطيب الذكر ڤكتور عمانويل وفى كل سنة يتقاطر الطليانيون الذين تشربت قلوبهم بحب الوطن الى هذا المكان ويزورون هذا القبر بغاية التبجيل والتوقير وبجانب الملك قبر رفائيل الرسام المشهور وغيره من النابغين فى الفنون المستظرفة وفى فلورانسة مكان يسمى سنتا كروتشى (الصليب المقدس) ويسمى بانتيون ايطاليا لانه يحتوى على كثير من تماثيل عظمائها فى كل فن ونوع من التصوير والادب والفلسفة والموسيقى والنحت والنقش والسياسة والدولة

والعلم الطبيعى وبعض أعضاء العائلة الملوكية وغيرهم ممن كان يندرس ذكرهم لولم يكن اسمهم منقوشا على الرخام ومعروضا لانظار العامة والخاصة على الدوام ولا أطيل الكلام بذكر مافى المدائن الاخرى وأذكر مافى لوندرة فكل الصيد فى جوف الفرى فان دير ويستمينستر هو أحق هذه العمائر باسم البانتيون أى الاثر الذى يقيمه الوطن الشاكر لابنائه فضلهم العارف لهم حق خدمتهم وذلك لان من يريد أن يقف حقيقة على عظمة الامة الانجليزية ومجدها فى التاريخ ينبغى له أن يذهب الى هذا الدير الذى يحتوى على أكثر من ثلاثمائة أثر أقامها الوطن لعظماء الرجال فى السياسة والعلوم والموسيقى والفلسفة والشعر والسياحة والملاحة والاستكشاف والاستنباط وتشخيص الروايات وأعضاء العائلة الملوكية وكل من عاون على اعزاز انجلتره ورفع منارها باية كيفية من الكيفيات ولاشك ان الرجل من أبناء بريطانيا العظمى حينما يدخل الى هذا المكان ويطوفه ويقرأ مافيه من الاسماء يكبر فى عين نفسه ويرى من الواجب عليه ان يبذل كل جهده ليكون جديرا بالانتساب الى هؤلاء الاجداد ولا يكتفى بان يقول كان أبى أوصنع قومى

جبانات باريس

كانت المدافن فى هذه المدينة بجوار الكنائس فأقصتها الدولة الى ما وراء المساكن حفظا للصحة وتوسيعا لنطاق البلد ويبلغ عددها الآن ٥٩ جبانة منها ١٣ داخلة فى حومة باريس والباقى خارجها وأجدرها بزيارة الغريب ثلاثة فقط وأهمها وأكبرها مقبرة الاب لاشيز ولذلك توجهت اليها ثلاث مرات فى ثلاثة أيام لانتظامها واحتوائها على كثير من عظماء الرجال

هذه المقبرة كائنة على رابية ذات انحدار خفيف ويبلغ مسطحها ١٣ هيكتارا وكانت ملكا لرجل من اليسوعيين اسمه الاب لاشيز (كان أمين سر الاعتراف للملك لويز الرابع عشر)

ولهذه المقبرة ذكر متواتر فى روايات الفرنساوية وأقاصيصهم مما يتعلق بالغرام ولكن أشهر ما وقع فيها انما هو المقاتلة العنيفة بل المذبحة الشنيعة التى حصلت فى ثورة الكومون

كان انشاء هذه الجبانة وهندزتها فى سنة ١٨٠٤ ثم أخذت بعد ذلك فى الاتساع والامتداد من جهة المشرق حتى أصبحت الآن عبارة عن ٤٣ هيكتارا أو ٩٤٠٠٠ متر وعدد سكانها وحدها ٣ مليون أى أكثر من الاحياء فى باريس كلها وفيها

١٥٠ طريقا ويمر تحتها نَفَق لسكة حديد الحزام التى تمر حول المدينة فيكون الاحياء تحت الاموات وفوقهم وليس فيها شيء مما يقبض النفوس ويزعج الناظرين بل يعتبرها كل من زارها كأنها من أحد المنتزهات البديعة وخصوصا حينما يتجوّل فيها الانسان تاركا نفسه مع تيار الافكار متأملا فى هذه الحياة الدنيا ثم يقف من غير قصد فيقرأ الاسماء التى على القبور ويرى بينها بالصدفة اسم رجل عظيم أفاد الوطن أو الانسانية بكتاباته أو أعماله فانى كنت فى هذه الحالة يحصل لى انشراح عظيم كأنى أكتشف أمرا جليلا أو وقفت على سر نافع وتعرفت بالرجل ذاتيا خصوصا وان قبور العظماء ليست كلها على حافة الطرقات أو فى المواضع التى تستوقف الانظار فترى العالم بجانب الزارع وبعدهما صانع يخلفه شاعر يتلوه مؤرخ فتاجر فرجل حيثما اتفق فقائد كبير أو أمير شهير أو فيلسوف نابغ أو محسن فاضل الى غير ذلك من جميع أصناف الناس وطبقاتهم وأذكر الآن بعض الذين وقفت أمام قبورهم وتذكرت أعمالهم وما استفدته من تأليفهم أو الذين سمعت بشهرتهم مكتفيا بذكر الاسماء لعدم الاطالة واعدا نفسى بالاشارة فى الرحلة الى أعمالهم مثال ذلك فيسكوندى وروسينى والفريد دوموسيه ولونوار وفافين ومادام بلان وإرّازو وفوليينى وفيرون وأورنانو ومادام هوارد

ومادام مارى رُوبِر ومورل ووالسكى ولازارجو وزنياتللى والاثر المقام للعساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى الدفاع عن وطنهم فى حرب سنة ١٨٧٠ المشهورة والأثر المقام للحرس الأهلى الذين قتلوا فى الحرب المذكورة وقبر ميشليه وآدم والكونتس داجولت ودوسيز وسولينه وكاموس وبرجيه والاثر المقام لتيارس المشهور ومنه يرى الناظر أمامه قبة البانتيون ثم قبر بلانكى و بيّار ومد موازل الوتر ومدموازل دوجنليس ولابلاس وغرسية وموليير بجانب لافونتين وجى لوساك ومقبرة لهوجو سان سيمون ووبنجامين كونستان وماكدونلد والجنرال فواوبيرانجيه وبومارشيه وسكريب وفولنى وجرامون ولوبل والمقبرة التى أعدتها سارة برنار لنفسها وهى تتعهدها فى أوقات كثيرة وقبر أبادى والمقبرة المخصصة للمسلمين الذين يتوفاهم الله فى باريس وقبر مدموازل دوشسنوا وتاليبران ولافيت ومقبرة لدولسس وأندريو ورسپاى وموبخ وكازمير پيرپيه وفونتان وديدو ومقبرة الاسرائيليين وفيها ميشل ليڤى (لاوى) وروتشليد وما دام فولد وراشل (راحيل) المشخصة المشهورة وغيرهم ثم قبور پاجيس وچيريكو وبلليني ودنون ودلامبر ورأيت أثرا يشبه ضريحا مكتوب عليه ماهذه ترجمة (مقبرة الاب الابدى) وأقول انهم يعنون بالاب الابدى المولى الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد تعالى الله عما يصفون

وانما ذكرت هذه العبارة من باب الغرابة والعلم بالشئ وناقل الكفر ليس بكافر وبعدان استغفرت الله تنزهت صفاته وتقدست اسماؤه مررت كعادتى فرأيت قبر شينيية وكوفييه ومنتون ولدرورولين وكوسين ومالهرب وأوبير وأراجو ومدموازل لونورمان الكاهنة العرافة المعروفة التى انبأت نابليون بجميع وقائعه فى المستقبل بواسطة ورق الكتشينة بغاية الضبط وتمام التدقيق وكان كما قالت من غير تحريف أو تبديل وقد اتفق انها حوكت جملة مرار وكانت على الدوام تقول للقضاة انكم انما تتعبون أنفسكم سدا وتضيعون أوقاتكم عبثا فانى لاأموت الا بعد سبعين سنة (أوعدد آخرلا اتذكره الآن) وبالفعل كانت وفاتها فى الوقت الذى أخبرت به وقبور پول بودرى ولويس داڤيد وكساڤييه بيشا ولاڤوازييه وبرناردان دوسان پييروشيروبينى المارشال ڤيكتور والاثر المقام للذين ذهبوا فريسة الحوادث فى شهر يونيو سنة ١٨٣٢ وقبر نيلاتون وشامپوليون وكللرمان وجوڤوان سان سير والجنرال جوبير ودوپويترن ولاڤاليت وسوشيه وداڤيد دانجيه وبود والمارشال لوفڤر وماسينا وبيسكو والمارشال مورتييه والمارشال نى والمارشال لوبو وراسين وجوفروا سنت هيلير ورميدوف وپراديه ودزوجييه واللان كاردك والمشخصة

دجازت وبالزاك وأوجين دولاكروا وقبر العلامتين كروسى سبينللى وسيفل وقدماتا شهيدين فى سبيل المعارف حينما صعدا فى الجو بالقبة الطيارة الى طبقة عالية جدا وحققا أمورا كثيرة مفيدة ثم سقطت بهما فلم تقم لهما بعدها قائمة وقبر الكونتس داجو صاحبة التآليف المشهورة التى أخفت فيها اسمها حيث اتسمت بدانييل سترن وغيرهم من المشاهير الذين يطول ذكرهم فى هذه الورقات وهنا انبه القارئ الى أن بعض الاكابر الذين ذكرت اسماءهم يوجدون مدفونين فى جهات أخرى من باريس أوفى مدائن غيرها ولكن الحكومة جعلت لهم قبورا فى هذه الجبانة احياء لذكرهم وتنشيطا للاقتداء بهم وليس فى هذا شئ من الغرابة بالنسبة لعناية هذه البلاد بعظمائها بل الاغرب والاعجب انى رأيت ضريحا فخيما عليه تمثال رجل وامرأة بجانب بعضهما وفوقهما قبة لطيفة على عمد رشيقة تحف بهما أشجار صغيرة وأزهار نضيرة وقرأت عليهما هذين الاسمين (هيلوييس وأبيلار) وصار اسمهما علما على المحبة الزوجية الصادقة الحقيقية وقد أحضر هذان التمثالان الى باريس وعنيت الدولة بوضعهما فى هذه المقبرة فى مكان لطيف وقد علمت انه متى اصطحب فتى بفتاة وتبادلا عهود المودة الحقة والالفة الصادقة وشرعا فى عقد الزواج يأتيان

فى كثير من الاحيان فى أوقات خلو المقبرة من الناس ويضعان الازهار والاكاليل على هـذا الضريح تيمنا بثبات الوداد وتفاؤلا بتبادل الصـداقة من الطرفين وقـد رأيت أيضا عمودا أقامتـه الحكومة كأنه قبر لكل من يموت غريقا فيعتبره أهل الميت قبراله ولذلك تتراكم عليـه الاكاليل فى بعض المواسم بما يفوق العـد والوصف

وقد وافق وقوع مولد جميع القديسين أيام مقامى بباريس فاغتنمت هذه الفرصـة وتوجهت لهذه المقبرة لكى أقابل ماأراه فيها بما هو جار عندنا وهذا اليوم يسمونه عيد الاموات وقد نزل المطر رذاذا طول النهار ولكنه لم يمنع أهل باريس من التوجه الى مقابر أهليهم وذويهم ووضع الاكاليل والازهار عليها كما هى عادة الافرنج ولاأذكر شيأ عن تزاحم الجماهير فى هذه المقبرة التى زرتها حينئذ وأكتفى بذكر العدد وقدره ٤٨٫٣١٠ ومع ذلك فقد قال لى الثقاة ان الازدحام كان أقل مما فى الاعوام الماضية وقد بلغ عدد الذين توجهوا الى جميع الجبانات (بما فيها الاب لاشيز) ٢٦٧و١٩١ ولوفرضنا ان نصف هذا العدد كان حاملا لازهار ثمنها فى المتوسط فرنك واحد لتحصل عنـدنا ٥٣٫٤٢٤ جنيها انكليزيا (منها نحو ٢٫٠٠٠ لعمود الغرقى الذى ذكرته) وهو أقل مايمكن تقديره لان

الفقير منهم يقتر على نفسه ويقتصد من مأكله ومشربه عند اقتراب هذا الموسم لكى يتمكن من شراء اكليل يهديه الى فقيده العزيز المحبوب فان عادة اهداء الاكاليل متمكنة عندهم الى درجة لا يتصورها العقل بل انه كثيرا ما يتفق ان الرجل أو المرأة يموت جوعا واذا طلب من أصحابه وأصدقائه شيأ يستعين به على سد رمقه أجابوه بالرفض فاذا مات عصارى النهار أو فى اليوم الثانى بادرت الجماعة التى ينتمى اليها (مصورين حدادين نجارين طحانين أو أعلى أو أدنى من ذلك) بفتح قائمة قد تبلغ قيمتها مئات من الفرنكات فيشترون بها رخاما يضعونه على قبره و إكليلا يحتفلون بايداعه عقيب دفنه

وأذكر بمناسبة الاحتفال بالاموات ان الفرنساوية أشد الامم الذين رأيتهم اعتبارا للميت حتى انه متى مر سرير الجنازة يبادر الرفيع قبل الوضيع برفع قبعته اجلالا واعظاما مهما كانت درجة الذى فارق الحياة الدنيا

وقد قرأت فى الجرائد بمناسبة عيد الاموات ان جميع الفرنساوية الذين فى برلين توجهوا بصحبة أعضاء جمعية محبة الانسانية وموظفى سفارة الحكومة الجمهورية الى قبر العساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى برلين اثناء حرب سنة ١٨٧٠ وان وفدا حضر من فرنسا الى

هذه العاصمة لهذه الغاية وكذلك جرت جماعة الفرنساوية المتوطنين في بروسل عاصمة البلجيكا على عادتهم فتوجهوا في احتفال عظيم الى الاثر المقام لاحياء ذكر الجنود الذين ماتوا في خدمة وطنهم وكان السابق في هذه المظاهرة الملية القومية اعضاء غرفة التجارة فانهم وضعوا على الاثر اكليلا جميلا عليه هذه العبارة (من اعضاء غرفة التجارة الفرنساوية ببروسل الى مواطنيهم الذين ماتوا في سبيل الوطن — أول نوفمبر سنة ١٨٩٢) ثم جاءت جمعية التعاون الفرنساوية ووضعت اكليلا في غاية الاتقان مصنوعا من الحديد المطروق وعليه هذه الكلمات (الى الجنود الفرنساوية الذين ماتوا لاجل الوطن في سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٧١ — من جمعية التعاون الفرنساوية ببروسل سنة ١٨٩٢) ثم وقف الرئيس على سطح الاثر والقى خطابا لابأس من تعريبه في هذا المقام وهو

أقيمت الآثار وشيدت الانصاب في كل مكان سقطت فيه العساكر اثناء دفاعها عن الوطن في سنتي ٧٠ و ٧١ فسواء في ذلك المدائن الكبيرة والكفور الحقيرة

وقد اختار النزلاء الفرنساويون منذ بضعة سنين هذا اليوم أول نوفمبر لتمجيد سيرة أولئك الشجعان الذين أثخنتهم الجراح وفقدوا بعض الاطراف والاعضاء فلاذوا بهذه الارض أرض بلجيكا لتقضية مابقي من أيامهم فيها

ومن الامور المستعذبة الموجبة للتسلية الباعثة على العزاء أنهم مع بعدهم عن مسقط رأسهم وأرض اجدادهم قد صادفوا هنا عناية أخوية جديرة بالمدح والثناء - ان بلجيكا كرمت مثواهم وعاملتهم بالحسنى - فهذه العبارة الجميلة المنقوشة بحروف من الذهب على هذا القبر العام الذى ضم بقاياهم يكون فيها ذكرى للاجيال الحاضرة والآتية بما اصطنعته بلجيكا من العمل الممدوح المحمود واليد المشكورة المبرورة

ولنا الهناء نحن اعضاء جمعية التعاون الفرنساوية على مجيئنا الى هذا المكان ننشر فيه على قبور هؤلاء العزاز تلك الراية المثلثة التى كانوا يسيرون تحت ظلها فى ميادين القتال - فلتحى بلجيكا ولتحى فرنسا اه

وقد أصغى جميع الحاضرين الى هذا المقال بغاية الرعاية والاجلال وعند ماأتم الرئيس كلامه أبدوا كلهم علائم الاقرار والاستحسان

بعض الاعمدة والبوابات
والفساقى وبرج ايفل

ان الاعمدة الاثرية فى باريس هى ثلاثة أولها وأقلها أهمية عمود سواسون وهو الاثر الوحيد الذى بقى من القصر المعروف بهذا

الاسم وارتفاعه ٣٠ مترا ويقال انه كان مرصدا لمنجم الملكة كاترينة دومدسيس كان يراقب فيه حركات الافلاك واقتران الكواكب ليتمكن من اخبارها بالكائنات قبل كينونتها وفى داخله سلم يوصل الى قمته وفى أعلاه مزولة شمسية

والثانى هو عمود فاندوم فى الميدان الجميل البهيج المعروف بهذا الاسم وهو مسبوك من برونز ١٢٠٠ مدفع اغتنمتها الجيوش الفرنساوية فى الوقائع الحربية وتمت اقامته فى سنة ١٨١٠ وارتفاعه ٤٤ مترا و ٢٠ سنتيمترا وقطره ٤ أمتار وفى منتهاه تمثال نابليون متشحا بملابس امبراطور رومانى وعلى هذا العمود نقوش وكتابات تخلد انتصارات الفرنساوية فى أوائل هذا القرن

والعمود الثالث هو المعروف بعمود يوليو وهو فى وسط ميدان الباستيل أقيم تخليدا لذكر الحرية فى نفس المكان الذى كانت فيه قلعة الباستيل معدن الجور والحيف والاستبداد وعليه بحروف من الذهب اسماء الذين استماتوا فى اعلاء كلمة الحرية ونشر رايتها على ديار فرنسا فى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ وفى أسفله مقابر أولئك الابطال محطا للاعجاب والاجلال ومن صعد الى قمة هذا العمود الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧ مترا رأى باريس كلها تحت أقدامه وأمتع ناظريه بمرأى جميل معجب وفوق هذا

العمود تمثال من البرونز المذهب يمثل ملاك الحرية وفي يده مصباح يرسل النور منه الى جميع أطراف العالم

وبمناسبة العمدان نذكر المسلة المصرية المعروفة بمسلة كيلوبطرة التي هي أجمل حلية في أجمل ميدان في أجمل مدينة قد أهداها المخلد الذكر محيي مصر المغفور له أفندينا الكبير الحاج محمد علي باشا الى فرنسا فوضعتها في ميدان الكونكورد الذي تحف به تماثيل كثيرة تمثل مدائن فرنسا التي خدمت الوطن برجالها وأعمالها وهذه المسلة من حجر واحد من الصوان الوردي وعليها كثير من النقوش البربائية وطولها ٢٢ مترا و ٨٣ سنتيمترا ووزنها ٢٥٠٠٠٠ كيلوجرام وفي أسفلها ترى نقوش بالذهب تمثل كيفية اقامتها ورفعها بمقتضى علم الاثقال وكان ذلك في سنة ١٨٣١ على يد المهندس الماهر الموسيو لبا

أما البوابات والاقواس فهي كثيرة نذكر منها باب القديس دنيس (وهو الذي بعد أن قطعت رأسه في أيام الاضطهاد رفعه من الارض بين يديه وهو مضرج بالدماء) وهو أثر جميل قد توالت عليه العمارة والترميم وكانت اقامته في سنة ١٦٧٢ تمجيدا

لذكر لويز الرابع عشر وتذكارا لفتوحاته فى بلاد الالمان

وكذلك باب القديس مارتين على مقربة من الباب السابق تذكارا لفتح اقاليم فرانش كونتى وهزيمة الالمان على يد لويز الرابع عشر وفيه نقوش بارزة متقنة

وقوس الكوكب وهو أكبر بوابات الفوز والانتصار الموجودة فى باريس فان مجموع ارتفاعه ٤٥ مترا و ٣٣ سنتيمترا وعرضه ٤٤٫٨٢ مترا وأول من ابتدأ فى تشييده هو نابليون فى سنة ١٨٠٦ لاجل تخليد فتوحات الجيوش الفرنساوية واحياء مآثرها ولكنه لم يتم الا فى عهد الملك لويز فيلب

وقد بلغت نفقاته ٩٫٠٥١٫١١٥ من الفرنكات (قريبا من ٣٦١٣٢١ جنيها)

وهو كله مغشى بنقوش فى الحجر مناسبة لمقتضى الحال وحول أركانه الاربع تماثيل ضخمة تصور هيئة السفر والفوز والمقاومة وعقد الصلح وفى بعض أعاليه رسوم بعضها يصور واقعة أبى قير وأخرى تمثل استيلاء الفرنساوية على الاسكندرية - وقد تقصده ثوار الكومون فى سنة ١٨٧١ فوجهوا قنابلهم نحوه ووالوا اطلاق المدافع عليه ثلاثة أسابيع متوالية كان عدد المقذوفات التى أصابته فى كل يوم بالمتوسط ٩٠ فيكون مجموع ما أصابه

من القليل ۲٫۰۰۰ بالتمام ولكن القوم أعادوا ترميمه واصلاحه بعد أن انطفأت نار هذه الثورة الشنيعة

وفى يوم ۳۱ مايو سنة ۱۸۸٥ عرضت الدولة الفرنساوية تحت هذا القوس التابوت المحتوى على جسد الطبيب الذكر فيكتور هوجو باحتفال جليل استمر ٢٤ ساعة

وقد صعدت الى أعلى هذا القوس فاستغرق ذلك من وقتى ٨ دقائق و رأيت من فوقه منظرا بهيجا جدا اذ اننى كنت فى ميدان يصب فيه ١٢ دربا سلطانيا محتوية على صفين من الاشجار وخلفها المبانى الفخيمة أو البساتين البديعة

وقد سبق لى كلام وجيز على قوس فخار الكاروسل فلا موجب لاعادته فى هذا المقام وانما أستعيضه بذكر برج القديس جاك فانه فى وسط حديقة أنيقة فى مركز ميدان الشاتلية

وهو من أظرف الآثار القديمة الباقية فى باريس وفى أسفله جملة عمدان فى وسطها تمثال العلامة المحقق باسكال وفى قمته تمثال القديس المذكور - وارتفاع هذا البرج ٥٢ مترا وفيه بعض آلات فلكية خاصة بعلوم الآثار العلوية وفيه غرفة يحضر اليها التلامذة لتعلم الرصد وما يتعلق به وقد تناقل القوم

ان العلومة باسكال جدد فيه تجاربه المتعلقة بمعرفة مقادير ضغط الهواء على البارومتر

وأما الفساقى فهى كثيرة فى باريس منها فسقية كوفييه العالم بالتاريخ الطبيعى صاحب الاكتشافات الكثيرة ومخترع علم الكائنات الحفرية وفوق هذه الفسقية تمثال من الحجر للتاريخ الطبيعى ثم فسقية الشاتليه فى مكان سجن كان هنالك قديما وهى فى وسط الميدان المعروف بهذا الاسم الآن وعليها تماثيل للامانة والقوة والقانون والتيقظ ويندفع الماء الى حوضها من أفواه أسفنكسات (أبو الهول) وفوق الفسقية تمثال الانتصار وفى يده أكاليل الفخار ثم فسقية جربنل وفيها تمثال باريس وهى جالسة فى سفينة وتحت قدميها نهرا السين والمارن وحولها تماثيل الفصول الاربعة والسفينتان اللتان هما شعار لها ثم فسقية الابرياء تحيط بها حديقة زهرية وهى من أجل الآثار التى يقصدها الزوار وعليها نقوش تمثل جنيات الماء فى غاية الابداع وقد كانت أولا فى سوق الفواكه ثم نقلوها الى محلها الآن حجرا حجرا ثم فسقية لوفوا وهى بناء أنيق أمام المكتبة الاهلية وتحتوى على تماثيل متقنة تمثل الانهار الاربعة التى فى

فرنسا تحمل الحوض العلوى الذى ينحدر منه الماء فى الفسقية
ثم فسقية موليير من الرخام الناصع أقيمت بواسطة اكتتاب أهلى
وفى أعلاها تمثال هذا الشاعر المجيد وعلى يمينه ويساره تمثال
الكوميدية الجدية والكوميدية الهزلية ومعنى الكوميدية
التشخيص المضحك وهذه الفسقية أقيمت أمام البيت الذى مات
فيه الرجل وفسقية الرصدخانة وهى عبارة عن حوض فيه ثمانية
أفراس بحرية وكلها من البرونز وفى وسطها تمثال أقسام الدنيا الاربعة
تعلوه كرة أرضية ثم فسقية القديس جرجس وفيها تمثال الايمان
والرجاء والاحسان فى المرمر ثم فسقية سان سولپيس فى وسط
الميدان الكائن امام الكنيسة المعروفة بهذا الاسم وحول هذه
الفسقية تماثيل بوسوييه وفنلون وماسيلون وفليشييه وهم من
أكبر وعاظ الكنيسة وأشهر كتاب الفرنساوية ثم فسقية الانتصار
مزدانة بتماثيل الايمان والتيقظ والقانون والقوة وفوق الجميع
تمثال الانتصار مموه بماء الذهب - وفى باريس فساقى أخرى مثل
اللتين يزدان بهما ميدان الكونكورد (الائتلاف) واحداهما
رمز للملاحة فى النهر والثانية للملاحة فى البحر ومثل اللتين فى ميدان
التياترو الفرنساوى وفسقية مدسيس ونوتردام والقديس ميشل
(وقد كانت العمارة جارية فيها أثناء وجودى بباريس)

أما برج ايفل فقد طار خبره وعرف أمره وقدره بحيث كان الواجب أن اهمل ذكره ولكنني أتحف القارئ بمعلومات جديدة وأقص عليه شيأ من التأثير الذى حصل لى أثناء ارتقائه فى المصعدة والنزول منه على درج السلالم ولا حاجة للاحاطة بانه أعلى جميع الآثار التى شاهدها الانسان فى جميع الازمان فوق سطح هذه الكرة الارضية وانه يخترق كبد السحاب (من غير مجاز) بارتفاعه البالغ ٣٠٠ متر وطالما كان المطر يتهاطل على أسافله وحواليه من غير أن يصيب الذين قد ارتقوا الى ذروته بحيث انه لو كان فيهم ممدوح لصح لشاعره أنه يقول انه علا حقيقة على السحاب مثل ذلك الذى قيل فيه انه علا فى الحياة وفى الممات وعدوا له ذلك من المعجزات

وفوق قمة هذا البرج قبة عليها فنار يبعث الضياء فيبدد حجب الظلام بما يرسله من مختلف الالوان بحسب ألواح الزجاج ويمتد شعاع النور الى مسافة قاصية وبعرض واسع وأول مارأيته وأنا فوق احدى قناطر السين رأيت مناشيره أشبه شئ باجنحة طاحونة عظيمة يديرها الهواء بسرعة وأما البرج فهو أشبه شئ بشمعدان هائل خصوصا مع وجود النور فى أعلاه وهذا الشمعدان مرتكز على أربع قوائم مسافة الانفراج بين كل قائمة والثانية عند القاعدة

١٠٠ متر وكنت أثناء اقامتى بباريس أتربص فى كل صباح فرصة الصعود الى هذا البرج الفريد لأتمتع بما حوله من المناظر الرائقة ولكن توالى احتجاب الشمس فى أغلب الايام كان يحول دون هذا المرام حتى خشيت تعذر الحصول على هذه الامنية لاقتراب ميعاد اقفاله ولكن الله يسر لى يوما طلعت فيه الشمس ببهجتها وأرسلت صافى أشعتها فبادرت اليه مسرعا وأنا لا أصدق نفسى من شدة الفرح وكنت كلما صعدت فى طبقات أرى المدينة تنضم الى بعضها وتتقارب أبعادها وتتصاغر مسافاتها وتتلاقى أطرافها فتبدو بكمال جمالها فرجة للناظرين وبينها نهر السين كقناة طويلة يتصور الانسان أنه يكفيه أقل وثوب للانتقال من أحد شطيها الى الآخر وعليها القناطر العديدة أشبه بخطوط كثيرة مستطيلة كأنها شريط رفيع من البناء أو سلك رقيق من الحديد وكانت برك الماء كدموع من ماقى المشتاق وبعض بنى الانسان أشبه بالازهار أو بتلك العرائس الصغيرة التى يتلاعب بها الصبايا والبعض الآخر كأنهم من قوم يأجوج ومأجوج أو من أولئك الاقزام العائشين فى أواسط افريقية وباريس بازدحامها كقرية النمل أو خلاية النحل وكنت كلما ارتقيت ازدادت أمامى بهجة الرياض الانيقة والقصور الرشيقة المجاورة للبرج مثل قصر

التروكاديرو وحديقة الشان دومارس وفسقيته البديعة وقبة القصر المركزى وفوقها تمثال الشهرة ثم قبة رواق الآلات وقبة الانفاليد والبانتيون ثم تياتر و الاوبرا وقصر الصناعة وعمود فاندوم وبرج كنيسة نوتردام وفى اثناء ذلك كنت أسمع اعتراك الرياح فى الصبا والجنوب وتضارب تياراتها فى القبول والدبور فتحدث لها قرقعة كأشد مايكون من تلاطم الامواج فى البحر العجاج وبينما أنا غارق فى هذه الاحوال نبهنى بعض الذين صعدوا الى صفحة يكتب عليها الزائر اسمه أو أى عبارة تخطر بباله فأخذت القلم ورقمت ماأملت به علىّ القريحة *لله درك يا ايفل لقد برعت فيما أبدعت ونبغت بما اخترعت فعلوت بعقلك على سائر أبناء عصرك كما ارتفع برجك الى عنان السماء فانقا جميع الآثار الشماء مفصحا بكل لسان عن فضل الامة الفرنساوية فى ميدان العرفان*

ثم نزلت متمهلا متأملا وقد كبر الرجل فى عينى أكثر مما كنت تصورته خصوصا بعد أن علمت ان الموسيو ايفل اذا جلس على كرسيه امام مكتبته يكون ضغطه على الارض أكثر من ضغط هذا البرج الهائل وذلك أن قوة الضغط التى تحدث على

الارض اذا جلس على الكرسى (هو أو أى انسان آخر) تكون باعتبار ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات بالاقل عن كل سنتيمتر مربع بخلاف البرج فان تأثيره على الارض هو باعتبار كيلوجرامين اثنين فقط مع ان ثقل البوية التى على جدرانه قد قدرها العلماء بنحو ٣٠ طونولاطة وقرروا أن مجموع وزنه (من غير البوية) يعادل ٧ مليون كيلوجرام وقالوا ان الهواء الموجود فى قصر الآلات يزن ربع هذا المقدار مع لطافته فيا للعجب العجاب من غرائب الاحصاء والحساب

ومما يجمل بنا ذكره فى هذا المقام أنهم استخدموا هذا البرج لامور كثيرة مثل الاكل والشرب والتصوير والبيع ونحو ذلك وانهم وضعوا فيه منذ سنة ١٨٩١ مانومترا زئبقيا لقياس تمدد البخار هو أكبر وأجسم ما ظهر فى الوجود الى هذا الزمان وقد أعدوا فى الصيف الماضى تياترو فى احدى طبقات هذا البرج وكانوا يشخصون فيه رواية عنوانها (باريس فى الهواء) وقد جرت عادة الافرنج أنهم يرفعون قبعاتهم أثناء التشخيص ولكنه اتفق فى بعض المرات وجود رجل لم يتبع هذه السنة بل أبقى عُمارته على رأسه فتذمر الحاضرون واعتبروا ذلك اهانة منه وخروجا عن حد الادب ثم

طالبوه برفع القبعة فابى فجاء اليه مدير التياترو وأظهر له وجوب الامتثال فما ازداد الرجل الاعنادا واصرارا بحيث لم يكن للمدير من واسطة سوى استدعاء رجال الشرطة واخراج الرجل بالقوة ولكنه تدبر وتمهل ثم ذهب بجانب رئيس الموسيقى فهمس فى اذنه بكلمة واحدة أجابه عليها صاحبه بعلامات الامتثال ثم رفع عصاه فلحنت جوقة الموسيقى السلام الروسى فكان الرجل أول من وقف ورفع قبعته اجلالا وتعظيما ثم قال (ان هذا خبث منك وكيد عظيم . انى أخشى تيار الهواء فى مثل هذا المكان وأفضل الانصراف على هذا الاضطرار) ثم خرج وشكر الناس حذق المدير وفطانته فى صرف هذا الحادث الذى أوجب لغطا كثيرا واضطرابا شديدا وذلك لان التقرب فى هذه الايام شديد وثيق فيما بين فرنسا والروسية ومتى سمع أحد الفرنساويين النشيد الروسى الوطنى قابله بالاجلال فى الحال وكذلك الروس يكشفون الرؤس عند مايسمعون النشيد الفرنساوى حتى ان رجلا من محررى الجرائد فى بطرسبرج واسمه بروتوف حضر الى باريس أثناء اقامتى بها ساعيا على أقدامه ليس الا فى كل هذه المسافة التى يبلغ طولها ٩٫٥٠٠ كيلومتر فقط وكان يمشى فى اليوم الواحد ٣٠ أو ٤٠ كيلومترا وقداستغرقت هذه النزهة

منه نحو ٨ شهور ونصف ولما حل بباريس كان آلاف كثيرة من الناس فى انتظاره فحياهم وحيوه ورحبوا به كثيرا وأطنبت الجرائد فى مدحه

وقد ظهرت فى هذه الايام الاخيرة جريدة اسمها (برج ايفل)

بستان النباتات

كان تأسيس هذا البستان فى سنة ١٦٢٦ وافتتاحه للجمهور فى عام ١٦٥٠ وهو ينقسم الى أربعة أقسام أولها البستان وثانيها مربى الحيوانات وثالثها متحف التاريخ الطبيعي ورابعها العنابر الزجاجية المعدة لتربية نباتات البلاد الحارة ومما يليق ذكره أن الانسان اذا دخل من أكبر أبواب هذا البستان يرى امامه ممشيين من الصفصاف غرسهما العلامة بوفون المشهور وفى منتهى البستان توجد الدار التى مات فيها الرجل المذكور فى يوم ١٦ ابريل سنة ١٧٨٨ وفى هذا البستان مدرسة لشجيرات الزخرفة ومدرستان لاشجار الفاكهة احداهما مخصصة للفاكهة ذات النواة وأما الثانية فلاشجار الفاكهة ذات البزر وفيها ١٨٠٠ نوع من أشجار الكمثرى وهنالك مجموعة أشجار مثمرة تحت الدرس

والمطالعة ومدرسة لعلم النبات تحتوى على أكثر من ١٣٫٠٠٠ نوع من النبات

وأما مربي الحيوانات ففيه ٢٢ مقصورة عليها أبواب من قضبان الحديد تسرح فيها الحيوانات الضارية والوحوش الكاسرة والطيور الجارحة كالأسد والفهد والببر والنمر والدب والنسر والعقاب والرخ والكندور وغير ذلك وفيها أصناف لا تحصى من الحيوانات المعروفة فى بلادنا والمجهولة لنا مثل الايايل والوعول وتيوس الجبل والأثوار والابقار والاغنام والماعز والجاموس ذى السنام والكنجورو والذئاب والضباع والحلاليف وبنات آوى والعقبان والنسور وغير ذلك مما لا تمكن الاحاطة به مع تعدد أصناف النوع الواحد وهنالك قطعة مستديرة مغشاة بأسلاك الحديد تسمى قصر القردة فيه منها أجناس كثيرة بين كبيرة وصغيرة وامام هذا القصر مستدير كبير ترى فيه الافيال وأفراس البحر والكركدن وأصناف الهجين وهنالك تمر قناة من الماء تسبح فيها خلائق كثيرة من الطيور المائية وبالقرب منها ترى حيوانات بحرية تسمى آساد الماء وبجانبها أبراج لانواع كثيرة من الطيور ومرابى لاطيار الصيد المرغوبة مثل الصقور والبواشق والشواهين وغير ذلك وهنالك أصناف من الايايل الخنزيرية التى توجد فى بلاد

الهند وبالقرب من هذا المكان مربى أطيار الدج والقطا والحجل والفواخت والورق والورشان والشفانن والطياهيج وغيرها والطيور المغردة وأنواع الببغاء والطواويس - وقد رأيت فى كشك الزواحف أصنافا كثيرة من الثعابين السامة وغير السامة وعدد عظيم من السلاحف والضفادع والعلاجيم وأصناف التمساح التى اشتهر بها نيلنا السعيد وحرم من رؤيتها المصريون فلابد لهم من المجىء الى باريس لرؤية هذا الحيوان المشهور حيا يرزق لا معلقا على بعض البيوت لفائدة لم أقف عليها مع كثرة السؤال عنها وفى هذا الكشك أيضا أصناف كثيرة من أسماك المياه العذبة

ولابد لنا من ذكر كلمتين أيضا على رواق تطبيق التشريح وعلم الانسان (الانترو بولوجيا) فانه يحتوى على ٢٤٠٠٠ تجهيز وأكثر من ١٣٠٠٠ نموذج يختص أكثرها بدرس السلائل البشرية القديمة والحالية و ٣,٠٠٠ جمجمة و ٢٠٠ هيكل عظمى وجملة قطع تتعلق بالانسان الحفرى (الذى وجد فى الكائنات الحفرية) وفى الدور الاول من هذا الرواق مجموعة وافرة من هياكل جميع الحيوانات وغرف كثيرة مخصصة لدرس التشريح الانسانى وفيها صور جميع الاجناس بحيث يتمكن من مقابلتها ببعضها وهنالك مجموعة كاملة من رؤس مصنوعة

من الجبس يمكن لاهل علم الفراسة أن يطابقوا معارفهم عليها أو يزيدوا فى معلوماتهم بواسطتها وخصوصا ان القوم اعتنوا بتمثيل رؤس بعض المشاهير فى ارتكاب الجرائم واقتراف الجنايات وامام باب هذا الرواق حوت هائل طوله أربعة عشر مترا (من الصنف المعروف بالهائشة) وهيكل عظمى وجماجم من أفراد هذا النوع وسمعت أنه يوجد متحف لما قبل الطوفان غير أنى لم يتيسر لى رؤيته مع كونى توجهت الى هذا البستان ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ولكن اتساعه وكثرة مافيه من الغرائب حال بينى وبين رؤيته بجميع أجزائه وتفاصيله وقد رأيت هنالك شيوخ البحر تسبح فى برك من الماء ولها صيحة مزعجة ورأيت أشجارا لاتفارقها الخضرة على الدوام ولا حاجة لذكر العناية الزائدة التى تلاقيها نباتات البلاد الحارة فى عنابر هذا البستان فانها فوق الوصف ولكن القوم لم يتمكنوا الى الآن من تربية النخل المثمر وان كانوا توصلوا الى حفظ كثير من أصناف النخيل الخاصة ببلاد الهند وأواسط افريقيا وأما متحف التاريخ الطبيعى فيحتوى على شئ جسيم وعدد عظيم من الحيوانات الثديية الكبيرة وهياكل الحيتان (الهوائش) والآساد والانمار والدباب والقراد والزواحف والطيور والاسماك والحيوانات الرخوة والحشرات كل ذلك

بهندام ونظام لايمكنى أن أصوّره للقارئ باى حال فان وصف مافى هذا المتحف يستغرق مجلدات كثيرة وحياة علماء عديدين قد وقف كل واحد منهم نفسه على درس فرع صغير من فروع هذه الفنون

وهنالك أيضا رواق كبير فيه مجموعات مشتبكة من الاحجار الضالة والنيازك والشهب الساقطة من السماء ومجموعة فيها أنواع الاراضى التى تتركب منها قشرة الكرة الارضية وصخور ومعادن وأحجار كريمة ثم رواق النباتات وفيه تماثيل الفطر والكمأة (بنات الرعد) بالجبس ومجموعة من الفواكه الجافة والفواكه اللحمية والازهار محفوظة فى الكؤل ومن النباتات ٢٠٠,٠٠٠ نوع وأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ عينة وكثير من أصناف النباتات الخضرية

المدارس والمحلات الخيرية والاعانات

رأيت كثيرا من المدارس ووقفت على بعض أساليب التعليم وأحطت بوسائل التقديم وأرى الآن وجوب الاكتفاء بالكلام على مدرسة النظامات السياسية ومدرسة العميان ومدرسة الخرس عسى أن يكون لشرحى فائدة فى بلادى

أما مدرسة النظامات السياسية فيتلقى الطلبة فيها كثيرا من الفنون أخصها علم أصول اللغة الرومانية واشتقاقاتها وعلم الكتب وتنظيم خزائنها وعلم السياسة وتاريخ النظامات السياسية والترتيبات الادارية والقضائية فى ديار فرنسا ثم عيون التاريخ الفرنساوى وفن تنظيم أوراق المحفوظات وتاريخ القانون المدنى والكنائسى فى القرون الوسطى وعلم الآثار (الاركيولوجيا) فى القرون الوسطى وتفتح قاعات الدروس للطلبة من الساعة التاسعة الافرنكية صباحا الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر بحسب اختلاف الفصول ولا يتجاوز عددهم فى السنة الواحدة ٣٠ تلميذا وينبغى أن يكونوا من الفرنساويين الحائزين على شهادة البكالورية فى العلوم البالغين من العمر ٢٥ سنة كاملة بالاقل ويلزم امتحانهم فى الترجمة من والى اللغة اللاتينية من غير استعانة باى معجم أو قاموس وفى تاريخ فرنسا وجغرافيتها قبل أول القرن التاسع عشر ومن يكون منهم عارفا بالالمانية أو الانجليزية أو الاسبانية أو الطليانية يكون له فضل السبق على غيره عند تساوى الدرجات وقد ترتب على احداث هذه المدرسة فوائد جمة أؤجل تفصيلها الى الرحلة ان شاء الله

أما مدرسة العميان فنظرا لفوائدها الجمة خصوصا فى قطرنا المصري يجب على أن أتوسع فى القول عليها قليلا مدخرا الاشباع الى الرحلة

يوجد فى فرنسا ٣٢٫٠٠٠ أعمى لهم من المدارس الخاصة بهم نحو ٦٠ مدرسة وأهم هذه المدارس وأكملها مدرسة شبان العميان الاهليـة الكائنة فى باريس بدرب الانفاليـد وقد كان تأسيسها على يد الفرنساوى ڤالنتين هاوى فى سنة ١٧٨٤ وهى أول مدرسـة ظهرت فى الوجود من هـذا القبيل وربما كانت أفضل من كافة المدارس المماثلة لها وأحسنها نظاما وترتيبا وفيها الآن ١٥٥ غـلاما و ٨٠ فتاة ومدة التدريس عشر سنوات تكون بين سـن ١٠ و ٢١ سـنة ويتلقون فيها علوما عقلية وفنونا حرفية

فأما التعليم العقلى فهو ابتدائى وعال وقاعدة القراءة والكتابة فيها جارية على الاسـلوب الذى ابتدعه الاعمى الفرنساوى براى فى سنة ١٨٢٦ وهو عبارة عن رسم الحروف بنقط بارزة لا تزيد عن ستة عن أى حرف

وأما التعليم الحرفى فيشمل الغزل والخراطة وعمل الكراسى

واشغال الابرة والنسيج والموسيقى والالحان (وهذان الفنان قد بلغا الدرجة القصوى والمكانة العظمى حتى لقد فاق تلميذان وتلميذة من المتخرجين فى هذه المدرسة فى امتحانات عمومية على كثيرين من المتمتعين بنور الباصرة)

ومساحة الارض التى تشغلها هذه المدرسة هى ١١٫٨٠٠ متر منها ٣٫٥٠٠ مشغولة بالمبانى وفى فنائها تمثال مؤسسها وهو يحاول تعليم الاعمى وللفتيات قسم منعزل تمام الانعزال عن قسم الفتيان وللاساتذة غرف لسكناهم بالمدرسة فيها كل مايحتاجون اليه وهنالك سقيفة كبيرة يتنزه التلامذة تحتها ويتفرغون للعب والرياضات اثناء اشتداد الاهوية ونزول المطر وتغير حالة الجو أما نظام التهوئة وتدبير التدفئة ففى غاية من الكمال والموافقة فى الغرف والفصول والمكاتب والورش والمآكل والعنابر (الانبار) وفيها بيعة صغيرة للطقوس الدينية وحمامات فيها ٣٠ قسما وفى كل قسم منها جهازات الدوش (صب الماء رشاشا لانعاش كافة الجسد) بحيث يستحم كل تلميذ وتلميذة مرة واحدة فى كل خمسة عشر يوما بالاقل وفى المدرسة ورش للتعمير والتصليح والترميم خاصة بالآلات الموسيقية التى يستعملها التلامذة ولذلك غايتان أوليهما الاقتصاد فلا تتكلف المدرسة نفقة ذلك فى

الخارج والثانية تمرين التلامذة على اصلاح آلاتهم بأنفسهم واضافة ماينقصها وتعرف مواقع الخلل فيها حينما يسقط مسمار أوينقطع وتر وفى المدرسة مطبعة خاصة بها يطبع فيها التلامذة كتبا كثيرة فى فنون الاداب والموسيقى مما يحتاج اليه العميان

وقد رأيت أيضا مكتبة فيها ٢٥٠ مجلدا بالنقط البارزة و ١٦٠٠ من الكتب المطبوعة بالكيفية الاعتيادية وهنالك واعظ يقوم بالقاء الدروس الدينية وأما التلامذة الذين لايدينون بالمذهب الكاثوليكى بل بمذهب آخر معتبر فى الحكومة فتعليمهم يكون بحسب ديانتهم بعد الاتفاق على ذلك بين المدرسة وبين أهاليهم وشؤون الصحة منوطة بطبيب وحكيم اسنان موظفين فى المدرسة (وعند الاحتياج يستشار حكماء آخرون) وطبيب عيون وجراح ولايقبل التلامذة الا فيما بين السنة العاشرة والثالثة عشرة وقد خرج منها كثير من النابغين الذين أعلوا قدرها وشرفوا ذكرها بما اكتسبوه من حسن الاحدوثة وماقاموا به من الخدم الجليلة فمنهم براى الذى أشرنا اليه قبلا ورودنباخ الذى كان أمينا لاحدى مدائن البلجيكا وعضوا عن الامة فى مجلس النواب البلجيكى من سنة ١٨٣٢ الى يوم وفاته فى سنة ١٨٣٩ وبنجون الذى كان مدرسا للعلوم الرياضية فى مدرسة أنجى الشهيرة وحائزا

لوسام اللجيون دونور من درجة شڤالييه ثم فوكو ذلك الميكانيكى البارع الذى اخترع جهازات كثيرة لتسهيل المكاتبة بين العميان والمبصرين وجوتيية وروسل ولوبل وهم من اساتذة المدرسة قد صنفوا تلاحين موسيقية دينية وعمومية لها عند العارفين قيمة عظيمة وغير هؤلاء عدد عظيم يضيق عن سرده حجم هذه الرسالة ويوجد فى فرنسا الآن أكثر من ٢٠٠ أعمى ينالون ربحا واسعا ورزقا حلالا طيبا من صناعة البيانو بل ان بعضهم يديرون مخازن بيع آلات البيانو أو اصطناعها

وقد تأسست شركة مهمة لاستخدامهم ومعاونتهم والاهتمام بكل مايتعلق بهم حسا ومعنى وبسط لواء حمايتها ورعايتها عليهم فى جميع الاحوال وفى طول حياتهم ولاتطلب منهم فى نظير ذلك سوى السير المحمود والاقبال على العمل بقدر ماتسمح لهم به حالتهم وقد بلغت ايراداتها فى آخر دسمبر سنة ١٨٩١ ٣٢٫٣٣٥ من الفرنكات (نحو ١٢٩٣ جنيها ونصف تقريبا) ومصروفاتها ٢١٫٥٧٩ من الفرنكات (نحو ٨٦٣ جنيها وربع تقريبا) والباقى فى صندوقها ١٠٧٥٥ من الفرنكات (أى قريبا من ٤٣٠ جنيها وربع) وأما رأس مالها فهو عبارة عن ١٨٥٤٩٦ من الفرنكات وقد اتسع نطاقها وكثر عدد المشتركين فيها بالاقساط

والتبرعات حتى بلغ عددهم ٨٥٠ شخصا منهم ٢٨ من أكابر سيدات فرنسا جُعلت الجمعية تحت حمايتهن و ١٧٨ من السيدات و ١٥٢ من العذارى و ١١٤ من التلامذة الموجودين فيها لتلقى الدرس منهم ٤٠ فتاة

وقد تأسست جمعية أخرى باسم ڤالنتين هاوى غايتها تعليم العميان الجاهلين وتشغيل العميان المتعلمين ولها ثلاثة جرائد خاصة بالعميان الاولى (ڤالنتين هاوى) وهى مجلة عمومية تبحث فى جميع المسائل المتعلقة بالعميان والثانية (لويس براى) وهى جريدة تطبع بالحروف البارزة لكى يقرأها العميان والثالثة (مجلة براى) مثل التى قبلها وتظهر فى كل يوم أحد مشحونة بالمسائل الادبية والعلمية والموسيقية ولهذه الجمعية قاعة للخطابة يتباحثون فيها فى كل ما يهم العميان وتتبعها أيضا مكتبة متنقلة تعير العميان الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ليقرؤها فى بيوتهم و يستفيدوا منها فى أوقات فراغهم ومن ملحقاتها المتحف وقد تكلمت عليه بما فيه الكفاية والله ولى المحسنين

أما مدرسة الخرس فلا يدخلها غير الذكور ومدة التعليم ثمانية سنوات فيتعلمون فيها زيادة عن المعارف الابتدائية أحد الفنون الآتية وهى طبع الحجر (مع الكتابة والنقش على الحجر)

ونقش الخشب وطبع الحروف والنجارة واصطناع الاحذية وفن البساتين وأما التعليم الدينى فيقال عنه فيها كما قيل فى مدرسة العميان والغذاء مرتب بكيفية توافق الصم الخرس ولهم حمامات بجهازات ايدروليكيه وحوض للسباحة ومروج واسعة وصحون فسيحة يلعبون فيها الجباز و يتعودون على الرياضات الجسدية وخلاصة القول ان المدرسة تعتنى عناية كلية بتقوية أبدانهم وأمزجتهم وفيها طبيب ومساعدان له وحكيم عيون وجراح عارف بفن الاسنان ومستشفى يقوم بالخدمة فيه ممرضات حائزات للدبلومة وقد شاهدت التعليم حينما يجىء الطفل فيها أول سنة و يترقى شيأ فشيأ بكيفية تدهش العقول فانهم قد منعوا استعمال الاشارات بالاصابع مرة واحدة ولا يتجاسر أحد من الاساتذة أوالتلامذة على ابداء أية اشارة ظاهرة أوخفية وكل التعليم جار فيها (وفى جميع مدارس أوروبا وأمريكا كما علمته) بواسطة النطق بالاصوات ولذلك يجتهدون فى تعليم الاخرس مخارج الحروف بغاية الدقة ونهاية الاعتناء وقد تكلمت مع بعض الخرس فكانوا يجيبوننى بالجواب المناسب غير انى فى أول الامر رفعت صوتى كثيرا فلم يفهمنى الاخرس مطلقا مع انى رأيته يفهم ناظر المدرسة كأسرع مايمكن بالنسبة لحالته فتنكرت الامر وحينئذ دعانى

الناظر لان أخفض صوتى (لاننى مهما بالغت فى رفعه فلن يسمعنى أبدا) وان أكلمه وجها لوجه حتى ينظر حركات شفتاى ولسانى فعملت بما رسم وأجابنى الاخرس على الوجه المرغوب ثم اننى أمليت على جملة من التلامذة عبارة فرنساوية فكتبوها بالضبط الا واحد منهم أخطأ فى حرف واحد لتشابه المخارج ثم كتبوا اسمى واسم بلدى على التختة ولم يهملوا الا حرف H المقابل للحاء فى لفظة (أحمد) لعدم امكان النطق به فى الفرنساوية وأما الفنون الحرفية والصنائع اليدوية وحرث الارض وغرسها ففى درجة من التقدم يغبطهم عليها أكثر الناطقين بالضاد وبغير الضاد وفى المدرسة متحف جليل يحتوى على جميع الطرق التى تؤدى لتعليم الاخرس ورسوم ونقوش وتصاوير كثيرة من صنع الخرس وقد كان لبعضها فوقان عند العارفين على ماصنعه كثير من الناطقين ويقال ان هذا المتحف لانظير له فى البلاد الاخرى فان الاب دولوبى (وهو أول من عنى بتعليمهم) له أكثر من ١٠٠ قطعة تراه فيها مصورا فى جميع أحواله وهناك عدد عظيم من التحف المتنوعة التى برع فى احداثها كثير من الصم والخرس الذين نبغوا فى جميع انحاء العالم ومما ينبغى ذكره بوجه الايجاز ان هذا المتحف يحتوى على رسوم الاماكن التى استقرت بها هذه المدرسة قديما

وحديثا ومناظر تصور هيئة أهم مدارس الخرس فى فرنسا وفى الخارج وصور الاب سيكار ومعلمى الخرس من الفرنساويين والاجانب وكثير من أعاظم العالم الذين لهم دخل فى تاريخ تعليم الخرس من مؤسسى المدارس ونظارها والمحسنين ومشاهير الكتاب ورجال الحكومات وأهل السياسة ثم أعمال الخرس فى جميع العصور وعند جميع الامم من مصورين ونقاشين ونحاتين ورسامين وطباعين وفوتوغرافيين ومهندسين ثم صور كثير من مشاهير أرباب الفنون الخرس ثم ميداليات ومسكوكات وكتابات بخط اليد وأشياء نادرة وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطائفة

وقد تألفت جمعية لتعضيد الخرس ووافق أنها اثناء أقامتى فى باريس أولمت وليمة فاخرة احتفالا بحلول السنة المتممة للمائة وثمانين من يوم ميلاد الاب دولوبى نعم انى لم أحضر هذه الحفلة الغريبة الشائقة ولكنى لا أرى بأسا من افادة القارئ بما علمته عنها من الجرائد وذلك ان المدعوين كانوا كثيرين وكانت الحفلة تحت رياسة الموسيو كوشفر وهو من المهندسين الذين تخرجوا بهذه المدرسة وبعد انقضاء الطعام وقف يخطب فى القوم ...... ببلاغة باهرة مستعينا بالايماء والاشارة فانه ألم أحسن المام بذكر حياة الاب دولوبى وسرد مآثره التى

أفاضت الخيرات على جزء عظيم من بنى الانسان ثم شكر الجمهورية الفرنساوية على مساعدتها فى تحسين حال امثاله ثم ختم مقاله باهداء ميدالية الى أحد النقاشين البارعين من الخرس وقدمها له باسم وزير التجارة والصناعة ثم تلاه كثير من الخطباء الخرس وكانوا كلهم يفيدون الحاضرين بعبارات ظاهرة مفهومة

أما أماكن البر والاحسان واصطناع المعروف واغاثة الملهوف فهى أكثر من ان تعدولها شؤون كثيرة وفائدة عظمى فنها ماتساعد الامهات لتمكنهن من ارضاع اطفالهن أو فقراء المعتوهين الناقهين بعد خروجهم من البيمارستانات أو تلتقط اليتامى اناثا أوذكورا وتتكفل بتعليمهم وتربيتهم فى طريق الشرف والاستقامة أو تعاون فقراء الالزاسيين واللورانيين الذين تركوا وطنهم وآثروا الفقر مع بقاء الجنسية الفرنساوية لهم على الدخول تحت أحكام المانيا أو تضم الامهات الفقيرات أو تضيف النساء والرجال الذين لامأوى لهم بالليل أو تتكفل بالفقراء من الرجال أو النساء الى أن يجدوا لهم خدمة يتعيشون منها أو بالنساء الحبالى فقط أو الطاعنين فى السن دون سواهم أو لوصف الادوية أو لتقديم الدواء أو للوالدات بعد الولادة وهن فى دور النقاهة أو للفتيات بعد مرضهن أو لتقديم الاشغال للخياطات اللاتى

ليس لهن خدمة أو للتكفل بالابناء حين اشتغال والديهم عنهم بسبب كسب القوت أو لتطبيب الاطفال على العموم أو المصابين بداء مخصوص مثل الخنازيرى والكلب أو الادواء العضالة وغيرها أو لاستخدام العذارى فى مخازن التجارة أو لاستخدام الفعلة والعملة من الجنسين والكتاب والحساب وغيرهما أو لتعليم الزراعة أو لتبنى الاولاد ووضعهم فى مرابى الايتام أو لاستخدام اليتامى والاولاد الذين تركهم أهلهم أو لمساعدة العائلات أو لتعليم الاطفال الفقراء حرفة الصياغة والجواهر والساعات وغير ذلك من الفنون الحرفية أو للاغراب الامريكانيين أو الانجليز أو النمساويين والمجريين أو الطليانيين أو البولونيين (اللاهين) أو السويسريين أو البلجيكيين أو جميع الامم أو لتقديم الخبز أو لتقديم صنف من الطعام أو لفقراء المرضى أو لتعضيد التكايا أو لقبول المعلمات اللاتى ليس لهن وظيفة يتعيشن منها أو لفقراء الاسرائيليين أو لتقديم الجهازات اللازمة لمن تقطع بعض اعضائهم أو للولادة أو لتسهيل الزواج بحسب قواعد الدين واجراء المساعى اللازمة بين الطرفين أو لتسهيل الزواج بالطريقة المدنية من غير توسط القسيس وتقديم كل مايلزم من الصكوك والاوراق مجانا والتكفل باثبات نسب الاولاد وجعلهم شرعيين أو لحماية الجنود البرية

والبحرية الذين احرزوا نشانات فى وقائع التونكين أو لمساعدة جرحى الجنود (وهذه الجمعية مركبة من النساء) أو للذين كانوا فى سلك الجندية وحازوا وسامات اللجيون دونور أوالذين سبقت لهم الخدمة فى الجيش أو لمساعدة عائلات وأرامل ضباط البرية والبحرية أوعمال الحكومة الذين تشابه وظائفهم وظائف الضباط أو لترتيب معاشات للعسكرية أو لحماية الذين يتطوعون فى الخدمة العسكرية أو لتخديم الشبان الذين يتخرجون ببعض المدارس أولاقراض عائلات العملة المبالغ اللازمة (من غير فائدة) لاستخلاص الاشياء التى وضعوها فى بنك الرهونات ثم جاء الاجل ولم يتيسر لهم المال المطلوب أو لدفع ايجار مساكن الفقراء أولاعادة الفقراء والمرضى الى أوطانهم أولمساعدة المحتاجين من المشتغلين بحرفة سباق الخيول أو لبذل الاعانة اللازمة فى الحال أولمساعدة الذين يروحون شهداء تأدية الواجب (وقدأرسلت هذه الجمعية فى شهر اكتوبر الماضى ٤٠٠ فرنك لشيخ احدى البلاد لتوصيلها لارملة رئيس المحطة وقد دهسه الوابوربينما كان يجتهد فى انقاذ امرأة ارتبكت على الشريط وقدأتى الوابور و ٣٠٠ فرنك لعائلة رجل مستخدم بالدخولية دهسته العربات بينما كان يمانع تهريب بعض الاصناف و ٢٠٠ فرنك لرجل

من بوليس باريس أصابته جراح بليغة بينما كان يحاول توقيف خيول حرونة وقد وردت لها فى الشهر المذكور وصية من زوجة أحد القضاة بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنك ووصية أخرى قدرها خمسين ألف فرنك من أحد النقاشين وثالثة من احدى العذارى وقدرها ٥٠٠٠ فرنك) وهناك أيضا جمعيات لاتدخل تحت حصر وقد عددت الجمعيات التى وقفت على اسمائها وعنواناتها وبيان أعمالها فاذا هى ٢٤٥ جمعيـة بعضها لها فرعان وخمسة وعشرة بل وخمسة وعشرون وبعضها خاص بطائفـة من الناس أو بدين مخصوص أو بجنسية واحدة أو بسن معين أو ببنى الانسان على العموم

وفضلا عن ذلك فان الاكتتابات تراها فى كل جرائدهـم لاقـل حادثة مثال ذلك انى رأيت اعلانات من دار أمانة القسم الاول من باريس تدعو فيه أهل الخير لمد يد المساعدة اليها لتعاون الفقراء على احتمال البرد وشدائده وتقول فيه انها أنفقت فى السنة الماضية الاعانات التى جمعتها من أرباب اليسار وقدرها ٢٠٠٠٠٠ فرنك وقـد قلت لك ان باريس تحتوى على ٢٠ قسما ولابد انها كلها سارية على هذا المنوال ومثال ذلك انه لما أضرب العمال فى مناجـم الفحم الحجرى بكارمو عن العمـل فتحت جريدة الانترانسيجان اكتتابا اشترك فيـه كثير من الناس وكنت أرى

فى أعمدتها ان فلانا وفلانا وفلانا من الفعلة فى كذا تبرعوا بمبلغ فرنك واحد ولكننى ما كنت أستخف بذلك مثل أولئك الذين يحتقرون صغائر الاشياء ولا يعلمون انها اساس الاجتماع ومنبع العمران ودليلى على ذلك ان الانترانسيجان جمع من هذا الاكتتاب مبلغا يزيد على ١٨,٠٠٠ فرنك ثم ان المجلس البلدى فى باريس أرسل لهولاء العملة مبلغ ١٠,٠٠٠ فرنك صفقة واحدة وقد تواردت عليهم الاعانات من جميع الجهات ومن جميع الطوائف ولابدان القارئ وقف على تفاصيل هذه الحادثة الهائلة التى اضطربت لها أساطين السياسة فى فرنسا وشغلت العالم باسره ولذلك فلا أرى وجها للخوض فيها فضلا عن أن شرحها يحتاج لوقت طويل ومثال ذلك أيضا الاعانات التى بادر أهل فرنسا على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم بارسالها الى الجرحى من جنودهم فى غزوة داهوماى فمن ذلك ماقرأته حينئذ فى الجرائد ان المحفل الماسونى (الزاس ولورين) قد أرسل لهم ٢٠٠ فرنك على يد وكيل وزارة المستعمرات وأرسلت لهم جمعية نساء فرنسا وللجنود التى فى التونكين ٣٧ صندوقا فيها أصناف كثيرة من المأكولات والملبوسات وغير ذلك واقتدت بها طوائف كثيرة فى هذا السعى الحميد ولكن جريدة الفيجارو فاقت الجميع فانها كتبت

فى يوم ٧ نوفمبر تستحث أهل البر وخصوصا كبراء التجار على المساعدة فى اكتتاب لجنود داهوماى وقالت انها تفتحه فى ثانى يوم وتقفله فى اليوم الثالث وان ذلك يستوجب التعجيل ولم يرد اليوم الثالث وهو ٩ نوفمبر حتى كتبت تقول «لقد أجيب نداءنا باكثر من جميع آمالنا فقد اجتمع فى مكتب الفيجارو فى أقل من يومين ٢٢٠٠٠ زجاجة من نبيذ بوردو والشامپانيا والمياه المعدنية و ٢٥٠٠ علبة من المربيات وأصناف المأكولات المحفوظة و ٢,٩٥٠ قطعة من مربعات الشكولاته و ٢٣,٤٥٠ سجارة فرنكية و ٣,٠٠٠ سجارة مصرية وأكثر من ١٠,٠٠٠ صنف من الاصناف المتنوعة مثل شراب الروم والشارتروز ومثل التاپيوكا وغير ذلك مما سبق لنا سرده فى العدد الماضى وكان مبلغ النقود التى وردت لنا ٤٣,٠٠٠ فرنك ونصف (١٧٢٠ جنيها تقريبا فى يومين اثنين خلاف الاصناف الاخرى) وقد قفلنا باب الاكتتاب» ثم أوردت بيان الاصناف وأسماء المتبرعين ولا فائدة فى احاطة القراء بذلك فان هذا الاقبال يغنى عن الشرح والبيان وبمثل ذلك فليتنافس المتنافسون — ومثل ذلك اهتمامهم بعائلات الذين ماتوا فى حادثة انفجار الديناميت فى شارع بونزانفان أثناء اقامتى فى باريس فكان رئيس الجمهورية أول من اهتم بشأنها وقد

أرسل مندوبا من قبله ذهب الى منزل كل واحدة من الارامل وأعطاها اعانات من جيب رئيس الجمهورية الخصوصى وأعلمها بانه مشارك لها فى أحزانها ثم توجه الموسيو لوبى رئيس الوزراء حينئذ فزار كل واحدة منهن فى مسكنها وقدم لها مساعداته شخصيا ووعدهن بان الحكومة تتكفل بالارامل وتتعهد بتربية اليتامى ثم جاء محافظ المدينة ووزع عليهن ٧٠٠٠ فرنكا ثم تعهدهن مرة ثانية وقدم لهن ماورد اليه برسمهن من لجنة مصانع الحديد فى فرنسا ولجنة مناجم الفحم الحجرى وقدم لهن أيضا مبالغ جمعت فى احدى الولائم وقد علمت ان مقدار ماأرسلته لجنة مناجم الفحم ٥٠٠٠٠ فرنك وقد وردت المساعدات من جميع انحاء فرنسا بما يضيق عنه المقام ثم تقرر ترتيب معاش لعائلات المصابين الذين كانوا فى خدمة الحكومة يكون نصفه من ميزانية الحكومة والنصف الآخر من ميزانية مدينة باريس وقد كان فيهم رجل من خدامى القومبانية (التى قصد أصحاب الديناميت تدميرها) فلذلك تقرر صرف المعاش لارملته وأولاده باحتساب النصف على الحكومة والنصف الآخر على القومبانية المذكورة وهى قومبانية معادن الفحم الحجرى فى كارمو — وخلاصة القول ان تفننهم فى وسائل الاعانة واقبالهم عليها أمر

يستغرق شرحه مجلدات ضافية الذيول يدل على ذلك ماقدره أهل المعرفة من ان مبلغ الاعانات التى يبذلها أفراد الناس فى باريس على حدتهم تزيدعلى ٢٥ مليون من الفرنكات فى كل سنة (انظر جريدة الطان عدد ١١٥٤٨ من هذه السنة) ومع كل هذا الاجتهاد فلا يزال بعض الناس يموتون فيها جوعا وان كانت النسبة أقل بكثير مما فى لوندرة فقد رأيت فى العدد ٣٧٠٠ من جريدة الغولوا جملة طويلة على الفاقة والخلو من العمل فى باريس اقتطف منها بعض شذرات جديرة بالاعتبار

قالت انه بحسب البيانات الرسمية والاستعلامات المؤكدة التى استحصلت عليها يتضح ان عدد العملة الذين منعتهم شدة الشتاء ووقوف حركة الاشغال من كسب القوت يقرب من خمسين ألفا وان طلبات الاعانة قدتواردت على مكاتب الاحسان العام بمقادير جسيمة أزيد من المعتاد وان هذه المكاتب تمد ساعد المساعدة لنحو ٩٢ أو ٩٣ ألف من المحتاجين وانها تقوم بمعالجة نحو ٩٠ ألف مريض و ١٩ ألف والدة فى منازلهم وان عدد الملهوفين بحسب التعديل المتوسط سيزيد فى هذا العام زيادة تذكر - أما الملاجىء الليلية التى يلوذ بها الفقراء عديمو السكن فقد بلغ عدد الوارد على أحدها فى كل يوم بالمتوسط ٢٠٠

رجل مع انه لايسع الا ١٥٠ وكان عدد النساء أكثر بكثير مما قدر لهن فان الوارد منهن فى اليوم الواحد بالمتوسط نحو ٥٠ مع انه لايسع الا ١٥ وان استمر الشتاء على شدته وكلب كما هو المنظور يزداد عددهن أكثر من ذلك وقد بلغ عدد النساء والاطفال الذين لجئوا اليه فى العام الماضى ٣٫٦١٧ مضوا به ٩٦٥٧ ليلة وفى جملتهن الخدامات والمعلمات والابكار والارامل وامثالهن وغير ذلك والمقرر فى هذا الملجأ اعطاء الرجال كسرة من الخبز فى الليل وورقة للخباز لاخذ رغيف وقليل من المرق بالنهار وأما النساء فلهن الخبز والمرق فى نفس الملجأ نعم ان هذه الكسرة وهذا القليل من المرق أمر زهيد جدا لايعتد به ولكنه فى الجملة تصل قيمته الى ٢٥ ألف فرنك هذا فضلا عن كون بعض معامل الصناعة فى باريس تعهد بتقديم ٥٫٠٠٠ كيلو من الخبز فى كل شتاء الى هذا الملجأ احتسابا لوجه الله تعالى ومعاونة له على أعماله الخيرية وهذا الملجأ يوزع على اضيافه فى كل عام من ٢٠ الى ٢٤ ألف كسوة وقميص وجوراب وصدار وفستان وحذاء وغير ذلك وانى لاأرى بعد ذلك كله حاجة للشرح والبيان بل أحمد الله على حالة بلادنا وأهلها

التياترات والملاهى والمتنزهات

أصبح التشخيص فى باريس من الكماليات الحاجية التى
لاغناء لاهلها عنها حتى ان الرجل ليقتصد من مصرفه الضرورى
لتمضية الليلة فى أحد التياترات وكثيرا ما تتكبد بعض العائلات
نفقة باهظة جدا لقصر احدى المقصورات بواسطة الاشتراك
(وخصوصا مقصورات الاوبرا) ليقال عنها ان لها مكانا معينا فى
هذا التياترو أو فى ذلك المرسح ولذلك لايندر ان يحل موسم
افتتاح التياترات الكبيرة وليس فيها محل خال للايجار والاعظم
من ذلك ان الاوبرا يؤجر أماكنه بالستة شهور بل وبالسنة
الكاملة ويخيل لى ان أغلب نساء هذه العائلات انما يحضرن
هذه الملاهى لعرض ملابسهن وابداعهن فى زخرفتها وزركشتها
ولاستجلاب العيون والعوينات نحوهن لا لقصد سماع الاغانى
والالحان أو شهود التشخيص والتمثيل اذ أنهن يكن غالبا فى اثناء
ذلك مشتغلات باصلاح الفستان وهندمة دوائره ومستديراته
وتعديل الصدار وتنميق الوشاح والخايلة بالمراوح ذات الالوان
التى تأخذ بالابصار وتراهن عندما يستقربهن المجلس يبتدئن
بعد هذه الهندمات الضرورية لهن باستعمال النظارات المقربة
المكبرة المجسمة لمراقبة بعضهن بعضا واستوقاف رائد الطرف نحو

التى تجلت فى جلباب الظرف وفاقت بحسن الشكل وبرعت بجمال المنظر ثم يرسلن اللحاظ الفاترة فى بعض الفترات لرؤية الرجال وهم يرمقونهن على الدوام حتى اذا جاءت ساعة التشخيص التفت هؤلاء اليه وأقبل أولئك على شؤونهن الاولى من اصلاح الملابس والاتقان فى التبرج والاغراب فى البهرجة مع توالى النظر فى المرايا أو المسامرة مع بعضهن ومبادلة أفكارهن فيما يتعلق بهن

تلك يا صاح حالة الساترات على العموم والاوبرا على الخصوص وصفتها كما رأيتها مقتديا بعمرو بن العاص ذلك الصحابى الجليل الذى مع قرب عهده بالبداوة لم يتحاش من قول الحق فى رسالته المشهورة التى بعث بها الى امام المسلمين وأمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأرضاهما حيث قال فى عرض وصفه لمصر وأهلها (ونساؤها طرب) ولم يؤاخذه الخليفة الراشد المشهور بالصرامة والجد والصلابة فى الحق الى آخر حد

وقد اقتديت أيضا بطارق بن زياد فاتح الاندلس فانه قد وصف نساءها حينما خطب فى قومه يحرضهم على قتال رذريق ملك الاندلس وأطنب فى ذكر محاسنهن وجمالهن وغير ذلك مما تراه فى خطبته التى أوردها صاحب نفح الطيب وجميع مؤرخى الاندلس وقد ترجمت الى أغلب اللغات الافرنجية .

وقد نحوت أيضا نحو ذلك الرحلة المشهور بابن جبير فانه وصف نساء الافرنج فى صقلية وصفا مدققا كما يعلمه من له اطلاع على كتابه المطبوع المتداول وذلك لان وظيفة السائح تقرير الحقائق كما هى وذكر الوقائع كما حصلت الافرنجية

وفى أول ليلة توجهت الى الاوبرا ورأيت مقصورات الطرف فى مقاصيرهن كأنهن كواكب السماء قد انتشرت أو أزهار البهاء قد انتثرت حدثتنى النفس بان أصعد بعد تشخيص الفصل الاول الى بهو الاستراحة البهيج لالأسترق السمع ولكن لأسترق البصر فرأيتهن كلهن يصدق عليهن قول كعب بن زهير فى قصيدته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة * لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومعلوم ان خاتم الانبياء الذى بعث لتتميم مكارم الاخلاق أعجب بهذه القصيدة اعجابا لامزيد عليه حتى انه لم يكتف بحقن دم الشاعر بعد ان كان أهدره بل خلع عليه بردته الشريفة ولا عجب اذا حق للغريب المتاصص فى هذه الحال أن ينشد قول من قال

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والذى جرأنى على الاتيان بهذا الوصف القليل هوماجريت عليه من الاحاطة ببعض أحوال باريس وان لكل مقام مقال فان من أراد أن يلم بشئ على التياترات فى هذه البلاد لايجوز له أن يضرب صفحا عن ذكر النساء فيها لانهن حياتهاوروحها ولولاهن لما كان لها ذكر ولاقامت لها قائمة بل ان الرجل ليعتبر نفسه من أسعد السعداء اذا أصبح ورأى فى الجرائد ان زوجته أو أخته أوابنته أو من تنسب اليه هى التى كانت محط الانظار ومحل الاعجاب والاستحسان فهذه هى عاداتهم وهذه هى أخلاقهم يشاركهم فيها عامة الاوروباويين تقريبا ولم أرمندوحة من الالماع اليها

أما التياترات فى حد نفسها فأهمها الاوبرا وقدكان الاحتفال بافتتاحه فى ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ بعد ان استمرت العمارة فيه مدة ١٥ سنة وبلغت نفقاته ٦٥ مليون من الفرنكات وبهو المتفرجين يسع ٣٫٢٠٠ شخص اما ما فيه من المبانى الجسيمة الفاخرة والرسوم الباهية الباهرة والصور الجليلة الجميلة والتماثيل المتقنة المحكمة والنقوش المزخرفة والسلالم والقباب والثريات وغير ذلك من الامتعة الغالية العالية فذلك بمقدار مبلغ النفقات وفى ذلك مايغنى عن الافاضة

ويجيء بعده التياترو الفرنساوى أو الكوميدية الفرنساوية وقد كان تشييده فى سنة ١٧٨٢ ويحتوى على كثير من آثار الفنون المستظرفة و يعتبره الفرنساوية فخرا قائما لهم وان الروايات التى تشخص به مسبوكة فى أحسن قالب وأكمل ذوق ولكن الرواية التى شهدتها لاتشهد بذلك وان كان مؤلفها من أكبر أكابرهم وهو ابن الكساندر دوماس ومن أعضاء الاكاديمية الفرنساوية فانها عبارة عن امرأة تحققت خيانة زوجها لها فاستعملت كل الوسائل فى ارجاعه عن جهله ولم تنجح فاضطرت ذات ليلة لاقتفاء أثره فى الباللو ثم فى المواخير وقلدته فى جميع أعماله ثم أخبرته بذلك بتفصيل وتدقيق أثبتت له حضورها فى المكان الذى كان فيه متخذة لها صاحبا حيثما اتفق من الشبان الى غير ذلك مما لايساعدنى القلم على كتابته وان كانت فى آخر الامر أثبتت براءتها بقولها عن الشاب المذكور (لقد كذب) فانها طلبت من زوجها أن يستعلم منه بطريقة خفية وانى أدع الآن تفصيل أفكارى فى هذا المرضوع الى الرحلة وانما أقول ان أغلب الروايات التى تشخص فى فرنسا بل وفى أوروبا يكاد يكون الغرض منها تعليم النساء الحيل والمكايد مع انهن بنات بجدتها وسأقيم

البراهين على ذلك بتلخيص بعض الروايات التى يزدحم عليها القوم ولا ازدحام الجياع على القصاع

وكذلك أقول عن جميع التياترات التى زرتها ماعدا الاوبرا فى قليل من الاحيان وتياترو الشاتليه غالبا فانه مخصص للقطع التاريخية ومما يستحق الذكر فى هذا التياترو الاخير ان عدد الراقصات فيه يبلغ ٢٠٠ عدا المشخصات والمشخصين

واعلم أنه يوجد فى بعض التياترات نظارات موضوعة فى ظهور الكراسى بكيفية ميكانيكية لطيفة بحيث ان غطاءها ينفتح بمجرد وضع نصف فرنك فى فتحة فيها وبعد تمام التشخيص يعيدها المتفرج لمكانها

ومن أغرب مايتعلق بالتياترات تلك الآلة الكهربائية المسماة بالتياتروفون (أى سماعة التياترو) وبيان ذلك أن لاغلب الجرائد المهمة قاعات فسيحة يسمونها قاعة التلغرافات ولكنها أشبه شئ بمعرض للصور والرسوم وبعض المصنوعات الدقيقة اللطيفة وغير ذلك من مستطرف الآلات ومستحدث البدع فتوجهت الى كثير منها ورأيت فيها شيأ شبيها بالتيلفون وفيه فوهة مخصوصة يضع الانسان فيها نصف فرنك أوفرنكا بحسب المدة التى يريدها ثم يضع السماعات على أذنيه فيسمع التشخيص بغاية الوضاحة كأنه

حاضر فى أحسن محل بالتياترو ويسمع الغناء بصوت صريح و يقف على جميع الاقوال التى يتبادلها المشخصون أثناء التمثيل مما قد لايسمعه اذا كان جالسا فى الصف الخامس من المتفرجين ولكن هذه الآلة لاتمكن المستمع بها من سماع التصفيق أو الموسيقى أو غير ذلك مما لايتعلق بالتشخيص مباشرة لانها مدبرة بحيث تنقل كل صوت يقع فى نفس المرسح الذى يقف عليه المشخصون دون سواه وقد حضرت بهذه الكيفية قطعا كثيرة من بعض الروايات التى أعرفها اذ كنت كل ليلة أتوجه الى قاعة التلغرافات فى جريدة غير قاعة جريدة الامس

أما قهاوى المغانى وأماكن الرقص ومايشابهها مما يدخل فى هذا الموضوع فهى أكثر من أن يتصورها الانسان وكلها فى كل ليلة تكون غاصة بالجماهير المجمهرة والعوالم المتقاطرة

أما المنتزهات والمسابقات على الخيول والعربات والاقدام والعجيلات المفردة والثنائيه والثلاثية (السيكلت والبيسكل والتريسكل) وقبقاب الزحلقة على الثلج الطبيعى والصناعى والسباحة والملاحة والصيد والقنص والرماية ومرائى العالم (صندوق الدنيا أماوالبانورا) فقد تفننوا وتعمقوا فيها الى درجة قاصية حتى ان جرائدهم تخصص لذلك كله أعمدة طويلة فى كل يوم بل ان لكل نوع منها جريدة أو أكثر خاصة به ومنتدى (كلوب) يجمع أهله وكثيرا

ماتكون مسابقاتهم على الاقدام أو العجيلات المفردة من مدينة الى مدينة أخرى بعيدتين عن بعضهما بمسافات كبيرة وقد يشاركهم كثير من النساء فى هذه المسابقات ويفزن فى غالب الاحوال بقصب السبق فى هذه المضامير المتنوعة المتعددة ومن شدة غرامهم بالزحلقة على الثلج أحدثوا فى الصيف الماضى قبل رجوعى الى باريس بقليل مكانا سموه (القطب الشمالى) وأحضروا له من آلات التبريد والتثليج (مثل الآلات المعروفة فى مصر المعدة لاصطناع الثلج) مافيه الكفاية لتجميد الماء وايجاد الثلج الصناعى بكمية وافرة وحجم سميك يمكن المولعين بهذا النوع من الرياضة من قضاء مآربهم فى غير فصل الشتاء وقدنال هذا المحل اقبالا عظيما جدا مع ارتفاع أثمان الدخول وتأجير القبقاب وتناول المشروبات وغيرذلك وهذا أكبر دليل على ان القوم لم يقدروا على كتمان اشتياقهم لهذه المسابقة الى أن يحل أوانها حتى انى لم أربدا من زيارته فى بعض الليالى حبا للاستطلاع والوقوف على حركته وكيفية ادارته فتوجهت أولا الى الحمام التركى (وهو على طرز الحمامات العمومية فى مصر لايفترق عنها الابفرط نظافته ووجود المرشات الباردة وبرك السباحة وكمال المعدات) وقد رأيت فى جملة المكبسين الافرنج الذين به رجلا من

الاسكندرين اسمه حسن قد فارق ديار مصر مع عائلة أمريكانية منذ ١٨ سنة ثم انفصل من هذه العائلة واستقر فى باريس يكسب قوته بكده وسعيه وبعد الحمام انتقلت الى القطب الشمالى فاذا هو مكان فسيح جدا فيه صور ورسوم تصور هيئة القطب الشمالى وثلوجه ونباتاته ومحيطه وكواكبه وغير ذلك ورأيت الآلات وكيفية ادارتها ووقفت على سير هذه المصلحة المستجدة بالتفصيل وعرفت أسرارها مما سأخلده بالبيان الشافى فى الرحلة ان شاء الله وقد هزنى الشوق الى مجاراتهم و وطئ الثلج بتلك الاقدام المصرية التى لم يتح لها قط فرصة مثل هذه فى وادى النيل السعيد فاتخذت أستاذا يسندنى وكنت أحس بالبرد فى أقدامى والخجل فى نفسى من رؤية الغلمان والفتيان والبنات والعذارى يتسابقون كالريح الهبوب ويرقصون على هذه المرآة الصقيلة رقصا موزونا مع نغمات الموسيقى وايقاعاتها ومنهم من كان يرسم دوائر كبيرة ثم صغيرة فأصغر وهكذا حتى يصل الى نقطة المركز ومنهم من كان يقع على قطبه الجنوبى فى هذا القطب الشمالى وأنا فى خلال ذلك أنقل رجلا بعد أن أتحقق من ثبات الاخرى مع التوثق من استنادى على أستاذى كأننى طفل قد ابتدأ فى التخطى أو فيل جسيم يسير بكل تؤدة على حافة هاوية عميقة أو على شفا

جرف هاروفى أثناء ذلك أخبرنى الاستاذ بان جماعـة من الافرنج عزموا على ايجاد محل نظير القطب الشمالى فى مصر القاهرة بدلا من المكان المصفح بالقار والاسفلت المعروف باسم (كيروسكيتنج رنك) فقلت فى نفسى لقد صدق من قال ان عقل هؤلاء القوم فى كذهم وانهم لايمتنع عليهم شئ من مستعصيات الطبيعة

التمثيل والميادين والزهريات المربعة (الاسكوير)
والارصفة والقناطر

تحلت مدينة باريس مثل أكثر المدائن الاورباوية بتماثيل كثيرة لاعظم رجالها ولا أذكر الآن مافى داخل القصور والنظارات والمصالح العمومية الاميرية وديار البلدية والمتاحف وغرف الجمعيات العلمية والصناعية والتجارية وغير ذلك من دور العامة والخاصـة وانما أذكر مارأيتـه فى بعض الشوارع والميادين فمن ذلك تمثال الجمهورية وتحت أقدامها غضنفر يحمى كأس الانتخابات العمومية وعلى قاعدة التمثال رسوم بارزة تمثل أهم أعمال الجمهورية الاولى والثانية والثالثة فى فرنسا وتماثيل الحرية والمساواة والاخاء وارتفاع هذا الاثر ٢١ مترا ثم تمثال الملك هنرى الرابع وتاريخه مشهور خصوصا فى تودده للامة وتقربه من الاهالى حتى انه حينما كان

غائبا عن باريس وتمرد عليه أهلها ورفعوا لواء العصيان لبعض أمور دينية رجع اليهم وحاصرهم وضيق عليهم الحصار ولما علم بشدة الضنك الذى صاروا اليه أخذ يرسل اليهم الخبز من فوق الاسوار مع استمراره على الحصار وكان يقول اننى لا أريد أن أتملكهم بالجوع فذلك مما تأباه الشهامة والفروسية ثم تمثال الجمهورية أمام قصر جمعية المعارف وتمثال الفتاة جان دارك المشهورة باخراج الانكليز من فرنسا وتمثال لويز الرابع عشر ملك فرنسا المشهور وتمثالين لفولتير وتمثال لكلودبرنار وآخر لدانتى الشاعر الطليانى المخلد الذكر ولويزبلان الكاتب الطائر الصيت خصوصا بتواريخه على ثورات فرنسا وشارلمان الملك وديدرو من أكبر فلاسفتهم ورأس المؤلفين للموسوعات الفرنساوية وبيرانجية صاحب التلاحين والاغانى التى يكاد يحفظها كل فرد منهم والكساندر دوماس صاحب الروايات العديدة المترجم بعضها الى اللغة العربية وجان جاك روسو ذلك الفيلسوف العظيم الذى كان له يد طولى فى تثقيف عقول الامة وتنوير الأذهان وشاكسبير شاعر الانكليز وفيلسوفهم صاحب رواية كلوبطرة ملكة مصر وقد بلغ فيها نهاية الاجادة ولامرتين ذلك الشاعر المفلق والكاتب المجيد وكثيرا ما كتب على المشرق ومصر والدولة العلية خصوصا كتابات تسحر

العقول وتخلب الالباب وقد تولى رياسة الجمهورية وتمثال دانتون المشهور الذى حرك ساكن الوطنية فى قلوب قومه بخطبه الرنانة ومقالاته المأثورة ومن أهم كلماته قوله (لكى نقهر عدو الوطن يلزمنا الاقدام ثم الاقدام وعلى الدوام الاقدام) وهى بلغتهم فى نهايات الفصاحة مع بساطة الشكل كالسهل الممتنع عندنا وتمثال الاب دولوبى (ذى الحسام) وهو أول من عنى بتعليم الخرس وقد سبق لنا ذكره ثم تمثال الرياضى المحقق والطبيعى المدقق العلامة باسكال وقد أشرنا اليه فيما سبق وهناك تماثيل كثيرة لعظمائهم يضيق عن سردها المقام والذى يستحق التخصيص الآن هو تمثال رجل كان جاويشا فى غزوة التونكين واسمه الجاويش بوبيللو وليس فى فرنسا كلها تمثال لصف ضابط سواه وسبب عناية القوم به لهذه الدرجة واكتتابهم فى جميع اطراف فرنسا لجمع المال اللازم لتشييد هذا الاثر ان الجنود الفرنساوية حاصرهم أهل التونكين فى غابة كثيفة وأوشكوا على إبادتهم عن آخرهم لولا وجود هذا الرجل فانه تعرض لهم وفدى قومه بنفسه اذ شاغل التونكينيين بثبات جاش وجراءة حتى تيسر لقومه وجود مخرج من هذه الورطة وقد قتل الرجل فى هذه الواقعة بعد ان أبلى فى أعدائه بلاء حسنا وبهذه المناسبة

اذكر مارأيته فى تورينو والشئ بالشئ يذكر رأيت فى أحسن ميادنيها تمثال نفر من العساكر لم يحرز أدنى رتبة فتعجبت من هذه الحفاوة به واستفهمت عن السبب فقيل لى انه انقذ المدينة باسرها من اعدائها وفدى بلاده بنفسه وذلك انه لما كانت الحرب بين النمساويين والطليانيين اتفق ان أهل أوستريا فازوا على أهل تورينو والزموا جنودهم الفرار واحتلوا قلعتهم فلكى ينتقم هذا الجندى من أعدائه ويأخذ بثار وطنه أختبأ فى مخزن البارود (الجبخانة) ثم أولع فيه النار فطارت القلعة بمن فيها وهلك هو وجميع الجنود النمساويين وقد كانوا اعتقلوا بها وكان الرجل أول من مات ولكنه أنقذ حياة بنى وطنه أجمعين

أما الميادين فى باريس فكلها فى غاية الجمال ونهاية النظافة تحف بها المبانى الخطيرة والقصور الجسيمة ويبلغ عددها نحو الستين والكنى بالمقابلة وحفظ النسبة أقول ان الميادين العمومية فى فلورانسة أكثر منها فى باريس وقد رأيت أيضا كثيرا من الزهريات المربعة (واسمها بالافرنجية سكوير لفظ انكليزى لانها من خصوصيات المدائن الانكليزية)واها فى مصرنظائر مثل التى فى رحبة عابدين والعتبة الخضراء وميدان الاوبرا وغير ذلك وكلها مزدانة بالتماثيل والفساقى والازهار والشجيرات الغريبة والاعشاب

النضيرة وهى محط العناية التامة من ديوان البلدية لانها تساعد مثل الميادين على اصلاح الهواء وترويح النفوس وعددها ٢٥ زهرية.

أما الارصفة والقناطر التى على نهر السين فهى من أهم المتنزهات وجميع الارصفة مبنية بحجر الدستور ولها برازيق ودرابزونات عليها كثير من صناديق الخشب هى مخازن لبائعى الكتب القديمة ومتسوقى كتب (اللقطة) ولقد استغرقت منى هذه الارصفة ساعات طويلة فى أغلب أيامى واشتريت منها كتبا كثيرة باثمان زهيدة وعدد الارصفة ٣٦ وأغلبها عليه أشجار ظليلة وأما القناطر فعدتها ٢٨ ومنها ماهو مبنى بالحجر ومنها ماهو مركب من الحديد وعلى بعضها تماثيل فوق سطحها أو على أساطينها ومن المعلوم ان نهر السين يخترق باريس كهيئة قوس يبلغ طوله ١٢٠٠٠ متر إلا قليلا فتكون المسافة المتوسطة بين كل قنطرة والثانية نحو ٤٢٧ مترا تقريبا وأحسن وقت لرؤية هذه القناطر هو الليل اذ تكون مضاءة هى والارصفة بالمصابيح المختلفة الالوان وترسل النور على صفحات النهر فتكون كذهب الاصيل على لجين الماء

المطبعة الاهلية وبنك فرانسا وبنك الرهونات

لايمكن زيارة هذه المطبعة الافى يوم الخميس الساعة ٢ بعد الظهر بالضبط بعد الاستحصال على تذكرة خصوصية من المدير واذا حضر الزائر بعد الميقات المحدد لايجوز له الدخول وقد طفتها ورأيت أعمالها الجسيمة وعمالها العديدين الذين يزيدون على ١٫٢٠٠ ذكورا واناثا يقومون بكافة ماتستلزمه صناعات الكتب من سبك الحروف الى تجليد الكتب ونقش الفوتوغرافيه والرسوم على الاحجار وفى المطبعة ٢٨٨ نوعا من الحروف منها ١٥٣ خاصة باللغات الاجنبية وبواسطتها يتيسر لها طبع كتب بثمانية وخمسين لسانا شرقيا وقد ظهر فيها من الكتب والرسائل العربية أصلا وترجمة مايكاد يكون مجهولا فى بلادنا وفى فنائها تمثال لجوتنبرج مخترع الطبع

أما بنك فرنسا فيكاد يضارع مثيله فى انكلترة ولقراطيسه ثقة عامة فى جميع انحاء المسكونة وقد تزيد قيمتها فى بلاد كثيرة من أوروبا وأمريكا ومن أهم مايستوقف الانظار به بهو الذهب وهو عبارة عن قاعة طويلة مزخرفة بنقوش مذهبة وأخشاب مصنوعة باتقان واجادة وقد كانت بالقصر الذى هو فيه الآن

أيام كان سكناً لبعض أفراد العائلة الملوكية فابقاها البنك على حالها بل أجرى فيها ترميمات تزيد نفقتها عن المليونين من الفرنكات وهي معدة لاجتماع المساهمين فى بعض أيام من السنة فقط

أما بنك الرهونات فتعريب اسمه الفرنساوى هو جبل التقوى وله فروع ونظائر فى جميع أقطار الارض وفى اسمه العربى دلالة كافية على ما يتعاطاه من الاعمال وفى كل سنة يباشر جردا عموميا على الامتعة والجواهر والسندات والقراطيس المالية المرهونة فيه منذ سنوات عديدة وفى هذه السنة حصلت هذه العملية المهمة ومن جملة الغرائب التى تدونت فى قائمة الجرد ستارة مضى عليها فيه اثنتان وعشرون سنة وصاحبها يجدد الرهن فى كل سنة وهذا الامر ليس فى شئ من الغرابة بجانب مطرية مرهونة فيه منذ سنة ١٨٤٩ على مبلغ ٦ فرنكات وقد أربت فوائد هذا المبلغ على ثلاثين فرنكا فتأمل

الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة
والزراعة ونحو ذلك

أسواق المؤنة المركزية فى هذه المدينة تشغل مسطحا من

الارض قدره ٧٠٫٠٠٠ متر مربع وقد كان وضع أول حجرمنها في سنة ١٨٥١ وهي عبارة عن كشكات من الحديد ليس الا يعلوها سطح من التوتيا وتحتها سراديب فيها مخازن وسكة حديدية ستتصل عما قليل بسكة حزام العاصمة وفي كل كشك ٥٢٠ دكانا وعدد الكشكات الموجودة الآن ١٠ وقد قدروا نفقات هذا العمل الجسيم بستين مليونا من الفرنكات وقد استخدموا الكهرباء في اضاءتها بالليل منذ سنة ١٨٩١ ويوجد في جميع أقسام باريس أسواق مؤنة ثانوية منظمة على نسق الاسواق المركزية وأحسن وقت لزيارتها ورؤية حركتها هو وقت التموّن أي في بكرة النهار قبل طلوع الشمس وضف الى ذلك أسواق الازهار وهي تزيد على الخمسة وأسواق الاطيار وسوق الكلاب وسوق الجلود وسوق الخيول وسوق العلف وسوق البهائم (وله اتصال بالمذابح) وسوق التمبل (الهيكل) وهو في يد قومبانية ومسطحه ١٤١١٠ أمتار وفيه ٢٤٠٠ دكان تباع فيها جميع الاصناف

أما المطاعم المعروفة باللوكاندات فهي كثيرة جدا ومنها ما يكون الاكل فيه بثمن محدود أو بحسب قيمة كل صنف على حدته ومنها ماقد تبلغ الغدوة والعشوة فيه ثلاثين وأربعين وخمسين

ومائة فرنك ومنها مالا تتجاوز الأكلة فيه ثلاث فرنكات أو اثنين بل وأقل من ذلك وأغلبها مزخرفة مضاءة بالكهرباء وفى كثير منها خلايات منعزلة يدخلها الرجال مع بعض النساء ومنها ماهو مخصص لصنف واحد من المأكولات وبعضها يكون مفتوحا طول الليل وغير ذلك وأغلب القهاوى ومشارب الجعة (البيراريات) والخمارات تقدم الزاد لمن أراد والذى ينبغى ذكره بنوع التخصيص فى هذا الباب هو مطاعم دوفال فقد بلغنى ان هذا الرجل كان قصابا (جزارا) ثم كانت تتأخر عنده اللحوم فيبيعها بأبخس الأثمان أولا يجد لتصريفها من سبيل فخطر على باله أن يتخذ مطعما يشوى فيه هذه اللحوم ويبيعها بثمن بخس للآكلين فشرع فى العمل وأقبل عليه الدهر فتوسع فى هذا الموضوع حتى صارت مطاعمه مقصودة من العامة والخاصة يتقاطر عليها الاكابر والاصاغر وذلك لبخس الإثمان وزيادة العناية وجودة المأكولات مع زخرفة الاماكن واضاءتها بالكهرباء وادارة هذه المطاعم الآن فى يد قومبانية من المساهمين وقد بلغ عددها فى أول يناير سنة ١٨٩٢ ٢٦ خلاف فندقين كبيرين وخلاف المخازن العمومية ومعمل الفطير والمغسل ومخازن الانبذة وعددها أربعة منها واحد فى بوردو وخلافه دكاكين الجزارة فى ثلاثة شوارع واذا توجه الانسان الى مطعم من

هذه المطاعم فى وقت الظهر أو بعد المغرب رأى منظرا غريبا اذيرى كتائب الخادمين مسرعين مهرولين وجيوش الآكلين متشدقين ماضغين بالعين مع المواظبة على الشراب الحلال والحرام والداخلين أكثر من الخارجين ويكون المكان بهذه الخلائق المتموجة أشبه باحد شوارع لوندرة وعلى ذكر لوندرة أقول انى أتعجب كل العجب من عدم مجيء هذه الفكرة لرجل من أبناء بريطانيا العظمى فانها أشبه بما صنعه كوك وهو يتلى وغيرهما والاغرب من ذلك انه لم يقم للآن رجل من الانكليز بعمل يضارع هذه المطاعم فى « موسوعات الدنيا » بل قد نسجت قومبانية باريسية أخرى على منوال دوفال وأنشأت أربعة مطاعم وفندقا بقهوة ومطعم فى أهم شوارع باريس ودروبها وهى وان كانت فى درجة من الرفاهية وحسن الحال لكنها لاتضاهى نجاح مطاعم دوفال ـ والعادة فى هذا النوع من المطاعم أن يعطى للانسان عند دخوله قائمة مطبوعة فيها الاثمان فقط ومتى طلب صنفا أشر الخادم أمام الثمن المقرر له حتى اذا فرغ الآكل توجه بهذه القائمة الى أمين الصندوق وأنقده المطلوب ثم ردها عند الخروج للعامل الذى أعطاها له عند الدخول

أما معارض الصناعة فلها فيما أرى غايتان أولاهما تنشيط

الصناع وحثهم على التفنن والاختراع وثانيتهما تعريف الاهالى بما ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد والحصول على أمور قد تطلبها النفس من غير أن يقدر اللسان على التعبير عنها لعدم سابقة العلم بها ولذلك أنشأت مدينة باريس كشكا على حافة نهر السين يعرف باسمها وتأتى الجمعيات الحرفية والطوائف الصناعية لعرض مصنوعاتها فيه والمباراة لحيازة شهادات الشرف ووسامات الافتخار من أعضاء مجلس المحلفين الخبيرين المعينين لكل نوع واتفق انه فى اثناء وجودى بباريس كان الدور لمتعاطى صناعة لحم الخنزير فتوجهت الى الكشك حبا بالاستطلاع ورأيت فيه الموسيقى العسكرية تصدح بالحانها المطربة وأعمال الصناع معروضة على الانظار بتأنق وتجمل بحيث كانت تستوجب إعجاب القوم وتستدعى شهيتهم فينظرون اليها نظرا متواليا ويبلعون ريقهم ثم يقصدون الحانات فتعياطون المشروبات فكأنهم حينما أطربتهم نغمات الموسيقى تصوروا انهم أكلوا من هذا الصنف المستطاب لهم ورأوا من الواجب اتمام القصف بمعاقرة بنت الكرم وسأتكلم فيما بعد على هذا المعرض بتفصيل يشفى الغليل - ثم جاء الدور للطحانين فافتتح مؤتمرهم باحتفال عظيم كان رئيسه وزير التجارة ومعه كثير من كبار الموظفين فى نظارته

ورئيس جمعية الطحانين بفرنسا - ثم معرض جمعية المشتغلين بتربية الازهار ثم معرض دولى للاطيار ثم غير ذلك من المعارض التى لايسعنى سردها الآن وكلها تتجدد فى كل عام مع زيادة فى التفنن والاغراب - وكل واحد من هذه المعارض يبتدئ باحتفالات باهرة وينتهى بولائم فاخرة

ضواحى باريس

لاتخلو عاصمة من ضواحى يقصدها أهل الثروة وطالبو النزاهة لترويح النفس من ضوضاء المدائن الكبيرة ولكنى لم أزر من ضواحى باريس سوى فَنْسَن وفرساى فأمامدينة فنسن (وسكانها ٣٢,٢٧٨) فما تستحق الذكر لولا الغابة الجميلة التى بها والقلعة المهمة المنيعة المعروفة باسمها وقد زرت هذه القلعة بتصريح خصوصى ورأيت غرف التعذيب وآلات العذاب والمكان الشاهق الذى هرب منه الدوك دوبوفور وقناة السين التى كانت ترمى بها جثة المعذب بعد ان يسقى كأس الحمام وغرفة سجن بها أحد القساوسة ٧ سنوات وأخرى اعتقل فيها أحد الكرادلة ٧ شهور ولكن ذلك كله أصبح أثرا بعد عين وصار كاداة ملغاة لاعمل لها حتى انهم قد سدوا فوهة البئر الموصل لقناة السين وقد

يبلغ غلظ الحائط فى أعالى هذه القلعة ثلاثة أمتار ورأيت خزائن السلاح ولكنها ليست شيأ مذكورا بجانب مارأيته فى برج لوندرة وحصن دوفر من أعمال انكلترة وأما الغابة ومنتزهاتها وبحيراتها وجزائرها وخلاويها فسأتكلم عليهافى الرحلة مع الالماع بشئ الى غابة بولونيا والبوت شومون وغير ذلك

أماقصر فرساى فقد كان مقر ملوك فرنسا وهو فى منتهى الجلالة والفخامة بحيث لايكاد يعادله شئ مما رأيته وقد حوى صور جميع ملوك فرنسا ومشاهيرها على الجدران والرخام والقماش وغير ذلك بغاية الابداع ونهاية الاتقان ومن أراد ان يقف على تاريخ فرنسا فى سويعات قليلة فما عليه الآن ينظر الرسوم التى أزدانت بها غرفه فانه يرى فيها جميع وقائعها وأعمالها وكل مايتعلق بتاريخها ومما استوقف انظارى بنوع خصوصى صورة الشيخ السادات والسيد البكرى والشيخ الشرقاوى وغيرهم من أكابر مصر أيام دخلها بونابرت وقد رأيت أسرة ملوك فرنسا وأثاثاتهم وأمتعتهم الخاصة بشؤنهم الداخلية ورسوما تمثل الحروب الصليبية وحروب افريقية والقرم وايطاليا وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر واحفظ لنفسى حق الكلام عليه وعلى الروض الانيق والفساقى البديعة وعربات

الملوك التى بقصر اخر بجواره يعرف بـ(التريانون) وغير ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه الاوراق

أهل باريس

اف لك يا باريس وألف أف فقد أعيانى فيك الوصف واضطرتنى كثرة مافيك من المآثر والمفاخر وتعدد المشاهد والمعاهد للأطالة فى المقالة بما ربما يوجب الملالة والكلالة مع انى لم أغترف للقارئ الاقطرة من بحرك ولم أروحه الا بنفحه من زهرك ولايزال مجال الكتابة واسعا امامى فسيحا لجولان اقلامى ولكننى لاأرى مندوحة عن اقفاله الان لافتتاحه بعد القفول الى الاوطان وأختم هذه الرسالة بذكر كلمات عن أهلك واخلاقهم وحركتهم ونشاطهم وافكارهم وآرائهم فقد آن لى ان أقدمهم الى بنى مصر بناء على ماحققته بالاختبار وعرفته بعد بعض المعاشرة حتى اننى لاأرى وصفا يصدق عليهم أكثر مما قاله أحد ولاة قرطبة فى أيام الاسلام بعد ان تخلى عن ادارتها فانه وصف أهلها بالقيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضى بامورهم *كالجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح فلا يدرى أين رضاه* وفى ذلك دليل على ان أفراد الانسان مهما كانت بلادهم قاصية وعاداتهم

متباينة وطبائعهم متخالفة وأقاليمهم متنوعة ومعتقداتهم متباعدة فلاتزال فى أفكارهم وحدة تجمعهم وفى نفوسهم حاجات مشتركة بينهم

وأهل باريس أكثر من رأيتهم من الامم نظرا فى الفرق الحاصل بين أفراد الهيئة الاجتماعية فانهم يرون الوضيعين كثيرين والرفيعين قليلين والواصلين الى ذروة النعيم عندهم يسير فيقولون لم هذا الاختلاف ونحن كلنا متساوون وابناء نوع واحد تجمعنا راية الجمهورية وقد كتبت عليها هذه الكلمات (حرية - مساواة - إخاء) ولما انتشر التعليم فيما بينهم ونفذت أشعته بين لفيف المتناولين الحرف الدنيئة منهم تصور هؤلاء الافراد أنهم يعرفون أكثر مما يعلمون وصاروا لايقيسون أنفسهم بمن هو أعلم منهم بل ينظرون الى من هم أحط فى الدرجة فداخلهم الاعجاب بنفوسهم حتى خيلت لهم الخيلاء أنهم أهل للكلام فى كل موضوع وان لهم الحق فى الحل والعقد فى جميع المسائل على اختلاف طبقاتها وأخذوا يجاهرون باللوم والتأنيب ويقولون انهم لو كانت الامور بايديهم لكانت مساعيهم أحمد عاقبة وأعمالهم أتم فائدة ولذلك تشعبت أفكارهم وكثرت مقالاتهم فى حل المسئلة الاجتماعية وترتيب نظام الجمعية البشرية على أسلوب يفى بجميع

الحاجات فيقول فريق منهم (اننا لانطلب شيأ ما من أحدما ولاحاجة لنا بكائن من كان فلماذا لايتركنا الغير نعيش ممتعين بالحرية راتعين فى بحبوحة الاستقلال . أليس من المستغربات الزامنا بدفع الضرائب والغرامات من المال الذى جمعناه بكدنا وسعينا بحجة القيام بنفقات يسمونها عمومية وهى لاتهمنا ولاتعنينا . أليس ان مانكسبه بعرق جبيننا ملك حلال لنا فلماذا يضطرنا الغير لبذله فى إغناء الغير) ويقوم فريق آخر يعضده و يقول (ليت شعرى هل كتب علينا التعب والنصب لاجل ان نحمل ثمرة اتعابنا الى مأمور التحصيل لاغناء المميزين وهم عدد قليل لعمرى انه لاحاجة لنا فى ان يتحلى رئيس الشرطة وصاحب العسس باشرطة من القصب والذهب أو ان يكون لحضرة المدير عربات تجرها الجياد الصافنات) فيقوم فريق آخر ويقول (انى لاأكثر الندب على المال فانه لامراء ان رئيس الشرطة وصاحب العسس لايمكنهما ان يتفرغا للزراعة والصناعة بينماهما آخذان فى تعقب اللصوص وقطع دابر قطاع الطريق ولذلك فانه ينبغى لنا ان نكسوهم ومن رأيى ان شرائط القصب والذهب ليست من الزيادات والنوافل لانها تحدث الهيبة ولاألوم المدير على اتخاذ الخيول فانه يجب عليه قطع المسافات الطويلة لتفقد

أحوال مديريته ولكن الذى لايمكننى ان أتحمله أو أرضى به هوان القوم يفدون علينا فى كل عام وينتزعون منا زهرة الشبان ليدخلوهم فى سلك الاجناد والاعوان .... الله الله أليس من أشنع الامور وأبشع الاعمال سوق أولئك الفتيان الى سوق المذبحة الذى يسمونه بالحرب فلماذا نحارب ولماذا نضارب أليس ان الاولى ان نلبث فى ديارنا بسلام وأمان منقطعين لحرث الارض وحمل المحصول الى السوق ومعاملة كافة الناس بالتى هى أحسن) فيقوم فريق آخر ويقول (نعمت هذه الافكار وياحبذا هذا الرأى لو كانت الناس كلهم عقلاء وقائمين برفع منار العدل فيما بينهم . قولوا الحق أفلو اعتدى جاركم على قيراط من أرضكم أماتقوم القيامة لعمرى أنكم تشرعون الاسنة وتفضى بكم الحال الى اهراق الدماء ألا نعمت الحرفة حرفة الجندى يذود عن حياض وطنه ويحمى أهل بلده فان ذلك من أوجب الواجبات اذ من المنازعات مالايجدى فيها التحكيم بل التحكيم ومنها لاينجح فيها المُدافع الا اذا صاح بافواه المدافع) ثم تتشعب أفكار كل فريق ويستحسن بعضهم مايقبحه الآخر ويأتى هذا ببعض التعديل وذاك بشئ من التبديل .

ولهم مثل ذلك فيما يتعلق بالنواب عن البلاد فيقول بعضهم (انى لاأرى الفائدة التى تعود علينا من اختيار رجل يذهب الى

مجلس النواب لينوب عنا وليشتغل بمصالح البـلاد وذلك لوجوه أولها اننا نجرى فى هـذا الانتخاب كالعميان الذين لايهتدون الى الطريق فان القوم يقولون لنا هذا الرجل يصلح وذلك الرجل لايصلح ونحن نجهل حقيقة الاثنين فى أغلب الاحوال وكل منهما يشنف أسماعنا بما يخرجه من وطابه من مستعذب المقال ويعدنا بانه يوصلنا الى تمام السعادة ولكن أين منا الماهر الذى يقدر على تمييز البواطن من الظواهر وتعرف الخبيث من الطيب فانى اذا توجهت الى السوق أقدر على تمييز الحبوب الجيدة والاثمار الصالحة ولكننى أقول الحق انى فى اختيار النائب لاأعرف ماذا أنا صانع ولا أقدر أحكم عليه مثل حكمى على غيره من الاشياء التى لى بها تمام الخبرة فان حضرة شيخ البلد (أمين المدينة) يوزع علينا قوائم الانتخاب ويقول لنا ان فلان هو الحائز لكافة الاوصاف اللازمة و ينبغى انتخابه ومن رأيى ان ينفرد أمناء المدن بعملية الانتخاب فان رأيهم هو الغالب وحينئذ يتم هذا الامر فى وقت قصير وفى اختصار الزمن فائدة عظيمة) فيقول فريق آخر (متى عجز الانسان لاى سبب من الاسباب عن مباشرة شؤونه بنفسه فالواجب عليه أن ينيط واحدا غيره يختاره لها فاذالم يكن

عنده من المعلومات مايكفى لهذا الانتخاب يجب عليه الاسترشاد برأى حكيم ناصح يثق بقوله ويعول على رأيه وحينئذ يكون له يد فى ادارة أحوال بلاده ويداخله السرور بأن له كلمة معدودة وصوت معتبر) فيقول فريق آخر (كل ذلك حسن ولكنى أرى ان أمور البلاد وادارة شؤنها تصلح كثيرا اذا كانت فى يد رجل واحد يحكمها بحسب ماأوتى من الحكمة فانه متى كان الحاكم واحدا كانت مصلحته الشخصية أكبر قاض عليه فى ادارة الامة على أكمل منوال حتى يتقرب اليها ويتحبب منها ومن المقرر الذى لايختلف فيه اثنان غرق السفينة التى فيها ريسان وقد رأيت فى بعض الايام عربة يجرها ستة من الافراس قد ارتبكت فى طريق كثر وحله ووعثاؤه فتقدم لانقاذها كثير من الناس وبعضهم يدفع العربة ذات اليمين وآخر ذات اليسار وبعضهم يشدها من الخلف بينما نفر يجرونها من الامام ويجيء جماعة فيفوقون السياط على الخيول وهى لاتزداد الا حرنا وتعاصيا وفى أثناء ذلك تزداد العربة غوصا فى الوحل وارتطاما ولما رأى سائق العربة هذه الحالة أبعد جميع هؤلاء الناصحين الغير ناصحين ونظم خيوله بجانب بعضها ثم استوى على كرسيه وهمهم على الخيل من غير أن يرفع عليها سوطه فعرفت صوته وجمعت قواها ثم نهضت بحملها الثقيل نهضة

واحـدة استخلصت العربة من الاوحال وسارت تركض بها فى أحسن حال فهكذا تكون ادارة الاعمال) فيقوم فريق آخر ويقول (انما أفلح سائق العربة لمهارته وحسن ادارته ومعرفته بمهنته ولان خيوله كانت قادرة على جر حملها والا لو كان فوق طاقتها لما قدرت أن تقوم به أبدا ولكن الرجل لو كان غير كفوء لوظيفته لاشك انه كان يعتبر نفسه سعيدا من وجود ناصحين له صادقين فى خدمته يعاونونه على الخروج من مثل هذه الورطة بسلام بل ربما كان يشكر العناية الصمدانية اذا كانت قيضت له فى مثل هذه الحال رجلا أقدر منه على قيادة العربة وخيولها فكان يلقى اليه بالزمام ليتعلم منه كيف تكون الادارة فى المسالك الحرجة والمواقف الوعرة ولو كانت خيوله لاقبل لها بجر العربة فهل كان يرفض نصيحة العقلاء الذين يشيرون عليه بتخفيف الحمل أو تمهيد الطريق امام العجلات وازالة ما يعترضها من الاحجار والموانع الاخرى فلذلك لا ينبغى الاستخفاف بالمشورة فان من انفرد برأيه زل ومن استغنى بعقله ضل وما خاب من استخار ولا ندم من استشار)

هـذا مثال من ألف مثال مما رأيتـه من حركة الافكار ولا أود الاطالة بشرح أفكار القوم فى المسئلة الاجتماعيـة

وهيجانهم الى درجة لايتصورها العقل وسأشرح ذلك فى الرحلة بالتفصيل وأطلع قومى على غرائب هؤلاء الاقوام والله المستعان

الرسالة الاخيرة من الرسائل المؤتمرية

(وداع باريز وذكر الاندلس والبرتقال

بوجه الاجمال)

من غرناطة فى يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة ١٣١٠ - ٢٣ ينايرسنة ٩٣

قضت نواميس الكون الانسانى ونظامات الوجود العمرانى وداع باريس بان دوام الحال من المحال وانه لابد من الفراق مهما طال التلاق وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله فى خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا

أطلت المقام فى باريز الى مابعد الميقات الذى كنت ضربته لبراحها بايام كثيرة فاننى كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب التأجيل وعدم التعجيل لمناظرة بعض الآثار أو لشهود أنواع من الإحتفال أوغير ذلك ممايستوقف الراحل ويستغرق الاوقات ويحبس السائر عن عدوه ويخرس الطائر المفصح بشدوه فكم فيها من مسارح تنفسح بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره

السائح ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى اعترانى الكلال والملال من كثرة مارأيت وما سمعت وصرت أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها فى منتصف ليلة ١٩ الى ٢٠ نوفبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارجاء المتالقة والروح بها وبمن فيها متعلقة ثم سار القطار ينهب الارض نهبا ويقطع الفيافى فدفدا بعد فدفد ومر على كثير من مدائن فرنسا العامرة مثل تور وهى مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة حتى ان أكثر الطالبين لابد لهم من الاقامة فيها شهورا طويلة لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها ادنى شائبة ومثل انجوليم المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو المشهور شهرة تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية برديل وبردال (وبالذال المعجمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل الى تخوم اسبانيا الا بعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عينى باثمد الكرى حتى أجهدنى السير وأضنانى السرى ولكننى تجددت فى القوى حينما شممت

عبير الاندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافى سمائه وقد ترصعت بالدرارى كما هو الشأن فى بلادى وأرض مهادى بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه فى انكلترا وباريز من كدورة الجو وتجهم السماء وتوالى الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر بدر السماء واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها مالاقيته فى غربتى واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لى ان سمر الشهب فى الدجى * وشدت باهدابى اليهن اجفانى

التحسر على الاندلس

وحينئذ شطحت مع تيار الافكار ولكننى مالبثت ان انقبض صدرى وعلتنى الكآبة وتولانى الانزعاج اذ أحاطت بى جيوش من اللوعة والاسف والحسرة واللهف لاننى تفكرت ماناله الاسلام من العز والاقتدار فى هاتيك الديار أيام كانت تخفق فوق الاندلس اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة رايات المجد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه ورواببه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء فتخشع القلوب وتعنو الوجوه لذكر الحى القيوم أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربى

باسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروءة والشهامة ساريتين في جسمانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها في المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين افادوا العالم باجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث في اسرار الطبيعة وانه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (ومازلنا الى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التي استبقتها يد الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها في الرحلة)

وقد اشتد بي الوجد والوله حتى عدمت التعبير وغاب عقلي وما ابصرت نفسي والا لساني يندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التي نظمها أبو البقاء الرندي في رثاء الاندلس وقد ترجمت نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لساني

لكل شيء اذا ماتم نقصان * فلا يغر بطيب العيش انسان

هي الامور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد * ولا يدوم على حال لها شان

فجائع الدهر أنواع منوعة * وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها * وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له * هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية * وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما * عسى البقاء اذا لم تبق أركان
أتى على الكل أمر لا مرد له * حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها * وما لها مع طول الدهر نسيان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة * ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه * أبعد حمص تغر المرء أوطان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها في مثار النقع نيران

وراء البحر فى دعة * لهم باوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم * وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * اما على الخير انصار واعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم * واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم حين بيعهم * لهالك الامر واستهوتك احزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما * كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان فى القلب اسلام وايمان

استمرار الحسرة

وصرت أردد هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ايرون Irun أول تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما صدقت الوصول الى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلبا للراحة الضرورية ولبثت به على خلاف عادتى الى أن قرب الظهر ولم أستيقظ الا على جلبة الاطفال وصياحهم فى لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين

شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توقظ النفوس النياما

حرام على امرىء لم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما

فقمت فى عام عوبا وأنا أقول أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا البيت على خاطرى مع ان القصائد التى من بحره كثيرة ثم تذكرت ان السبب فى ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظر البلد وما فيه وما حواليه فرأيت المبانى والنوافذ والاسطحة تشبه ما عهدته طول عمرى فى مصر وكذلك الحارات والزقائق وغير ذلك

معرفة النحو لا تغنى

وقد كنت وأنا فى باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة فى درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية سوى هذه الآلة

احتباك الحيرة والهوس بالوطن

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة بالايطالية وتارة بالفرنساوية وغالبا باللغة الاشارية التى يفهمها جميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين

وكراهة للعرب وجفوة للغريب مع ماهم فيه من الهرج الدائم على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا فى التلغرافات وانا فى باريز فضلا عما رأيته فى كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة فى الانسان وان الحياة غالية خصوصا عند الوشوك على الوقوع فى الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول الغيبة كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ماعندى من الشوق لرؤية هذه البلاد الجميلة وتعهد بقايا العرب فيها فتذكرت حينئذ المثل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشدت على نفسى لاحياء مائت قوتى قول الشاعر

التغلب على الصعوبة

ان كنت تطلب عزا فادرع تعبا * أو فارض بالذل واختر راحة البدن

فتجددت فى عوامل القوى وانبعثت فى جسمانى روح النشاط وتذكرت انى أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب مارآه فيها وقارن بين حالتيها وفى ذلك فخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالى * فلا يذر المطى بلا سنام

زيادة بعض المدن

ولذلك توكلت على الله وقت من ايرون الى فنترابيا Fontarabia الى سان سيبستيان San Sebastian الى بنبلونة Pamplona

وتسمى فى قليل من كتابات العرب بعفلونة وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط وهى أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى ثم الى سرقسطة (Zaragoza (Saragosse وقد

مدينة سرقسطة والجمعية العلمية

نزلنا بها نبغى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

فانى النيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم ما كاد ينسينى الاخوان وقد اطلعت فيها على كتب عربية نادرة جدا وتعلمت فيها الكلام الاسبانى

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية Academia Juridico-literaria عينتنى عضوا افتخاريا بها واحتفلت بى احتفالا فائقا وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالى بغاية التكريم والترحيب فخجلت ان أدخل بينهم خالى اليدين لا أقدم لهم موضوعا فى هذه الحفلة المهمة والهمنى الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنساوية على مدينتهم فى أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التى وجدتها عند المشتغلين بالعربية من اساتذتها وببعض ما عن بالخاطر وقدمت لهم خطبة فى ١٥ صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل فى الدواوين وقد راقت لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت هذا الاحتفال بالفاظ التبجيل والاجلال وقد أرسلت نسخا من هذه الجرائد الى العاصمة لبعض اصدقائى وقد ترجم كثير منها ,

خطبتى الى اللغة الاسبانية على ماعلمته بعد قيامى من سرقسطة
وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتحفنى أكثر
المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تأليفهم وخلاصة القول ان
هذا اليوم كان من أسعد أوقاتى وانى أحمد الله على هذا التوفيق
الذى مكننى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى
بالاسبانية والفرنساوية والعربية والطليانية والسبب فى ذلك
انه قد اتفق فى بعض الايام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية
فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة پابلو خيل
D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة
والاداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى على يمينه
وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب
عليهم بشئ مما يفتح الله به علىّ واذلم يكن لى سابقة علم بهذا
الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ثم خاطبتهم بالفرنسوية
بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى ان أتكلم بالطليانية ففعلت
وحينئذ قام الرئيس الحقيقى وطلب من الجمعية تعيينى عضوا
افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غيراعتيادية
لاستقبالى وحينئذ أشار علىّ الرئيس الافتخارى بان أشكر
الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما

لاأجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طاليانية أوفرنسوية ولوشئت ترجمة ماذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة

فأما الخطبة التى أجاب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا وغررا تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الادبية التى كانت بين المشارقة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها فى فرصة أخرى ويحق لى أن أوردهنا الخطبة العربية التى ألقاها أثناء الاحتفال أحد اعضاء الجمعية وهو الدون سان پيو D. San Pio الذى تلقيت عليه اللغة الاسبانية وهاهى بنصها الفائق

« بالنيابة عن جميع اخوانى سلام عليك يا أيها العلامة المصرى »
« أحمد زكى أفندى بودى أن ألقى الآن خطبة ولكنى مثل »
« أيوب قد ازدحمت علىّ الافكار وقد دعانى اخوانى أن أقول شيأ »
« بلغتك الفصحى فاقتصر على ايراد بعض جمل من الكتاب المقدس »
« يخرجك الرب الى مصر فى سفن واذكر مالاقيته فى هذه »
« المدينة والقادر الكافى يبارك لك فى السفر والاقامة والسلام »

وقد اطلعت فى مكتبة الدون پابلو خيل المذكور على كتب عربية

اللغـــة الاعجمية الاندلسية

كثيرة وأغلبها باللغة التى يسمونها الجيادو Aljamiado وذلك لان العرب لما انقرضت دولتهـم بالاندلس وبقى بعضهـم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربيـة وصارت اللغة القشتالية أى الاسـبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها الجيادو ووجه هـذه التسمية ان العرب يسمون كل ماليس بعربى أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هـذه اللفظة الى اللغة الاسـبانية بغـير حرف العـين لعـدم وجود مايقابله فى اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هـذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهـل أسـبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت كما سـنبينه قالوا (ألاخاميا) أو (ألخميا) ورسموها بحروفهـم هكذا بعـد ان سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسـبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا Aljamiado اى «الاعجمى»

تحـريف الكلمات العربية

واليك الشواهـد على قلبهـم الجيم خاء فانهـم يقولون فى الجام «الفاخى» وفى عـلم الجـبر «الخبرا» وفى الجص «الخيذ» وفى الجب بمعنى الصهريج والجابيـة «الخيبى» وفى الحاجـة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفى الجعبة «الخابا» وفى الجفنة

« الخفنا » وفى الجرس « الخرذ » وفى البرتقال « نارنخا »
من قول العرب نارنج وفى محل سجن النصارى عند عرب
الاندلس « ساخينا » من قول العرب سجن وفى الترنجة « ترنخا »
وفى الجوهر « الخوفر » وفى الجبة « الخوبا » وفى المنجنيق
« المنخنيكى » وللجيفة « خيفا » وتاريخ الهجرة « هخيرا »
ولخنزير الجبل أو الحلوف « خبلى » من قول العرب جبلى * هذه
بعض ألفاظ علقتها أثناء تلقى اللغة حتى انى لاحظت دوران هذا
الحرف فى غالب كلماتهم الافرنجية التى يكون فيها شين أو جيم
أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستمنح من القارئ
السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم فى بعض الاحيان يقولون الخثيرا Aljecira فسألت
عن ذلك فاعلمونى بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ تشوقت لان أعرف
كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنسوية يقولون الجيرى Algérie
والطليانية الجريا Algeria ولكننى حمدت الله حينما رأيتهم قد قلبوا
فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخليا ولم يقولوا غير
ذلك . . . وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافى هذه القاعدة فيقولون
فى الخزانة « الاثينا » بمعنى الخزانة المنقورة فى حائط البيت وفى الخروع
« تشرفا » وفى طير الخطاف « فاتكسا » وفى المسجد « مسكيتا » وفى الخزاز

«المفرين» بياء ممالة وفى المخدة «الموهادا» وفى تصغيرها «الموهاديدا»
وفى النخاع «الموكائى» من قول العرب المخ وفى الخبازى «الهبازى»
وفى البطيخة «البوديجا والبوديكا وباديهاوباديا» وفى الخرشوف
«الكتشوفا والكرتشوفا» وفى البخور «البافور» وفى الخروب
«الجروبا» وفى الخزامى «الهوثيما» وفى المخـزن «المائن» وهو
اللفظ الشائع و يقولون فيـه أيضا «المجائن والمارثن ومجائن»
والسخرة بمعـنى العونة «اذوفرا» والزرنيخ «اذرنيقى» بياءين
ممالتين والرخ فى لعب الشطرنج «روكى» وفى الشيخ «كسيكى»
بياءين ممالتين وفى الخزأى الحرير «التشز» وفى الخياط «الفيات»
هذا بعض مالاحظته وسألم فى الرحلة بشئ كثير من قواعد
التحريف عنـدهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان
كلام العرب كله يشبه هـذه الاصوات «خبط خبط خبط»

وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت
الى قمة البرج المائل الذى يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع
الاعراب المرتدين وقد شرع القوم فى تقويض دعائمـه خوفا من
سـقوطه ثم خرجت منها شاكرا أفضال أهلها مرددا الثناء عليهم
وعلى أخلاقهم الزكية و زرت قسطجون Castejon وميرندة
Miranda ثم برغش Burgos وكنائسها المشهورة وقد رأيت

تجـول فى
بعض المدن

فى احداها لواء فى غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب فى واقعة العقاب التى سأذكر عنها شيأ يسيرا فى هذه الرحلة ثم زرت آبلة Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى فى كتب العرب القديمة مجريط[1] وقد رأيت جميع مافيها من المتاحف والمعارض ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب السعادة طرخان بك سفير الدولة العلية الذى كان واليا على جملة ولايات مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته وقد رأيت فيه رجلا عالما بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه من الوطنية وحب الاسلام مالم أجده فى غيره الى الآن ويسرنى أن أقول ان له مقام كبير فى نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة باسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض العربية وانى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون جميع نواب الدولة العلية أيدها الله فى جميع الممالك الاوربية على شاكلته فانما تعلو الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمندوبيها وقد أكثرت فى مدريد من زيارة المعرض الاوربى الاسبانى الذى أقيم احتفالا بمهرجان كرستوف كولمب وذلك لانى رأيت فيه كثيرا من الآثار العربية الاندلسية التى تبعث فى النفس فخارا وفى القلب احزانا ورأيت لواء

مدريد ومقابلة سفير الدولة العلية

(١) مجريط بفتح الميم كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان

عربيا يشبه لواء برغش تمام المشابهة وبجانبه لواء آخر مما أخذه
الاسبانيون من العرب وقد رأيت فى القسم المخصص للطوبجية
المدافع التى سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصد عدوهم عنهم
ورأيت غير ذلك مما لاتمكن به الاحاطة الآن وكنت أكثر من
زيارة التياترات فى كل ليلة لاتقان اللغة ولانها فى مدريد مدرسة
حقيقية لاخلاق القوم وعاداتهم حتى انى أثناء التشخيص كنت
أتصور نفسى فى بعض الشوارع أوفى احدى القرى ثم زرت

طليطله

طليطلة Toledo وتسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك
لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت
تسمى عند الرومانيين كذلك Toletum وبالتصغير Toletula
ومنه الاسم العربى طليطلة وقد ورد اسمها فى قليل من كتابات
العرب توليطه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان
معنى توليطه بلسان قيصر «انت فارح» فاذا هى مدينة عربية محضة
لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولا أتذكر أن مدينة فى مصر حفظت
هذا الشكل العربى المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان
وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها متعرجة ملتوية ملتفة
صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبه شئ بتلك الحشرة المعروفة
بام أربعة وأربعين وقد رأيت فيها من آثار العرب ماينطق بفضلهم

ويخرس كل متعصب عليهم ثم رجعت الى مدريد . وبعد أن أطلت دخول مملكة
الاقامة فيها توجهت الى بلاد البرتقال Portugal «هذا هو اسمها
فى كتب العرب لا بورتغال أو بغيرواو » وزرت عاصمتها المعروفة
بلسبون (Lisbonne (Lisboa التى يذكرها العرب باسم لشبونة
واشبونة والاشبونة وقد بدأت بزيارة حضرة قنصل جنرال الدولة
العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفى ثانى يوم
من وصولى وردت لى تذاكر من الجمعية الجغرافية بالتحية
والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح
والنشان والبلياردو وغير ذلك تحت تصرفى فزرتهم وشكرتهم
واستفدت كثيرا من لقائهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة
المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعى وكل ما قدرت عليه ورأيت
من أهلها حفاوة تخلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت
مدينة شنتره Cintra ورأيت حصون العرب على قمم الجبال
وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن
فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للنصارى
فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت
الى لشبونة وزرت فيها القسم الذى كانت تسكنه العرب وكان يعرف
عندهم باسم الحمة «بتشديد الميم» ويسميه البرتقاليون الآن من باب

البرتقال
وذكر
لشبونة
وشنترة

التشرف بمقابلة جلالة الملك

التحريف « الفاما » وقد تشرفت فيها بمقابلة جلالة الملك فأكرم وفادتي وأحسن اقاتي ولبثت مع جلالته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجل مواقع الدنيا يشبه أو يفوق موقع جنوة ونابولى و يقرب من القسطنطينية على ماسمعت ومنظرها يشبه المدائن الشرقية .

الفول المدمس بأوروبا

ومما يحسن ذكره من باب التفكهة انى خرجت ذات يوم فى بكرة النهار لاتفرج على حركة المدينة فى مبدئها ومن جملة مارأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن فى حركاتهن وهن حفاة الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية الجسم بخلاف بقية الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن فى تنحيل الخصر وترفيعه ومما امتاز به هؤلاء النساء فى البرتقال انهن يضعن فى أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد وسطهن و ينتهى بصليب كبير من النحاس وفوق رؤوسهن قطعة من القماش ملتفة على بعضها مثل الحواية ويحملن عليها شيأ شبيها بطست نحاسى مفرطح جدرانه مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام لاأفهمه فتشوفت لاستوقفها وأعرف ما معها فسألت الدليل ذلك ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيئتنا توسمت أننا ممن لايشترى مما معها فهمت بمغادرتنا ولكننى أظهرت لها قطعة من الورق قيمتها نحو

قرش صناغ فوقفت وفرجتنى على ما فى الطست واذا به الفول
المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى
بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذا هو Fava Rica
أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه على أن
يستحضر لى فى صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى
وقد كان غير أنى اردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى
الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبثت فى غرفة النوم
وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل حتى لا أكون مثل بنى اسرائيل
حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه
والهفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع
أيام سياحتى فى أوروبا

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coïmbra المعروفة
فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف
فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها
وبستان النبات البديع فيها وبعد انطوفت على معظم آثارها
قمت الى مدينة بورتو Porto واسمها فى كتب العرب برتقال
وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس

مدينتى قلمرية وبرتقال

وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بنى سويف وبندرها بنى سويف والفيوم وبندرها الفيوم والمنيا وبندرها المنيا وهكذا فى أسيوط وقنا وكما كان الشان فى القليوبية وجرجا والمنوفية قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند العرب بسوهاى) وشبين الكوم وساورد فى الرحلة نصوصا عربية معتبرة تكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)

وقد رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيأ يذكر لانهم كانوا يجيؤنها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة فيها وهى من الفخامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية سأوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لمولاتنا السلطانة مريم ٢﴾ يريدون عز لمولاتنا السلطانة مريم الثانية

إشكال على الفول المدمس

وقد عن لى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول الغنى (أى الفول المدمس) فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر وأوصيته أيضا على استحضار الزبد والبصل فنظر الى نظر المستغرب

وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقاطعته وقلت له هذه ارادتى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الآثار وغير ذلك حتى جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلذذ مقدما بأكلة الفول الغنى التى أعددت نفسى لها فى هذا اليوم السعيد حتى انى لم أتناول شيأ من الزاد فى الصباح وقد صعدت فى الحال الى غرفة نومى فوجدت صينية عليها شئ كثير من . . . . . من . . . . . من الخروب فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة مااعترانى من الغيظ والحنق فحضر الخادم فقلت له ماهذا الذى فعلت يداكم فقال انما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته فى هذا الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيته بكل انشراح فى مدينة الاشبونة فأدرك السر وقال لى ﴿ياسيدى أهل پورتو يسمون الخروب فولا غنيا ولا يعرفون ذلك الصنف الموجود فى أشبونة بل انهم يتهكمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولا غنيا مع انه هو الخروب للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول ولما كان فى الخروب مميزة على الفول دعوه بالفول الغنى ولهم الحق (وليتنبه القارئ الى انه منهم فلذلك هو يصوّب رأيهم) وهذا

مادعاني للاستغراب حينما طلبت مني في الصباح أن أحضر لك غداءك من الفول الغني مع الزبد والبصل * فانشرحت من هذا الشرح مع انى انقبضت للحرمان من أكلاتي المصرية والاضطرار للاكل على المائدة العمومية بالطريقة الافرنكية ولكن هي السياحة يرى فيها الانسان مايسوء ومايسر

ثم خرجت منها قاصدا شلمنقة[1] Salamanca من بلاد اسبانيا ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتقالية خوفا من الاختلاط ولكنى لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الخروب يسمونه الفروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهريج يسمونه زفريش ويسمون نوعا من الاغطية والفراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم « الفامار » وهذه الكلمة الحديثة الآن مأخوذة من الكلمة البرتقالية المهجورة المحرفة عن العربية مباشرة وهى « ألفمبره ويسمون الجس « ألفس » والهدية « الفدية » والحرمل وهو

لغة البرتقال والتحريف فيها

(١) هذا هو اسمها الحقيقي في كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير في حوادث سنة ١٤٠ في الجزء الخامس وقد وهم صاحب دائرة المعارف حيث سماها سلمنقة بالسين المهملة ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها طلمنكة فقال انه اسمها في بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca بليدة في ولاية مدريد في وسط الاندلس كانت من أعمال طليطلة في أيام العرب وأما شلمنقة فهي في الشمال من ولاية جليقية التي قد يسميها العرب غليسية Galicie

السذاب البرى «الفرما» وفى الحلاوة «الفلووا» ويقولون فى الجنة الفاما والخياط يسمونه الفيات وأمثال ذلك كثيرة لا أطيل بها الآن وأما الشين فان معظم السينات التى فى اللغات الافرنجية يقلبونها شينا ولعل ذلك هو السبب فى ان العرب نطقوا بأسماء البلدان التى فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد فى كتب العرب وأما الراء فهى كثيرة جدا خصوصا مع الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء معدومة بالكلية

ذكر النقود باسبانيا والبرتقال

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو انى لما كنت فى سرقسطة توجهت فى صباح يوم وصولى الى أجمل دكان للزين فيها وبعد ان حلقت ذقنى وأصلحت شعر رأسى وضمخته بانواع الخلوق المستعملة عندهم سألت الرجل عن الاجرة فقال لى ٣ ريالات فبهت فى قلبى وأسفت على مجيئى اليه ولكننى تجلدت وأظهرت تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليه ورقة قيمتها ٢٥ فرنكا فرد لى ٢٤ فرنكا وربعا فعلمت ان الريال عند أهل اسبانيا يساوى جزأ من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو أقل من القرش الصاغ بقليل ولكننى لما جئت الى بلاد البرتقال

ونزلت فى لشبونة اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الاجرة فقال لى ٦٠٠ ريال فقلت فى نفسى هذه هى الطامة الكبرى وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الايام واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت مبحوح « وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق » وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا لاسداس

ولما أصبح الصباح كان أول شئ طلبته هو الحساب فجاءنى بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوى هذا كله من الفرنكات فقيل لى ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منفردا وقد قاسيت كثيرا من اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى انى كنت أصرف الفرنك الصحيح المعتبر بمائتى ريال وبمائة وتسعين وبمائة وثمانين وبمائة وسبعين بل وبمائة وستين فى قلمرية وعرفت ان هؤلاء القوم يلزمهم عدد كبير لقيمة قليلة

العودة الى الاندلس

ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله فى الرجوع الى الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها فى اسبانيا

مثل قلمرية فى البرتقال ورجعت منها الى مدريد [1] فأصابتنى النزلة الوافدة واشتدت علىّ وطأتها حتى كدت أيئس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابى وأصدقائى وعناية الاطباء بشأنى وقد كان صاحب السعادة طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفى بمقابلة جلالة الملكة وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بينى وبين هذا الشرف الاسنى غيران الله سبحانه وتعالى رأف بى فخفف النازلة عنى وبذلك تيسر لى مقابلة جلالة الملكة فلاطفتنى وتعطفت علىّ كثيرا وتكلمت معى فى اشتات العلوم والادبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ودار الحديث كثيرا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها

مقابلة جلالة ملكة الاندلس

---

(١) عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلا فى كتاب الجاسوس على القاموس أشار فيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادى بمناسبة ذكره لبعض بلدان الاندلس فى قاموسه وقد وقع صاحب الجاسوس نفسه فى وهم أرى من الواجب اصلاحه فى هذا المقام وبيان ذلك ان المجد ذكر بلدا اسمه النبرة وقال انه من عمل ماردة فجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا لهذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة Mérida بلد ومدريد بلد آخر وماردة فى الجنوب الغربى بقرب بطليوس Badajos على تخوم البرتقال ومدريد فى الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا فى أيام العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد فانها عند العرب مجريط وكانت فى أيامهم عبارة عن حصن ليس الا

واستطالت المقابلة مدة تنيف على العشرين دقيقـة وكان معى حضرة السـيد المفضال والامير الكريم طرخان بك وسأذكر فى الرحلة ما دار بيننا من الحديث وقد خرجت من بين يديها شاكرا أفضالها على هـذه المقابلة الجليلة وقد أخـبرنى كثير من أهل البطانة وخصوصا صاحب السعادة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد بكثير فشكرته الله ثم لبثت بمدريد(١) ريثما تعافيت قليلا من النزلة الوافدة التى ضربت فيها أطنابها الآن وحينئـذ أمرنى الاطباء بالتوجه الى بعض البلاد الحارة فى جنوب الاندلس والعبور منها مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتنى العافية

مدينة اشبيلية

فقمت الى اشبيلية Sevilla التى كانت تسمى أيضا بحمص وقد

---

(١) اعلم انى تفرجت فى مدريد ثلاث مرات على مقاتلة الانوار المعروفة عند الفرنساوية باسم Course des Taureaux و Combat des Taureaux وعند الاسبانية باسم Corrida de los Toros وقد عرفت جميع تفاصيلها وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساء بها الى الدرجة التى لا يكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التى تجل ذكرهم الى حد يحسدهم عليه سراة القوم وأماثل الاماجد وانى أؤخر شرح ذلك الى فرصة أخرى لما يستوجبه من زيادة البيان مع ما فيه من الطلاوة والمباحث الرائقة وانما أقول الآن ان أهـل الاندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضا وكانوا يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

زرت جميع آثارها ودارا للقطاء فيها وكنائسها وصعدت الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة التى كانت فى أحد المساجد فاصبحت الآن مقرا للناقوس وزرت القصر الذى أنشاه الاسلاميون فأنسانى كل ما رأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متاهفا وكنت كذلك الشاعر الذى قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ومن غريب ما فى اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها فى وسطها فناء فى غاية الاتقان مغروس بزاهر الاشجار ومحفوف بفائق العمدان وفوقه رواق مثل ماهو معروف فى الاسكندرية باسم الحضير وعليه عمدان وحنايا مثل التى فى الفناء ولقد تحسنت صحتى باعتلال هوائها حتى صدقت من انشاء مشبابها

هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ماان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

ولا غرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المبانى وهى واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادى الكبير Guadilquévir يصعد المد فيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هـزا فضم من الحياء ازاره

ولقد صدقت حينما حللت فيها قول بعض واصفيها

ان شرفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح

وهذا الشرف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل عال من التراب الاحمر ومسافته ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى بها السائر فى ظل التين والزيتون

واعلم ان الاسبانيين والافرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا Axarafe و Aljarafe وهو الآن فى الجغرافية الجديدة لتلك الاقطار عبارة عن البلاد التى فى قسم سان لوكار لامايور أى سان لوكار الكبير San Lucar la Mayor وبعض القرى التابعة لمدينة اشبيلية ثم خرجت من هذه المدينة الجميلة قاصدا غرناطة Granada (Grenade) وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذكرتك يا حمص ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيته
كأنك والشمس عند الغروب * عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطود تا * جك والشمس أعلاه ياقوته

مدينة غرناطة وقصر الحمراء

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرنى ما عهدته فى بلاد المشرق وخصوصا المنارات التى كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع ومآذن المساجد التى أصبحت نواقيس

للمعابد وصرت أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى وصلت غرناطة المعروفة قليلا باسم اغرناطة ويسميها العرب دمشق من باب التشبيه وقد وصلت الى مالم تكد تصل اليه مدينة ما فانها حينما استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠٠ ورجالها ٣٥٠٠٠ من غير ضواحيها وأعمالها فقد كانت جيوشها تبلغ بهم ٢٠٠٠٠٠ يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبشرات Alpujarrat (Alpuxarat) ووادى آش Guadix وقد رأيت أن أختم رسائلى المؤتمرية فى هذه المدينة التى كانت آخر ملاذ للمسلمين وقد وصلتها بالليل ونزلت فى فندق واشنطون وقد علمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة انه قائم على نفس مكان المقبرة الملوكية التى كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسميها ابن الخطيب التربة

وقد عجلت بالاضطجاع بعد ان تناولت شيأ من الزاد وحينئذ ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ماوقع بتلك الاعصار والتفكر فى أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أثقلنى السهر وبرح بى التعب فاغمضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار فوق أغصان الاشجار كانها تقول لى

تنبه فقد شق النهار مغالسا * كمائمه عن نوره الخضل الندى

مداهن تبر فى أنامل فضة * على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت الى الرياض وغابات الاشجار وتدفق المياه فقلت

لله در الشاعر فى وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر

مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر

وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

ولكنى تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسى ولا غرو فان

أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يا نفحة الزهر من سرالك وافانى * خلوص ريالك فى انفاس آذار

والارض فى حلل قد كاد يحرقها * توقد النور لولا ماؤها الجارى

والطير فى ورق الاشجار شادية * كأنهن قيان خلف استار

ثم طفت بالحمراء Alhambra وقصرها ومساجدها وساحتها

ونقوشها ورسومها وزخارفها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون

فوقفت باهتا حائرا فاقدا اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن

يخطر على قلبى مع ما سمعته عنها من الاوصاف وما شاهدته من

غرائب المبانى فى غير هذه الدار حتى لقد اشتد بى الهيام وكنت

أمر على الديار ديار قومى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشاعر

وقفت بالحمراء مستعبرا * معتبرا اندب اشتاتا

فقلت يا حمرا الا فارجعي * فقالت وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكي وابكي بها * هيهات يغني الدمع هيهاتا

كانما آثار من قد مضى * نوادب يندبن امواتا

وعند الباب قدموا الى دفتر الزيارات فكتبت هذه العبارة التى املاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية

أحقا هذه الحمرا أحقا انني فيها

لله هذه القصور وهذه الدور ولله قوم خلدوا فخرهم على مدى العصور بهذي آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الفائقة وتنبه الغفلان الى بقاء الملك الديان وأن كل من عليها فان وتذكر بني الانسان بوجوب التعاون على البر والاحسان والتباعد عن التخاذل فهو الخسران ويرحم الله عبدا رأى فتذكر ونظر فاعتبر

أحمد زكي

يوم الثلاث ٧ رجب الفرد
سنة ١٣١٠ (٢٤ يناير سنة ١٨٩٣)

مندوب الحكومة المصرية
فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انى مارأيت فى طول سياحاتى شيأ أدق واتقن وأجمل وأكمل مما رأيته فى هذه المدينة حتى لقد رأيت ان المقرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة اثنا وصفه للاندلس بقوله

هى جنة الدنيا التى * قد أذكرت دار المقامه
لاسيما غرناطة الـ * غراء رائقة الوسامه
بروائها وبمائها وهوا * ئها النهافى الوخامه
ورياضها المهتزة الاعـ * طاف من شدو الحمامه
وبمرجها (١) النضر الذى * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التى * يابى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لا يعدلها فى داخلها وخارجها بلد من البلدان

---

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم La Vega وهى كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون ايجيلاذ Eguilaz وهو من أعيان أهلها ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعنى على صورة إله مصرى طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرنى ان أحد الفلاحين قد عثر عليها فى المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنبهته الى وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التى لا تنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

ولا يضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان ولا يأتى على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان

وكانت فى آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول كتاب العرب ان خارجها لانظير له فى الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا يخترقه نهر شَنِّيل (Jenil (Xenil المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لامثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربى

وما زلت اتردد بين هاتيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا أرى فى كل حجر وفى كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة ومجدها وقد جرنى ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم وتانقهم وترفههم للدرجة التى ليس بعدها مطلب أو غاية

لمع من تأنق الاندلسيين

فمن ذلك ان اعتماد زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن وهن رافعات عن سوقهن يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

وصير الجميع طينا في القصر* وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين الثمين وانالت النفس مناها ثم اتفق بعد خلعه انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الازواج فقالت له والله مارأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم الطين تذكيرا بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال مالا يعلم مقداره الا الله فاستحيت واعتذرت وسكتت .

وقد مدح بعض الشعرا يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة فيها ٤٠ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من اعدائه يأمر فى الحال باصطناع برك وحولها أساد وأشجار وازهار كلها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيبا لهم وايقاعا للرعب فى قلوبهم من غير ان يشافههم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل ما يرتضيه .

وقد كان عبد الرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء وولع بجارية له اسمها طروب وكلف بها كلفا شديدا واتفق انها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض وقصرت فى مقصوراتها فأرسل يترضاها وهى لاتزداد الا اصرارا على الجفاء حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فغلقت الابواب فى وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستاذنونه فى اقتلاع الباب فأمرهم بان يسدوه ببدر من الدنانير يرصونها عليه رضا ثم جاء بعد ذلك

يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهالت عليها الاموال فقال لها كل هذا المال لك دون سوالك ثم اعطاها حلية قيمتها مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا واكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لى شمس النهار * رطالعة ذكرتني طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور صنع قصرا من فضة صافية واهداه للسيدة صبح البشكنشية أم الخليفة هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بامره عند سيدها الخليفة الحكم حتى قال الخليفة لبعض خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحفهن به

ومن ذلك ان الحكم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره تجمعها داران

والاعجب من ذلك ما رواه المؤرخون من ان الخليفة عبد الرحمن الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس فى البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها القاصد رفقا * بأمير المؤمنينا

انما تقصد عرقا * فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور وسال عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له ان السيدة الكبرى جرجانة أم ولده وولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لمثل هذا اليوم فوهب لها ماينيف على ٣٠ ألف دينار .

تقدم الاندلسيين

وأمثال هذه الوقائع أكثر من ان تذكر وأقول ان أول تبليط حصل بالمدائن كان فى قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل قبل ان يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر يمشي فيها وفى أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال

معارف الاندلسيين

وأما رسوخ قدمهم فى العلم والعرفان فأمر يشهد به العدو والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فانه أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقي وقد صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق وصنع الالة المعروفة بالمنقالة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

وقد احتال فى الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال فى السقوط فتاذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع على زمكاه

أسوة حسنة للمصريين

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام ان القوم ماوصلوا الى هذه الدرجة الا بالعلم والعرفان وماأجدر شباننا المصريين الاذكياء المتعلمين ان يقتدوا بأهل الاندلس فى ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا أحرص الناس على التمييز حتى ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالة على الناس وكانوا يقرؤن جميع العلوم فى المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل ان يعلموا الخلائق وينوروا الاذهان لالكى يأخذوا جاريا أومعلوما ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم ومثلهم الآن معظم علما أورباه

مراعاة الاندلسيين للشرع الشريف

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى لقد كان للدولة الاموية فى أيام عز الاندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم فكان فى ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم وقد ذكر ابن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم

على خليفتهم أو على أبنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم وبذلك انضبطت لهم الامور وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وتوطدت القواعد ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحل شأنهم وفشلوا وذهبت ريحهم حتى قال شاعرهم

اسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة

مما يزهدنى فى أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

وما زالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول وكان الخرق لا يزداد الا اتساعا فوقع الإختلاف بعد ذلك الائتلاف وأعيى العلاج حكماء الرجال وعصفت عليهم ريح العدو والحرب سجال حتى لقد تمكن منهم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل العمال وأقام كل واحد منهم نفسه ملكا فى بلد واحد وصاروا يطمعون فى بعضهم و يستجيشون بالاسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه حصون المسلمين تشفيا لبعض غاياتهم حتى ان بعض ملوك الطوائف واسمه المأمون قبحه الله واخزاه بعث الى ملك قشتالة أوقشتالة المعروفة أيضا باسم قشتيلية Castilla يستنصره على الموحدين ويسأله ان يبعث له جيشا من الروم يجوز به الى العدوة اى

مَرَّاكُش لقتال يحيي ومن معه من الموحدين فقال له ملك قشتيلية « لاأعطيك جيشاً الا على شريطة ان تعطيني ١٠ حصون مما يلي بلادي كما اختارها لنفسي واذا منّ الله عليك ودخلت مدينة مراكش تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة في وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم وان أسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه من سبيل» فاسعفه النذل الجبان في جميع ماطلب من غير تبصر في العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى في واقعة العقاب (جمع عقبة لكثرة العقاب التي بجانب مدينة طلوسه Tolosa في شمال اسبانيا وتعرف هذه الواقعة عند الافرنج بماهو ترجمتها Las Navas de Tolosa وقد أشرت الى الراية التي أخذها الاسبانيون منهم وهي في برغش) وذلك ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج. فكانت الدائرة عليه وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم

الاندلس اذلم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جـدا لايقارب الالف وكانت هذه الواقعـة هى الطامـة الكبرى على الاندلس بل والمغرب وما ذلك الا لسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنقا بعضهم وظنا ان كثرة الاجناد تغنى عن دربة القواد ففسدت النيات حتى ان جماعات الموحدين لم يسلوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولا أخذوا فى شئ من أسباب الدفاع ولاأهبـة القتال بل انهزموا لاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك والعدو يبلى فيهم بلاء حسنا ويقتل فيهم قتلا ذريعا وهم (ياللنذالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم ويقول المؤرخون ان الناصر ثبت فى ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله

ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما تضعضع أمرهم وضيق عليهم العدو أشـد الضيق واحدق بغرناطة من كل مكان ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقاق حتى كان فى هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك أحـدهم فى غرناطة نفسها والثانى فى أحد ضواحيها المعروف بربض البيازين (١) والثالث فى محلها القريب منها وهومدينة وادى آش المعروفة أيضا بواد ياش و بوادى الأشات وكانوا قد

(١) هذا المحل سمى كذلك لكونه كان سوقا لاناس اتخذوا تربية البازحرفة لهم وتسمى عند الافرنج Albaicin

أحسوا بهذا الخطر احساسا لامزيد عليه حتى انهم استبدلوا الاقوال التى كانت تستعمل عادة فى ضرب السكة بهذه العبارات وقد رأيتها منقوشة على الدراهم والدنانير المحفوظة فى متحف مدريد وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيو ڤيڤس (١) D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل (٢) (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله) . (مالقة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) . ومثل (بحمراء غرناطة) . (نصر من الله وفتح قريب) . ومثل (العاقبة للمتقين) . ومثل (وما النصر الامن عند الله) . ومثل (وما النصر الامن عند الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) . ومثل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ومثل (الامير فلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هذه العبارات لم تكن مستعملة فى نقودهم قبل الايام الاخيرة التى

---

(١) انظر النبذة التى وضعتها بخصوص أسماء الاعلام صحيفة ٣٧٩

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغى الالتفات اليه وأقول انه مما لم يتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن الفوائد التى تنتج من علم النقود والمسكوكات

أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الفتن حتى انمحى أثرهم من الجزيرة ولقى من بقى فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ما سأفصله فى الرحلة ان شاء الله

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا حينما فزع اليه أكابر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم فى البلاد فانه قال لهم ما معناه - (الرأى عندى ان لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر) - فكان كذلك بالفتن التى استدامت بين البربر والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الاحوال فبعد ان أجلى المسلمون فى أول الامر جميع أهل الجزيرة واقصوهم الى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك يسميه العرب بلاى ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo فالتجأ هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند الافرنج الآن باسم جبل كوفادونجا Covadonga ولم يزل

المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقى فى ٣٠ رجلا و ١٠ نساء ولاطعام لهم الاالعسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيي المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا ٣٠ علجا ماعسى انيجيء منهم وماعلموا ان الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة ابنائهم واعقابهم جعل لهؤلاء «الثلاثين علجا» من القوة والكثرة مالاخفاء به حتى قهروا العرب واجلوهم بالمرة واذاقوهم أنواع الذل والهوان مما هومسطور فى كتب التواريخ وسألم ببعضه فى الرحلة ان شاء الله

أخلاق الاسبانيين .

هذا وقد رأيت فى أخلاق أهل اسبانيا أخلاق العرب وشهامتهم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسن الوفاء وحميد الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانته سواء كانوا يعرفونه أولايعرفونه وذلك مايجعلنى أفضلهم جهارا وأشهد على رؤس الاشهاد بان أخلاقهم أدمث وألطف وأشرف من جميع الامم التى طفت ديارها فى هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذى حق حقه وتقريرا للوقائع كماهى حتى انى وجدت فيهم من الطباع النبيلة ماقد نساه أهل البلاد العربية وانى اذاتعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك

لاهل اسبانيا حياهم الله وبياهم فقد آنست فيهم وفى بلادهم خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لى من صديق فيهم وقبل وصولى الى مدريد مايجعل لسانى يتلو آيات شكرهم فى كل ناد ويفصح بمفاخرهم وآثارهم فى كل واد على توالى الاماد وأكرر قول الاندلسى على جميع البلاد

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان

(تكملة الرسالة السابقة)

وهى

(نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا)

(والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب)

اعلم ان كثيرا من أشراف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت فى دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون مثال ذلك ابن بونه وهواسم لكثيرمن أدباء الاندلس وأصله الاسبانى Bono و Bueno ومعناها الطيب والجيد - ولاتزال عائلات اسبانيه كثيرة بهذا الاسم الى الآن ومثل ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذى دعانى لتحرير هذه الكمالة) وهو اسم لجملة ادباء اندلسيين منهم الغرناطى اللغوى الاديب أبوعبد الله محمدابن بيبش Ibn Vivax من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية Vivas و Vives مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة - وربما كان صاحبنا الدون أنطونيوفيفس المذكور بالمتن (صحيفة ٣٧٥) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن تكون أصلها اسبانية ثم استعربت ثم استسبنت أى صارت اسبانية

كما كانت ويكون الحكم كذلك فى بقيــة العائلات المذكورة فى هذه النبذة ـ ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ العالم أبى القاسم خلف بن عبــد الملك بن بشكوال من مشاهير المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم وهو حجة ثقــة واسمه مشــتق من Pascual من كلمة لاتينيــة Paschalis ومعناهـا المنتسب لعيــد الفصح ولايزال باسبانيا وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم ـ ومثــل ابن الاقشتين وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الاديب محمد بن موسى بن هاشم وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin ولاتينيتها Augustinus ومعناها العظيم الجليل ـ ومثل ابن البــاذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اســبانية لاتينية نص ابن الابار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes وهو لقب لاديب غرناطى توفى ســنة ٥٢٨ ـ ومثل ابن برّال Burriel أو Borrel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الاندلس ولايزال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ـ ومثــل ابن بشتغير Ibn Baxtagair وهو من أدباء الاندلس واسمه أبو جعفر ولقبه من كلمــة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعــة

الدولة أو الكنيسة فى الاحتفالات العمومية - ومثل الرُّشاطى وهو النسابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهذا الاسم مشتق من كلمة اسبانية Roseta بمعنى الوريدة تصغير وردة ومثل ابن الرومية وهو لقب لاحد مشاهير علماء النبات من أهل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسبة الى الاب لا الى الام الا فى أحوال استثنائية قليلة جدا فذلك يخيل لى انهم أبقوا له هذا اللقب دلالة على أصله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza المعروف عند العرب باسم غيطشه وربما كان الرجل من نسلها - ومثل ابن غرسية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهذا اللقب اسبانى محض Garcia وكان فى القديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولا زال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة - ومثل ذو الوزارتين السرقسطى ابن غندشلب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولا يزال لقبا لكثير

من العائلات الآن - ومثل ابن فورتش وهو لقب لبعض علماء الاندلس ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن كنبراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور . وهذا اللقب اسبانى محض - ومثل ابن ليون لقب لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة ألمرية Almeria ولأبيه أبي جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب . وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجيء من اللاتينيه Leo, nis بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن سلبطور من مشاهير علماء الاندلس وهو لقب مستعمل الى اليوم وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلص والمنقذ والمنجي وهو علم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه - ومثل ابن فيرُّه لقب لعالم اندلسىّ وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيره Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هييِرُه » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de hierro و Ferrocariles فترى ان كلمة « فيِرُه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب — ومثل ابن فورتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزال مستعملان الى اليوم Fortun و Morejon وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله ·

ومن الامور التي يجب ذكرها تكملة لهذه الكلالة ان أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة « ويه » فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقافويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « ان » فى آخر اسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف » و « إيف » ولا حاجة

لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة « أوف » أو « ايف » على اسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه « أحمد اغايف » ونظير هذين الحرفين « الواو والنون » فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية أى on اذا وضعا فى اخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا ذلك ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن : بدرون . برون بكرون - جبرون . جلفون - حبرون . حبنون . حسون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون - خلدون (١) خلفون . خيرون - دحون -

---

(١) أذكرهنا من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

ياشاعرا يتسامى ❊ وجده خلدون

لم يكف أنك خل ❊ حتى بأنك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور

من سره ان لايرى فاسقا ❊ فليجتهد ان لايرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه ❊ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبدالله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالفط

رزقون - زرقون . زقنون . زكون . زيدون - شجبون .
سعدون . بسلبون . سلمون . سمجون . سمجون .
سهلون - ضيفون - عبدون . عبيدون (وفى هذا الاسم
تصغير بالعربى وتكبير بالافرنجى) . عجلون . عسلون . عفنون .
عمرون . عيسون . عيشون - غدرون . غلبون - فتحون .
فلون . فرحون - قلون . قنون - لطفون - وهبون -
يسعون . يشعون . يحيون . واعلم ان زيادة الواو والنون تعدت
أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى
من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهة واجادة
كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعمى من المشارقة
تدل على شدة بديهتها حينما طارحته الشعر فى حضرة بعض الامراء
ولولا مافيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر
بها ولكن ذلك لايمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب
ونذكر اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى
اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك ان بعضهم أضاف على سمه حرفى الواو والسين
وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس

أنسوس - عبدوس . عروس - طحلوس . طملوس - فالوس

فرعوس . فرغلوس - قبستروس . قُبيلس ومنهم من يسمى

حمديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما من خصائص اللغة

اللاتينية is كما لا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى

ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن

الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة

المعارف وآثار الادرهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان

الاسبانيان لرتشندى وسيمونيت Lerchundi y Simonet

والمعجم العربى الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

ولما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال

وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن »

واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى « دو » فكانوا

يقولون فلان دو فلان أى من أو ابن فلان وقد استبدلوا لفظة

السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) كما يفعل الآن

بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية امام الاعلام العربية

فى الكتابات والمخاطبات على ما هو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم

الدون عيسى دو جابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية Ségovie

فى سنة ١٤٦٢ أفرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة

الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ (فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله و واسع علمه وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك اليوم والاغرب من هذا وهذا مابلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (أى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أى تأثير للاختلاط مع أهل أسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة «دو» فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة «ابن» وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم هذا وقد رأيت عند الدون بابلو خيل حججا شرعية وصكوك معاملات و وقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الخميا) وفيها «الدنيا عائشة» أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا

من العائلات الآن - ومثل ابن فورتش وهو لقب لبعض علماء الاندلس ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن كنبراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور . وهذا اللقب اسبانى محض - ومثل ابن ليون لقب لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة ألمرية Almeria ولأبيه أبي جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب . وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجيء من اللاتينيه Leo, nis بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن سلبطور من مشاهير علماء الاندلس وهو لقب مستعمل الى اليوم وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلص والمنقذ والمنجي وهو علَمَ فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه - ومثل ابن فِيُّره لقب لعالم اندلسىّ وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيره Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هيِيرّه » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de Ferrocariles و hierro فترى ان كلمة « فِيرّه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب - ومثل ابن فورتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزال مستعملان الى اليوم Fortun و Morejon وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله .

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكلمة ان أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة « ويه » فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقافويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « ان » فى آخر اسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف » و « إيف » ولا حاجة

لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة « أوف » أو « ايف » على اسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه « أحمد اغايف » ونظير هذين الحرفين « الواو والنون » فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية أى on اذا وضعا فى اخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا ذلك ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن : بدرون . برون بكرون — جبرون . جلفون — حبرون . حبنون . حسون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون — خلدون (١) خلفون . خيرون — دحون —

(١) أذكرهنا من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

ياشاعرا يتسامى ❁ وجده خلدون
لم يكف أنك خل ❁ حتى بانك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور

من سره ان لايرى فاسقا ❁ فليجتهد ان لايرى نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه ❁ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبدالله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

رزقون — زرقون . زقنون . زكون . زيدون — شحبون .
سعدون . سلبون . سلمون . سمحون . سمجون .
سهلون — ضيفون — عبدون . عبيدون (وفى هذا الاسم
تصغير بالعربي وتكبير بالافرنجى) . عجلون . عسلون . عفنون .
عمرون . عيسون . عيشون — غدرون . غلبون — فتحون .
فلون . فرحون — قلمون — قنون . لطفون — وهبون —
يسعون . يشعون . يحيون . واعلم ان زيادة الواو والنون تعدت
أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى
من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهة واجادة
كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعمى من المشارقة
تدل على شدة بديهتها حينما طارحته الشعر فى حضرة بعض الامراء
ولولا مافيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر
بها ولكن ذلك لايمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب
ونذكر اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى
اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك ان بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين
وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس

أنسوس ـ عبدوس . عروس ـ طحلوس . طملوس ـ فالوس فرعوس . فرغلوس ـ قبستروس . قبياس ومنهم من يسمى حمديس وهـذان الحرفان الانتهائيان هما من خصائص اللغـة اللاتينية is كما لا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادرهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشـندى وسيمونيت Lerchundi y Simonet والمعجم العربى الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

ولما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى « دو » فكانوا يقولون فلان دو فلان أى من أو ابن فلان وقـد استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية امام الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ما هو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دو جابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية Ségovie فى سنة ١٤٦٢ أفرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة

الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ (فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله و واسع علمه وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك اليوم والاغرب من هذا وهذا ما بلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (آى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أىّ تأثير للاختلاط مع أهل أسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم هذا وقد رأيت عند الدون پابلو خيل حججا شرعية وصكوك معاملات و وقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الخميا) وفيها « الدنيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى استكمال البحث فاننى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا

بالوراثة وبعضها عفوا أو لمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو قديرة (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من اسماء أهل طرابس وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaïdyn = زيدين و Abad اى عباد و Alvarez = الفارس و Alvarez del Campo اى فارس الميدان و Baguer = الباقر و Moreira = مريرة و Sofi = صوفى و Ferran = فران و Almenara اى المنارة و Alcayde = القائد و Alcalde = القاضى (ولايزال هذا اللقب عندهم مرادفا للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثيرة فى الشرع الشريف ويسمى عند الفرنساوية Alcade وان كان الاسبانيون اضافوا الاما L من باب التحريف فى قولهم Alcalde لاظهار تفخيم الضاد) و Rabadan = رمضان (الباء حلت محل الميم العربية) و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون بحرف S سينا على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى) و Calaf = خلاف و Maymon = ميمون و Alvaro = البرّ و Meaza = معازة و Alfageme = الحجام الخ

وهذه الاعلام كلها لاناس موجودين فى اسبانيا الآن رأيت بعضها فى كتب الدلالات وعرفت بعضهم بنفسى ومن ينظر الى اعلام الاسبانيين الآن يرى فى آخر أكثرها هذين

الحرفين Ez وهما على ماتأكدته علامة على البنوة فكل اسم فى آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى فرننده ثم Fernandez أى ابن فرننده وهكذا فى جميع الاسماء ولم أر مايشبه ذلك فى بقية اللغات الافرنجية التى أطلعت عليها وهذا مايدعونى الى الظن بانه أثر باق من آثار العرب الذين ينتسبون على الدوام الى الاب مع لفظة ابن وهذه الزيادة فى آخر الاعلام الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و «أوغلى» التى تضاف على أواخر الاعلام التركية

(الخاتمة)

بعدان زرت غرناطة وكتبت رسالتى الاندلسية التى لم يتيسر لى أن أو ردفيها جزأمن عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس وما رأيته فيهامن آثار العرب وبقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد يستغرق مجلدا ضخما قمت الى قرطبة وشاهدت معاهدها وبقاياها وأهم مارأيته فيها هو المسجد الجامع الذى لانظير له فى العالم الاسلامى وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهى عليه وأقسم بالله انى أكثرت من البكاء المر حينما درت فى صحونه وبين عمدانه ووقفت فى محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتقان التى لاتخطر على بالى مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة يوجب المهابة التعبدية فى نفس الزائر ويجعله يشعر حقيقة بوجود خالق معبود قسم الحظوظ وقدر الارزاق وأراد ماأراد ولاأتصور ان الخشوع الدينى والخضوع التعبدى يحدث فى نفس أى انسان فى أى معبد من المعابد التى اقامتها جميع الامم على اختلاف نحلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتم وأكمل مما رأيته فى هذا الجامع الذى يحتوى على اثنى عشر ألف عمود من مختلف الصوان وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفية

تخالف بعضها وأما المحراب فهو مصنوع من أحجار دقيقة مختلفة الالوان متركبة مع بعضها على نظام الفص والفسيفساء فتحدث منها أشكال متناهية فى الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية واذا نظرلها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا وتراكيب تخالف كل مايراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر فيما لو وقف فى الوسط أوتقدم أوتأخر وهكذا وخلاصة القول انى أتصور هذه القبلة مركبة من أحجار كريمة مرصوفة بجانب بعضها باكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة الى مدريد الى سرقسطة الى برشلونة Barcelone الى مارسيليا فبقيت بها أياما شاهدت كل مايجوز للغريب وعابر السبيل ان يراه فيها وفى أول فبراير سنة ١٨٩٣ امتنع الخبازون عن اصطناع الخبز لخلاف فى التثمين وقع بينهم وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسمت النازلة على أحسن حال

ثم قمت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم نيقة فانهم قد احتلوها هى وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا وهى من أجمل المدن وألطفها وأنظفها وغاية ماأقوله عنها الآن

انى شاهدت فيها الاحتفال بالكرنفال (أى عيد المرافع) وهو
أعظم احتفال يحصل فى العالم كله من هذا القبيل اذ تجيء اليها
قطارات مخصوصة لحضور هذا اليوم المشهود من لوندره وباريس
وبرلين وويانه ورومة وغيرها من مدن أوروبا كلها بل ويحضرها
فى هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحتفل به الاهالى والبلدية
احتفالا يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسما معينا لمعاونة
البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باغرب ماتتصوره العقول
ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا
الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتلها سلطان الجنون
بجنوده فتسقط التكاليف وتمتنع الحيثيات ويبقى الناس كلهم كلهم
فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم
متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوهم ورؤسهم صورا
ماأنزل الله بها من سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع مختلطين
نساء ورجالا وعذارى وأطفالا ويترامون بقصاصات الورق
والارز والفصوليه وباقات الازهار وغير ذلك مما لاتحيط Confetti
به الافكار وهم يسيرون زرافات ووحدانا ومشاة وركبانا ويتخذون
عربيات غريبة الشكل تضحك الثكلى وتزيل طوعا أوكرها تقطيب
الوجه العبوس ويصطنعون سفنا تجرها الافراس والخلاصة انهم

يركبون من الرفاهة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب ومع ذلك ترى النظام سائدا والادب العمومى ضاربا أطنابه فى قواعده الكلية فقط وهم فى هذه الايام لايعرفون الزعل أو التكدر أو الغيظ أو الحنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة البشرية ولهم فى ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام الاحتفال ولاشك ان شرح ذلك بالبيان الذى يجيش فى صدرى يستوجب رسالة ضافية مطولة لايسعها المقام الآن

ثم قمت الى مدينة موناكو ومنت كارلو ورأيت جمال مناظرهما الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة الاشجار فى جميع جهاتهما وغير ذلك من المناظر الطبيعية والصناعية التى تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو مشهورة بالمنتدى الذى هو من أكمل وأجمل منتديات العالم فى لعب الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما بقوانينه واجراآته

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فمررت على جنوة فبيشة فرومة وأقمت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنفال وشاهدت حرب الزهور Combat des fleurs ولكن احتفالها

مع جسامته ونخامته لايساوى جزأ من عشرين مما رأيته فى نيقة Nice ثم ركبت البحر عن طريق برندزى ووصلت الى الديار وحمدت الله على ماحصل من توفيقه لى وعناية بى أكثر مما كانت تحوم حوله آمالى

***

والناظر الى هذه الرسائل يعلم انى بارحت القاهرة فى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ فتكون مدة رحلتى ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حرا أو رباوحرارته كأشد مايكون وقاسيت بردها وصبارته فوق مايقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوروبا الاول مرة ويرى انى زرت مرتين ثنتين خمسة من عواصم أوروبا وهى رومة وباريس ولوندره ومدريد ولشبونة وتقابلت بمسلمى ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتقال وملكة الاندلس وانى زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد الاندلس بالتفصيل وكتبت شيأ يسيرا مما عرفته عنهما ففتحت هذا الباب وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم فقط وهى أكسفورد فى انجلترة وقلمرية فى البرتقال وشلمنقة فى إسبانيا وحضرت عيد الميلاد

فى مدريد وعيد رأس السنة فى لشبونة وأكات الفول المدمس وحضرت جلسات مجلس النواب والشيوخ فى فرنسا وشاهدت الاحتفال الرسمى بافتتاح مجلس نواب بلاد البرتقال وحضور الملك والملكة والقاء الخطبة الملوكية وشاهدت قتال الأثوار فى اسبانيا واعتصاب الخبازين وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام فى مارسيليا والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقة Nice وروميه وغير ذلك من الامور الكثيرة المتعددة التى لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفى رحلة واحدة لمصرى قبلى وان ماذكرته وخصوصا عن الاندلس فى هذه الرسائل هو قليل جدا فى جانب ما أتوسل الى القادر الكافى توالت نعماؤه ان يوفقنى ويعيننى على تحريره وتدوينه فى الرحلة الكبرى لتكون هى وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب فى أوروبا من طريق غير الذى رسمته يكتب لنا عما يراه وعما تنبئه به احساساته ليتكون فى لغتنا العربية مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك البلاد التى أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان

***

والمسؤل فى وجه الله الكريم المنان ان يوفق أبناء الوطن الى توفيته حقه من الخدمة فى ظل فخر الانام وعماد الزمان ولى العصر

وملیك مصر مولانا الاكرم وخديونا المبجل عباس باشا حلمى الثانى
أدامه الله كهفا للمعالى فهو الذى تفضل على بنظره العالى وانعامه
المتوالى حتى كتبت هذه الرسائل وبثثتها فى قومى قياما بما وجب
له من فرائض الشكر على عبده

المخلص

احمد زكى

(استدراكات)

(١) أنبه القارئ الى انى أشرت فى صحيفة ٦ عند الكلام على جزيرة أَقْريطش مايشعر باحتمال اشتقاق لفظة القند بمعنى السكر عند العرب من اسم هذه الجزيرة الآن الذى هو كنديا لاشتهارها باصطناع العسل الجيد - ولكننى تحريت ذلك فرأيت انه غير حق ويجب على تلقاء الذمة ان أبادر بالرجوع عنه بنفسى وأذكر الصواب وهو ان المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة فى سنة ٢١٠ اختطوا بها مدينة سموها ﴿الخندق﴾ ثم حرف الروم والافرنج هذا الاسم الى كنديا وتعارفه العرب بهذا الاسم وتناسوا الاسم العربى القديم كما حصل مثلا فى « دار الصنعة ودار الصناعة » فانه اسم عربى معتبر يدل على المكان الذى تصنع فيه السفن ذكره بهذا المعنى المقرى وابن بطوطة وابن الاثير والادريسى وابن خلدون وابن جبير والمسعودى وغيرهم وهو عند العرب يدل أيضا على المكان الذى يصنع فيه شئ من الاشياء ولكنه بالسفن أخص حرفه الاسبانيون الى Darsena و Atarzana و Arsenal ونقلها الطليانيون هكذا Arsenale و Darsena والانكليز الى Arsenal والفرنساوية الى Arsenal و Darse ومن المعلوم ان أهل مصر فى هذا الزمان أى من أيام محمد على استعملوا فيما يتعلق

بفن البحر كلمات كثيرة نقلوها عن اللغات الافرنكية وأخصها الطليانية فلم يلتفتوا الى ان كلمة Darsena أصلها عربي بل اضافوا لفظة (خانة) التركية وقالوا ترساخانة لاعتيادهم على اضافة «خانة» على اسماء جميع الاماكن العمومية الاميرية بالنسبة لتأثير اللغة التركية فى ذلك الزمان ثم انهم أحسوا ببعض المخالفة بين لفظتى (ترساخانة) و(دارسنا Darsena الطليانية) فحذفوا خانة واقتصروا على قولهم « ترسانة » ومثل هذه الكلمة كثير نقله الافرنج الى لغتهم ثم استرجعها العرب من غير أن يعيدوا لها شكلها بل أبقوها بكيفية لايكاد يتعرفها الباحث

***

(٢) ذكرت فى صحيفة ٤٦ ان كلمة Chapeau ومعناها عند الفرنساويين البرنيطة ربما كانت محرفة عن كلمة عربية وربما كانت هذه الكلمة هى «قبعة» وهو وهم محض فان الكلمة الافرنجية مشتقة من كلمة لاتينيه Caput بمعنى الرأس - والذى أوقعنى فى هاتين الغلطتين انى أوردتهما فى كتابتى اثناء الاسفار ولم يكن معى منها شئ استعين به على المراجعة فوجب الرجوع عن ذلك والحمد لله

***

(٣) قد سقطت عبارة من المطبعة اثناء طبع صحيفة ٢٨٦ فى منتهى الكلام على قبر (هيلوييس وأبيلار) ولزيادة الايضاح وجب علينا استدراك ذلك فالرجا من القارى ان يضيف العبارة الآتية على منتصف السطر الثالث من صحيفة ٢٨٦ المذكورة وهذه هى «وهذا الرجل من مشاهير الفلاسفة واسمه ورد بهذه الاختلافات

Abailardus, Abaulardus, Abaielardus, Belardus, Abélard, Abeillard, Abailard, Abaalarz,

بل و Baillart وهو من كبار الفلاسفة اللاهوتيين التعليميين وله مذهب مشهور فى الفلسفة وابتكارات ومصنفات مفيدة فى الموسيقى وكان يعيش فى منزل شماس له حفيدة من أشراف فرنسا بارعة فى الجمال واسمها هيلوييس فكلفه ان يتمم تعليمها ويؤدبها فكلف بها ابيلار حتى لقد كتب فى هذا المعنى يقول «ما كان لناسوى بيت واحد فلبثنا ان صار لنا فؤاد واحد» وبعد زمن قليل أحست الفتاة بالحبل فكاشفت استاذها (أو خليلها) بذلك فهرب بها ذات ليلة واخفاها فى شمال فرنسا عند اخته فوضعت ولدا سمته بطرس اسطرلاب. وحينئذ أراد الرجل أن يتزوج عشيقته ولكنها رفضت قائلة بان ذلك وخيم العواقب على محبوب قلبها وقد كتبت له (ان أصحاب المدارك ونوابغ الرجال لا يصح لهم ان يربطوا أنفسهم بالعائلة

ومشاغلها) وأيدت رأيها بنصوص من أقوال اللاهوتيين من اللاتينيين واليونان ويقال انها أجابت بعد كثرة الحاحه فى آخر الامر ولما اطلع الشماس على هذا السر شرع فى الاقتصاص من الفيلسوف فارشى خادمه ودخل عليه بالليل ومعه نفر من ذوى قرابته وصحابته ثم أوثقوا كتاف ابيلار وجبوا خصاه فالح الفيلسوف اللاهوتى المخصى على خليلته أو زوجته بان تترهب فاجابت ثم لحق بها فى الدير واسس دير اللراهبات ومازال يمارس التعليم والتدريس بما ينطبق تارة على أفكار اللاهوتيين ويخالفهم أخرى وهو يوالى وداده لصاحبته التى بقيت أصدق الناس على ولاءه

تم




COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040282953




COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040282953


Digitized by Google

